عثمان المنصوري

المغرب والبرتغال

أبحاث من الأرشيف البرتغالي



المغرب والبرتغال

هدية من المؤلف

عثمان المنصوري

المغرب والبرتغال
أبحاث من الأرشيف البرتغالي

عثمان المنصوري

المغرب والبرتغال

أبحاث من الأرشيف البرتغالي

المؤلف : ذ. عثمان المنصوري

الكتاب :المغرب والبرتغال – أبحاث من الأرشيف البرتغالي-

لوحة الغلاف : رسم الفنانة مية حفيدة المؤلف بتاريخ 2013/12/01

رقم الإيداع القانوني : 2017MO3760

ردمك : 978-9954-99-394-1



Av. Hassan II Cité Al Manar n° 6/3 - Rabat
05 37 20 46 32 - 06 61 20 37 76
imprimerierabatnet@gmail.com

تقديم

يسرني أن أقدم إلى عموم القراء والباحثين والمهتمين بتاريخ المغرب، وعلاقاته بالبرتغال، مجموعة من المقالات والنصوص المترجمة، التي أنجزتها على مدى يزيد على عقدين من الزمن، والموزعة على مجلات وكتب جماعية مختلفة.

لقد فكرت في أن أجمع الأعمال التي سبق لي نشرها، والمشتتة في مراجع مختلفة، في إطار مجموعات متجانسة، لتيسير الاطلاع عليها من قبل الباحثين المهتمين، علما بأنني فوجئت أكثر من مرة بأن بعض الزملاء المختصين في الفترة الحديثة، لا يعرفون شيئا عن بعض هذه الأعمال، أو يجدون صعوبة في الوصول إليها.

إن الباحث يقضي وقتا طويلا في إعداد بعض الأبحاث، ويشارك بها في ملتقيات علمية أو ينشرها في مجلات أو كتب جماعية، ولكنها لا تصل إلى نطاق واسع من القراء، لأسباب عديدة، أهمها عدم تمكن القراء من تتبع كل هذه الأعمال المشتتة، لذلك ارتأيت أن أقتدي ببعض زملائي الباحثين الذين خاضوا هذه التجربة فقربونا من أعمالهم، ومكنونا من الاطلاع عليها بيسر وسهولة.

تمثل هذه المجموعة الجزء الأول من مجموعات أخرى، وقد اخترت أن تتضمن ما كتبته اعتمادا على الأرشيف البرتغالي أو ترجمته من نصوص ومقالات من البرتغالية إلى العربية، بدون أن أتدخل فيه إلا بالنزر اليسير الذي يمكن من الفهم أو يتجاوز الأخطاء المطبعية أو اللغوية التي تسربت إلى الأعمال المنشورة.

والله ولي التوفيق

عثمان المنصوري

المحمدية في 16 غشت 2017

أهمية الأرشيف البرتغالي في كتابة تاريخ المغرب[1]

مقدمة :

يحتل الأرشيف الأجنبي مكانة هامة ضمن المصادر التي يعتمدها الباحثون المغاربة والأجانب للبحث عن المزيد من التفاصيل والتدقيقات المتعلقة بتاريخ المغرب.

وقد تزايد اهتمام الباحثين بهذا الأرشيف بعد أن تبين لهم ما يزخر به من مادة تاريخية غنية ومتنوعة، ومختلفة عما يقدمه الأرشيف المغربي، خصوصا بعد قيام عدد من الباحثين المغاربة الرواد، بإنجاز أبحاث اعتمدت على الوثائق الأجنبية، واستخرجت منها العديد من المعلومات التي انفردت بها، ومكنت من سد بعض الفراغات الموجودة في تاريخ المغرب.

وزاد من إقبال الباحثين على هذا الأرشيف، كونه ميسر لطالبيه، ومنظم، وكون المكتبات الأجنبية تمدهم بكل المساعدات الممكنة لمعاينته والاطلاع عليه وتصويره.

ويطمح هذا العرض المتواضع إلى التأكيد على أن الأرشيف البرتغالي يحتل مكانة متميزة ضمن الأرشيف الأجنبي، كمصدر غني للبحث في تاريخ المغرب الحديث والمعاصر.

مكونات الأرشيف البرتغالي.

قد لا يتسع المجال للإسهاب في الحديث عن مميزات هذا الأرشيف، وأماكن وجوده، وتنوع وثائقه، وسأكتفي بتقديم صورة عامة وسريعة، تتيح للمتتبع تكوين نظرة عن هذا الأرشيف، والتعرف بالتالي على أهميته.

وسأنطلق من التنصيص على ملاحظة أساسية وهي أن تاريخ البرتغال يشتبك ويتداخل مع تاريخ المغرب، خصوصا في فترة الاكتشافات، لذلك فإننا سنجد عددا كبيرا من المعلومات عن المغرب ضمن وثائق تتعلق بتاريخ البرتغال، لأن الاكتشافات بدأت بالمغرب. والخرائط الأولى التي أنجزت بدأت بالسواحل المغربية، كما أن تقارير الحكام والتجار والبحارة وربابنة

---

1 - نشر هذا المقال ضمن أعمال ندوة " الأرشيف وكتابة تاريخ المغرب" منشورات المجلس البلدي لمدينة صفرو، العدد العاشر، سنة 2000، ص.209-215.

السفن والرهبان التي بعثوها من الثغور المحتلة، أو في طريقهم إلى إفريقيا والهند، تضمنت العديد من المعلومات عن المغرب (معلومات سياسية واقتصادية وجغرافية ... الخ) .

ودون الدخول في التفصيلات، يمكن التأكيد على أن ما تم معاينته ودراسته - لحد الآن- من هذا الأرشيف، لا يمثل إلا قسطا ضئيلا مما هو موجود، ولا زالت هناك وثائق كثيرة تنتظر الاستغلال، تتعلق بتاريخ المدن المغربية المحتلة، والموانئ والتبادل التجاري والملاحة البحرية، زيادة على الخرائط والأوصاف التي قدمها المكتشفون للسواحل والمدن المغربية والاتفاقيات ووثائق الكنائس والأديرة، وضمنها وثائق محاكم التفتيش، والوثائق العائلية، والمصنفات المختلفة.

ولا يقتصر الأمر على الفترة الحديثة، بل إن ما يتوفر عليه الأرشيف البرتغالي في الفترة المعاصرة، يتميز كذلك بالكثرة والتنوع، على عكس ما كان سائدا من قبل لدى الباحثين، وكنموذج لذلك اخترت الحديث عن أرشيف القنصلية البرتغالية بطنجة.

أرشيف القنصلية البرتغالية بطنجة.

يتضمن هذا الأرشيف آلاف الصفحات، وهو موزع على عدد من المكتبات البرتغالية وأهمها:

1- مكتبة طوري دو طومبو بلشبونة: التي تضم مراسلات القناصل البرتغاليين إلى كتابة الدولة في الشؤون الخارجية خلال الفترة الممتدة من سنة 1787 إلى سنة 1844.

2- مكتبة أكاديمية العلوم بلشبونة: وبها مجموعة من الوثائق العربية التي تتخللها أحيانا وثائق برتغالية، وتوجد بينها بعض الوثائق الخاصة بقنصل البندقية، وهي تغطي الفترة الممتدة من 1771 إلى 1844.

3- أرشيف السفارة البرتغالية بالرباط: وقد تم نقله مؤخرا غلى البرتغال، ويضم مجموعة من السجلات التي تضم نسخا من المراسلات والوثائق المتعلقة بالفترة الممتدة من سنة 1824 إلى 1904. وقد اطلعت منه على ما يزيد على 20 سجلا يزيد عدد صفحاتها على 4700 صفحة.

4- مكتبة أجودا (Ajuda) وتتضمن على الخصوص الاتفاقيات والمراسلات الرسمية[2]

ويتكون أرشيف القنصلية البرتغالية بطنجة أساسا من المراسلات المتبادلة بين القناصل البرتغاليين، وبين المخزن المغربي من جهة/ ووزارة الخارجية البرتغالية من جهة ثانية، خلال

---

2 - للمزيد من التفصيلات أنظر:

O.Mansouri – M. Zaki, « L'histoire contemporaine du Maroc dans les archives portugaises » Maroc-Europe, 1994, n° 6, pp.321-330. - R.Ricard –A/D/Farinha » Les documents sur le Maroc dans le vol IV de « As Gavetas da torre do Tombo » seo. De Studia, n° 16- 1965.

الحقبة الممتدة - كما رأينا- من الربع الأخير من القرن 18 إلى مستهل هذا القرن، حيث تعاقب على منصب القنصلية عدد من أفراد عائلة كولاصو، وهم كالتالي:

- جورج كولاصو من 1773 إلى 1783.
- ابنه جورد بيدرو كولاصو من 1783 إلى 1816.
- ابنه جورج جوزي من 1816 إلى 1841.
- ابنه جورج ريموندو من 1841 إلى 1856.
- أخوه جوزيف دانييل كولاصو إلى نهاية القرن.

أما مضامين هذه الوثائق فتمتاز بالتنوع. ويمكن أن نلخص أهم الموضوعات التي تطرقت إليها فيما يلي:

1- العلاقات التجارية: حيث تتضمن العديد من المعلومات عن البضائع التي تم التبادل فيها، والرسوم الجمركية والأسعار، والمشاكل المترتبة عن الاستيراد والتصدير وحجم الرواج بالموانئ...إلخ.

2- العلاقات الدبلوماسية: حيث نجد بها عددا من المعلومات المفصلة عن الهدايا والسفارات والمفاوضات والامتيازات الممنوحة من الطرفين، ومساعي القنصل المستمرة لحل ما يطرأ من مشاكل، والخدمات التي كان يقدمها للسلطان ولرجال المخزن المغربي.

3- الأخبار والمعلومات: سواء منها تلك المتعلقة بالمغرب، من أحداث سياسية كالثورات والحروب بين المتنافسين على السلطة، والأحوال المناخية من تساقطات أو جفاف، وما يترتب عنها من توفر أو خصاص في المواشي والحبوب، وكذلك المجاعات وغلاء الأسعار وتعذر التصدير وأحوال الصحة العمومية وما يطرأ من أوبئة أو أمراض. إضافة إلى المعلومات الأخرى المتعلقة بتحركات الأساطيل والقرصنة، وعلاقات المغرب مع الدول الأخرى..الخ.

ولا شك أن أهمية هذه الوثائق لا تعود فقط إلى غناها وتنوعها، وإنما إلى النظرة الخاصة التي يقدمها القناصل للأحداث التي تقع بالبلاد، وهي نظرة مخالفة لنظرة المغاربة إليها، تتسم بالحياد والجرأة في تشخيص العيوب والمشاكل، والفهم العميق لأوضاع البلاد، يضاف إلى ذلك أن أسرة كولاصو قضت مدة طويلة بالبلاد، وأن معظم أفرادها ازدادوا بطنجة، وأنهم كانوا على دراية عميقة بأحوال المغرب.

آفاق الاستفادة من الأرشيف البرتغالي.

بالنسبة للبرتغال، نجد أن الباحثين اهتموا اهتماما كبيرا بالأرشيف البرتغالي المتعلق بالفترة الحديثة التي ركزوا عليها تركيزا كبيرا، باعتبارها فترة تمثل أوج عظمة الدولة البرتغالية.

وقد دفعهم ذلك إلى الاهتمام بتاريخ المغرب، وصدرت لهم دراسات عديدة في الموضوع لا يتسع المجال للحديث عنها.[3]

كما أن المصادر غير المنشورة لدوكاستر تضمنت عددا كبيرا من الوثائق التي استغلها الباحثون الأجانب، خلال الحقبة الاستعمارية على الخصوص، ومن بينهم مثلا: روبرت ريكارد (Robert Ricard) ودافيد لوبش (David Lopes) وشانطال دو لا فيرون (Chantal Deveronne) وبرنارد روزنبرجي (Berbard Rosenberger). إلا أن اهتمام الباحثين المغاربة بهذه المجموعة ظل محدودا، وفي إطار ضيق. ويمكن أن نقول باطمئنان كبير ، بأن الذين رجعوا إلى المجموعة البرتغالية، واستغلوها استغلالا جيدا، لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة، وعلى رأس هؤلاء الأستاذ أحمد بوشرب، الذي لم يكتف بها، وإنما ارتاد لنفسه أفقا أرحب، عن طريق تعلم اللغة البرتغالية في عين المكان، فتسنى له بذلك التعرف على أنواع أخرى من الوثائق التي لم يسبق استغلالها في تاريخ المغرب، وأعني بها وثائق محاكم التفتيش البرتغالية، كما فتح بابا دخل منه بعض الباحثين المغاربة الذين وجدوا في الأرشيف البرتغالي ما يتوقون إليه من المعلومات والفوائد.

إلا أن استغلال الأرشيف البرتغالي المتعلق بالفترة المعاصرة ظل ضعيفا جدا لدى البرتغاليين والمغاربة على السواء، لسيادة اعتقاد لدى الباحثين مفاده أن هذه الفترة لا تقدم شيئا ذا بال فيما يخص تاريخ المغرب أو العلاقات بين البلدين. والدليل على ذلك أن كتب تاريخ البرتغال، وعلاقاته الخارجية، لا تشير إلا في نتف ضئيلة إلى علاقات هذه الدولة بالمغرب في الفترة المعاصرة.

كما أن الدراسات المتعلقة بالمغرب وعلاقات البرتغال بالمغرب نادرة جدا في هذه الفترة، ويمكن القول إن اهتمامي الشخصي بأرشيف القنصلية البرتغالية بطنجة، حرك لدى الباحثين البرتغاليين، وبإشراف وتوجيه من الأستاذ أنطونيو دياش فارينيا، اهتماما متزايدا بهذا الأرشيف.

ومن الأكيد أن البحث في الأرشيف البرتغالي سيقودنا إلى اكتشاف العديد من الوثائق المتعلقة بالفترة المعاصرة، وأن العمل في هذا الأرشيف واستغلاله والاستفادة منه يتطلب التعامل معه بجدية وبتخطيط وعناية.

وإذا كان هذا الأرشيف - كما رأينا - غنيا ومتنوعا، ويعد بالكثير، فكيف نستطيع أن نستفيد منه بأفضل وجه ممكن، لخدمة البحث التاريخي المغربي؟

الجواب يكمن - في نظري- في تبني المقترحات التالية:

---

3 - أنظر عنها :

A.D . Farinha, Recherches portugaises sur le Maroc à l'époque moderne : Esquisse bibliographique, publication de la faculté des lettres-Rabat .1993.

1- من الضروري أولا، التوفر على إرادة حقيقية، وعلى اقتناع بأهمية هذا الأرشيف، وبضرورة استغلاله جيدا، وفي ظروف مساعدة.

2- إن كم الوثائق التي يتكون منها هذا الأرشيف، يبين أن الاستفادة منه، ليست عمل الأفراد، بل من الضروري أن تخصص له اعتمادات مادية كافية، وأن يتم العمل بدعم من الدولة، وفي إطار مؤسسات يتحدد هدفها وبرنامج عملها، والمدة الزمنية لتحقيقه.

3- بالنظر إلى قلة عدد الباحثين الكمهتمين، يجب وضع مخطط قصير المدى لتكوين باحثين متخصصين في الفترتين الحديثة والمعاصرة، وعليهم أن يتلقوا تكوينا في اللغة البرتغالية، وفي التاريخ البرتغالي، زيادة على البليوغرافيا والكرطوغرافيا.

4- إنشاء معهد مشترك، أو مجموعة بحث، تكون مهمتها السهر على جلب ونسخ ما أمكن من هذا الأرشيف، وترجمته وتيسيره للباحثين، واقتناء الكتب والأبحاث والدراسات الجامعية، لإنشاء مكتبة متخصصة، وإنجاز مشاريع مشتركة مع الطرف البرتغالي، وتطوير الاهتمام المشترك بتاريخ البلدين، والأبحاث المنجزة فيهما.

5- وبذلك يمكن اختصار السنوات الطويلة التي يتطلبها ما يقوم به باحثون فرادى، دون حوافز ودون دعم ودون تحفيز.

أسرة كُلاصو [1]

عائلة برتغالية، عاشت في طنجة لما يزيد على قرنين من الزمن، واشتغل معظم أفرادها بالمهام القنصلية ممثلين لدولة البرتغال في المغرب.

أول من وفد إلى المغرب من أفراد هذه العائلة وتولى منصب القنصلية فيما بعد هو : **جورج جوزي كلاصو** (Jorge José Colaço) وذلك في بداية الستينيات من القرن الثامن عشر. وهو من مواليد سنة 1700 بمدينة فارو بمنطقة الغرب البرتغالية. وكان في الأصل تاجرا، انتقل إلى جبل طارق سنة 1740، ومن هناك قام بالتوسط عدة مرات لافتكاك الأسرى بالمغرب بواسطة اليهودي حاييم طوليدانو. ثم انتقل بنشاطه التجاري إلى مدينة تطوان في سنة 1766، واستقر بها، وعايش السنوات الأخيرة للاحتلال البرتغالي للجديدة، مزودا دولته بمختلف الأخبار عن الترتيبات والاستعدادات التي قام بها السلطان لتحرير الجديدة، وكان له دور هو وابنه بيدرو في عقد الهدنة التي تجددت في السنوات الثلاثة السابقة على توقيع اتفاقية السلم.

وخلال هذه المدة لم يتقلد مهام القنصلية بشكل رسمي. إلا أن السلطان كان يعتبره بمثابة قنصل للدولتين. ولذلك انتقل مع باقي القناصل إلى طنجة بأمر من السلطان الذي أمره ببناء دار للقنصلية على الشكل الأوربي. وعند وصول الوفد البرتغالي إلى المغرب للتفاوض بشأن إبرام الصلح في أكتوبر 1773، وصلته رسالة من ملكه تطلب منه الالتحاق بالوفد هو وابنه، حيث التحق به في مراكش، وشارك في المفاوضات التي أسفرت عن إبرام صلح دائم بين الدولتين. ثم تدرج في المناصب القنصلية، فعمل وكيلا قنصليا ثم نائبا للدولة البرتغالية في طنجة، وهو المنصب الذي ظل يشغله إلى حين وفاته سنة 1784. ونظرا لإقامته في طنجة فقد كان المغاربة يفضلون التعامل معه على التعامل مع القنصل العام البرتغالي المقيم آنذاك بالصويرة. ويظهر أنه نجح في هذه المهمة، لدرجة أن السلطان محمد بن عبد الله كتب في 2 دجنبر سنة 1780 رسالة إلى الوزير البرتغالي مارتينيو دو ميلو يطلب منه تعيين جورج كلاصو قنصلا، مشيدا به وبحسن سيرته وكفاءته "... لأنه شخص مستقيم ونزيه ..." ولأنه يفضله أكثر من "...كل القناصل الآخرين المقيمين بالمراسي المغربية ...". وطلب منه في حالة تعذر ذلك أن يعين ابنه في محله " ... لأنه مسكين وأهل لكل خير...". وعندما توفي سنة 1784، أمرالسلطان فرانسيشكو شيابي الذي كان بمثابة كاتب للقناصل أن يبلغ ابنه نائب القنصل آنذاك، أنه أصبح في محل أبيه، وأرسل نفس الأمر إلى باشا طنجة من أجل الاعتراف به كقنصل

1 - نشرت هذه المادة في معلمة المغرب، العدد 24، الملحق (1)، سنة 2008، ص. 260-263.

لدولته ومعاملته على هذا الأساس. هكذا احتكر أفراد هذه الأسرة التمثيل الدبلوماسي والقنصلي لدولة البرتغال في المغرب لما يزيد عن قرن، وبرز العديد من أفرادها بما أسدوه من خدمات لدولتهم، وبالجهود التي بذلوها لتعزيز العلاقات الحسنة بين الدولتين والمحافظة عليها.

لم يعط لأسرة كلاصو دور رئيسي في القضايا المغربية إلا ابتداء من سنة 1785، مع تعيين **جورج بيدرو كلاصو** قنصلا للدولة البرتغالية بطنجة بمقتضى رسالة من مارية الأولى بتاريخ 12 أكتوبر 1785، وكان جورج بيدرو كلاصو، وكيلا للدولة مرافقا لأبيه وشاركه في أغلب مهامه، مثل سفره لمراكش لعقد الصلح، وفي كل السفارات والمهمات التي كان يقوم بها لصالح سلطان المغرب قبل تعيينه قنصلا للبرتغال بطنجة وهو المنصب الذي ظل يشغله إلى حين تعيينه قنصلا عاما. ويذكر هو نفسه أنه قدم في هذه الفترة خدمات مهمة لدولته، وبعث إليها بمعلومات سرية هامة عن المفاوضات التي كانت جارية بين إسبانيا والجزائر من أجل إبرام الصلح، وعن خروج السفن القرصانية الجزائرية إلى المحيط، وتحركاتها، كما قدم مساعدات قيمة لأسطول البرتغال، وتصرف جيدا من أجل المحافظة على العلاقات الحسنة بين المغرب والبرتغال، ومعالجة المشاكل التي طرأت بينهما أثناء الفترات الحرجة التي عرفتها العلاقات بينهما مع ارتقاء مولاي اليزيد العرش. حيث اضطر إلى ترحيل عائلته إلى جبل طارق فظلت هناك ثلاث سنوات ونصف، بينما بقي هو في طنجة. وقد مكنه بقاؤه في قلب الأحداث من تزويد بلاده بمعلومات صحيحة ونصائح بشأن تعاملها مع مولاي سليمان ومنافسيه، وكان وراء بعض قراراتها التي احترمت رغبة السلطان في عدم التعامل مع الموانئ الثائرة. وقبل أن يصبح القنصل كلاصو قنصلا عاما، تولى هذه المهمة القنصل العام برناردو سيمويش بيسوا (Bernardo Simoes Pessoa)، الذي عاد إلى البرتغال في بداية سنة 1779، وقد تدخل القنصل كلاصو لدى كاتب الدولة في الخارجية مارتينو دو ميلو ليعينه بدله في هذا المنصب، ولكن الدولة البرتغالية عينت شخصا آخر هو القنصل العام مانويل سيمونش دي بونتش(Manoel Simoens De Pontes) الذي لا نعرف عنه سوى معلومات قليلة ومن بينها مثلا أنه قدم إلى المغرب في شتنبر 1791، مع القرض الذي أرسلته دولته إلى السلطان مولاي اليزيد بقيمة خمسين ألف بسيطة.

وقد تم تعيين جورج بيدرو كلاصو قنصلا عاما لدولة البرتغال في المغرب في أعقاب نجاح سفارته إلى مولاي سليمان سنة 1798. وعين ابنه جورج جوزي قنصلا بطنجة خلفا له، بناء على طلبه. وفي السنة الموالية أصر على البقاء في طنجة، خلال الوباء الذي كان يهدد المدينة، على الرغم من ترخيص الأمير الوصي له بالانسحاب . مع معظم القناصل إلى طريفة، وهو موقف شبيه بموقفه عند الهجوم الإسباني على طنجة سنة 1791، حيث لم يغادرها إلا مكرها بعد ثلاثة أيام من القصف الشديد.

عرفت العلاقات بين المغرب والبرتغال نوعا من التآزر والتقارب بسبب تعرض هذه الأخيرة للغزو الفرنسي، في أكتوبر من سنة 1807، واضطر الملك البرتغالي إلى اللجوء إلى البرازيل. واحتاجت البرتغال إبان هذه الأزمة إلى مساعدة المغرب، وطلبت اللجنة العليا لمملكة الغرب قرضا من السلطان مولاي سليمان بقيمة مائة ألف بسيطة، وكلفت قنصلها بالسعي لديه من أجل ذلك، وقد حظي الطلب البرتغالي بموافقة غير مشروطة، أثارت إعجاب واستغراب القنصل نفسه، فلم يطلب منه السلطان أية ضمانة عدا توصيل بسيط . وهي - حسب القنصل نفسه - " ظاهرة لم يشهدها أبدا بهذا البلد، حيث يقرض مسلم مسيحيا المال، ويأخذ منه كضمان إيصالا بسيطا..." وكان لهذه المبادرة تأثيرها الإيجابي على العلاقات بين البلدين على الرغم من أن البرتغال عدلت في الأخير عن الإقتراض بسبب توفر ظروف مالية إيجابية.

وفي يوم 10 فبراير 1814، مات القنصل البرتغالي العام جورج بيدرو كلاصو بطنجة. ودفن يوم 14 فبراير، ورافقه في موكب الجنازة خمسون جنديا وبعض القادة، وخلف ذكرى طيبة لدى كل من عرفوه من القناصل ورجال المخزن المغربي، وعندما سمع الوزير السلوي بالخبر، سأل صاحب الرسالة أحقا مات قنصل البردقيز، وقرأ الرسالة بصوت مرتفع، ثم عقب قائلا : **"لقد أثر في فعلا موت هذا الرجل الشريف، لقد كان وحيدا وبدون نظير بين كل القناصل والمسيحيين"**.

وعندما حل **جورج جوزي** مكان أبيه سنة 1814، عمل على جعل إخوته في بعض المهام القنصلية. وهكذا أصبح أنطونيو كورنيليو قنصلا بطنجة، وجوزي جانواريو قنصلا بالعرائش. واستفاد جورج جوزي كثيرا من العلاقات والصداقات التي كونها في طنجة ولشبونة، ومن معرفته بعادات البلاد وبأساليب التعامل التجاري بالمغرب، وخاصة بعد أن تزوج ابنة دانييل ماكنمارا في4 مارس 1810 وتحالف بذلك مع هذه العائلة الإسبانية ذات الأصل الإيرلندي التي كانت تعتبر من أكبر العائلات المتعاطية لتجارة الأبقار والماشية. ثم تدهورت أوضاع القنصل المادية وخصوصا بعد سنة 1819، حيث ازدادت شكاواه إلى دولته من ضآلة راتبه وعدم كفايته لتلبية حاجيات أسرته المتزايدة، وقلته بالمقارنة إلى ما يتقاضاه باقي القناصل الموجودون بالمغرب. مما أثر سلبا على أدائه الدبلوماسي. وانعكست نفس الظروف على أحوال أولاده، جوزي كلاصو قنصل العرائش، وأخيه أنطونيو. وفي سنة 1833 أعفي القنصل من منصبه لمدة سنتين، ثم أعيد إليه سنة 1835، وظل فيه إلى أن تم إعفاؤه منه سنة 1841 ، بعد أن تراكمت عليه المشاكل المادية وأنهكه مرض الكبد. وتم تعيين ابنه ريموندو بدله. ويظهر من الوثائق أنه ظل حيا إلى حدود سنة 1844.

عاين **جورج ريموندو كلاصو** (Jorge Raimundo Colaço) ما تعرضت له طنجة من هجوم على يد الأسطول الفرنسي، بعد عودته من الجزيرة الخضراء سنة 1844، وطالب من السلطان تعويضا عما تعرض له منزله من إتلاف وسرقة أثناء غيابه، لكن السلطان رفض ذلك معللا رفضه بضرورة سد هذا الباب لأن النهب شمل الجميع وحصل في مخازن المخزن نفسها. وقد استمر في منصبه كقنصل عام ووزير مفوض للدولة البرتغالية بالمغرب إلى سنة 1861، حيث طلب إعفاءه من المنصب بسبب المرض وتعيين أخيه جوزي دانييل بدله. وفي عهده تمت زيارة الدون فرناندو إلى المغرب حيث نزل بطنجة في 20 ماي 1856، على متن الباخرة العسكرية ميندلو، واستقبل من قبل الباشا حاكم طنجة، وكانت أول زيارة يقوم بها عاهل أوربي للمغرب. وقد توفي سنة 1865.

ولد **جوزي دانييل كلاصو** (José Daniel Colaço) في طنجة سنة 1831 وتوفي بها سنة 1907. وفي سنة 1843 أرسله والده إلى قادس للدراسة، إلا أن انتقال الأسرة إلى الجزيرة الخضراء بسبب الهجوم الفرنسي على طنجة، منعه من متابعة دراسته، وحين عاد إلى المغرب اشتغل في القنصلية مع أخيه ريموندو، إلى سنة 1845، حيث قررت العائلة إرساله إلى لشبونة للدراسة في الأكاديمية الوطنية للفنون الجميلة، ثم التحق بمدرسة البوليتكنيك بلشبونة، وفي سنة 1853 عاد إلى أكاديمية الفنون الجميلة لتعميق دراسته الفنية فحصل على الميدالية الذهبية في المسابقة النهائية. وعاد إلى طنجة سنة 1856، حيث عين نائبا للقنصل، و شرع في النيابة عن أخيه منذ سنة 1858. وفي سنة 1859 نجده من جديد في لشبونة، عندما توفي السلطان عبد الرحمان بن هشام، ورافق السفينة التي أرسلتها البرتغال إلى المغرب تحسبا لانتفاضات قد تهدد الرعايا البرتغال بالمغرب. وخلال تلك الفترة كان المرض قد نال من أخيه ريموندو ولم يعد قادرا على الاستمرار في مهامه القنصلية، فاقترح بإلحاح أن يخلفه أخوه جوزي دانييل في منصب القنصل العام، وهو ما تحقق بتعيينه سنة 1861. وتمكن جوزي دانييل ، خلال الفترة التي قضاها كقنصل عام للبرتغال بالمغرب من القيام بعدد من المهام ، وتقلد مسؤوليات خاصة، ولقي تقديرا خاصا من دولته ومن المخزن المغربي . وفي سنة 1860 عين نائبا قنصليا للبرازيل، ثم قنصلا لها بطنجة سنة 1878.   وفي سنة 1861، كلفته دولته بإحضار هدية إلى الأمير مولاي العباس، وفي سنة 1865 كلفته من جديد برئاسة سفارة لتقديم هدية خاصة إلى السلطان وهي وسام الصليب الأكبر لطوري إسبادا. وعندما توفي السلطان محمد بن عبد الرحمان وتولى ابنه مولاي الحسن، كان على رأس سفارة البرتغال إلى السلطان الجديد سنة 1877. وفي سنة 1882، عين مبعوثا استثنائيا ووزيرا مفوضا " كامل أو مطلق الصلاحيات "بلينبوطنسياريو" من الدرجة الثانية، وزاول هذه المهمة إلى غاية سنة 1896. وفي سنة 1887 آلت إليه عمادة السلك الدبلوماسي، وظل يمثل بلاده إلى غاية سنة 1896. حيث عزل من منصبه، وعينت دولته قنصلا شابا عمره 23 سنة ، وهو ألبرتو دي أوليفيرا (Alberto De Oliveira) وبذلك يكون آخر قنصل عام من هذه العائلة.

من أهم منجزاته، الحصول على شاهد قبري برتغالي ونقله إلى البرتغال، وكذلك الدور الذي قام به من أجل تحرير العبد فاتح، ورئاسة الوفد الأوربي الذي ذهب لفاس لتهنئة مولاي الحسن بمناسبة انتصاره على قبائل بني مكيلد . وتقديرا لجهوده، تلقى العديد من الأوسمة، من إسبانيا وتونس والبرازيل. وفي سنة 1897، حصل من دولته على لقب بارون دي كلاصو إي مكنمارا. وقد ترك مجموعة من الكتب والمقالات، ومن بينها كتاب بعنوان: رحلة صاحب الجلالة الملك والسيد فرناندو إلى المغرب، يليها وصف تقديم وسام الصليب الأكبر لطوري إشبادا، إلى السلطان سيدي محمد، سنة 1882، الذي يتضمن عددا من المقالات ونشر سنة 1856 في مجلة " Archivo Universal " بلشبونة . وكان أول كتاب يطبع باللغة البرتغالية بالمغرب بالمطبعة العصرية : G T Abrines

وله عدة مقالات أخرى منها: تاريخ الملوك المغاربة، سنة 1874، ومقال عن التبغ، وآخر عن العبد فاتح، وملاحظات حول رحلة إلى فاس، 1903 بلشبونة. وكتاب الملوك المغاربة، سنة 1906. كما خلف مجموعة من اللوحات الفنية.

بالإضافة إلى الأسماء السالفة الذكر، برز بعض أفراد هذه الأسرة سواء في العمل القنصلي أو في المجال الفكري، ومن بينهم على سبيل المثال:

إميليو ري كلاصو (Emilio Rey Colaço)، وهو ابن أخت القنصل السابق، وكان يتقن اللغة العربية ومتمرسا بعادات وأحوال المغرب، ولذلك كان المخزن يستعين أحيانا بخدماته. وهو الذي ترجم المعاهدة التجارية المغربية الألمانية سنة 1890 أثناء غياب منصور ملحمة.

جورج ري كلاصو: الذي شغل منصب نائب القنصل سنة 1894، وهو رسام اشتغل على الزليج والكاريكاتور، درس الرسم في مدريد وباريس، وخلف عددا من اللوحات المشهورة، مثل: فيلسوف عربي، إسبانيا وقنطراتها، نوماد، في بادية أصيلا. كما أسس مجلة طالاسا، وسيرها وساهم فيها برسوم الكاريكاتير، التي ساهم بها أيضا في مختلف الجرائد اليومية، وله عدة أعمال على الزليج تزين قصر وندسور، وجنيف وساو باولو وريو دي جانيرو، وبيلوهوريزانت بالبرازي، والبرتغال خصوصا في المدرسة العتيقة للطب بلشبونة، وساحة فندق دو بوساكو، ومحطة ساو بنتو بمدينة بورطو، وقصر العدالة بكويمبرا، والمكتبة الوطنية بكَوا الخ . وقد نظم معارض كثيرة بالجمعية الوطنية للفنون الجميلة، وحصل فيها على العديد من الجوائز التقديرية خلال سنوات 1901- 1906 وسنتي 1925 و 1936. وفي مدريد سنة 1815 وريو دي جانيرو سنة 1908 وفي باريس.

المراجع :

_ عثمان المنصوري ، العلاقات المغربية البرتغالية (1790-1844)، مطبعة فضالة ، 2005.

- Antonio Jorge Affonso, Portugal e O Maghreb nos finais do antigo regime, mémoire de maitrise , lisbonne , 1998.

- Grande enciclopédia portuguesa e brasileira . lisbonne , T VII, p : 103-105.

- Archives de torre do tombo , MNE , CX : 299, 300 et 301.

- Jorge Forjas , Os Colaço , Uma familia portuguesa em Tanger , 2004.

حول ضرب النساء[1]

تقديم:

يسرني أن أقدم للمهتمين بالمسألة النسائية، هذه الوثيقة التي عثرت عليها ضمن الأرشيف البرتغالي المتعلق بقنصلية البرتغال بطنجة، وهي عبارة عن رسالة بعثها القنصل البرتغالي جوزيف دانييل كولاصو، أصالة عن نفسه ونيابة عن قناصل دول أخرى مثل بريطانيا والنمسا والدانمارك، إلى السلطان مولاي الحسن، وذلك بتاريخ مارس 1883. ويدور موضوع الرسالة حول ظاهرة ضرب النساء من طرف ولاة المخزن كعقاب على بعض المخالفات التي يقمن بها، وهي محررة بلغة ضعيفة تتخللها عبارات دارجة تحول دون فهم مضمونها لذلك ارتأيت أن أرفقها بهوامش توضيحية، وأن أقدم هذا التلخيص الموجز لمضمونها:

بعث القناصل المذكورون إلى السلطان المغربي يذكرون له أنهم. اعتمادا على ما هو معروف عنه من رجاحة عقل ورحمة وحب للخير. يلتمسون منه أمر ولاة مخزنه بالتخلي عن عادة ضرب النساء المستحقات للعقوبة، ويخبرونه أن الجرائد الأوربية تستغل هذه العادة للتشهير بالمغرب، وأن ضرب النساء أصبح عيبا عند الأوربيين. ويرجون منه أن يتأمل جيدا في كلامهم لأنه ناتج عن إخلاصهم وحبهم الخير للسلطان، وأنهم لا يعتقدون أن السلطان يقبل أو يرضى بذلك مطلقا لما هو معهود عنه من الشفقة والرأفة برعيته.

نص الرسالة:

«إلى الحضرة الشريفة المولوية السلطان المعظم بالايالة المراكشية وغيرها. فالواضع المنسطر[2] لدولة كَريت ابريطن[3] ونايب النيريال الأسطرية هنكَرية[4] ودينامارك[5] والفلمنك، حيث متكل على وجود العاقل التام والرحمة والشفقة والخير من سيدنا الذي هو معروف لدى الخاص والعام وحيث لاشك لنا من صحيح مراده التام

1 - نشرت هذه الوثيقة في مجلة أمل، العدد الخامس، السنة الثانية، سنة 1994، صص.166-168.

2 - الوزير (Ministro) .

3 - بريطانيا العظمى.

4 - نائب الامبراطورية النمساوية الهنغارية.

5 - الدنمارك.

ليحيد[6] كل ما يعد ويجلب يتخيل ويتوهم من جهة دول الأجناس[7] من قبل ما يعمله الولاة بمراكشة[8] المعينين من الجانب الشريف فيطلب بأمر من دولته بأن المخزن من العمال وغيرهم أن يتركوا ويتخلوا عن العادة لضرب النسا المترتب عليهن حجة[9] فعلى كل حال يومروا بالتخلي عن ذلك وإبطاله فيكون في علم الجانب الشريف بأن الجوازيط[10] في هذه الأيام القريبة اشهرت وأذاعت مرارا كلاما في جميع بلدان الأجناس بما وقع من العصا للنسا بالدار البيضاء وغيرها وبلغ ذلك للدول ولرعاياهم ووقع في ذلك كلام كثير لا يناسب ذكره من حيث هذه العادة الناقصة الصادرة من ولاة هذه الايالة. وهذا الضرب للنسا قد كان في الزمان الفارط من بعض ايالة الأجناس وترك ذلك، إذ ذاك[11] يحصل منه غيار[12] للقلوب ولا بقي يقبل من أحد في هذا الوقت. ويذكروا أن الدولة التي على هذا الوجه تضع المحبة التي الواضع[13] مراده التام بقاءها بين سيدنا والدول التي هو نايب عنهم يطلب ويرجو من الله أن سيدنا يتأمل في هذا الكلام الذي ذكره ويلوح[14] لمعناه ويرجو أن يكون في صميم قلبه الشريف أنه خرج من قلب ناصح الذي غرضه في الخير لجانب الشريف فيطلب من جانب الشريف أن يأمر بما يليق باقتضاء نظره الشريف للولاة الذين هم عمال وأشياخ بالتأخر والتخلي عن تلك العوايد التي يحصل منها الغيار للأجناس وينظروا فاعلها بعين الازدرا والنقص وهو ضرب النسا بازفل[15] مطلقا كن مسلمات أو غيرهن فالواضع زعّمه[16] واقدمه على طلب ذلك على وجه المحبة لما يظن أن سيدنا من شفقته ورحمته ورأفته وحاشته[17] أن لا يرضى يقع للنسوة مطلقا مثل ذلك لما هو معهود من شفقته التامة».

6 - ليزيل .

7 - يقصد الدول الأوربية.

8 - يقصد المغرب .

9 - المستحقات للعقاب.

10 - الجرائد .

11 - لأن ذلك .

12 - غضب.

13 - واضع الرسالة.

14 - ينفذ إلى عميق معناه.

15 - العصا.

16 - جرأه .

17 - حاشاه.

الأرشيف البرتغالي كمادة لتاريخ المجاعات والأوبئة في المغرب وثائق القنصلية البرتغالية بطنجة نموذجا[1]

لم يعد خافيا على المهتمين من الباحثين، ما للوثائق الأجنبية من أهمية في توضيح العديد من الجوانب الخفية من تاريخ المغرب. وتهدف هذه المداخلة إلى التعريف بنوع من هذه الوثائق، وبما يحويه من معلومات متنوعة ومفيدة عن المجاعات والأوبئة، في فترة تاريخية تمتد من سنة 1790 إلى 1844. ويتعلق الأمر بأرشيف القنصلية البرتغالية بطنجة الذي يتضمن عددا من المراسلات والتقارير والوثائق المرفقة التي كان القناصل البرتغاليون في هذه الفترة يبعثون بها إلى وزارة الخارجية البرتغالية أو غيرها من المصالح والإدارات البرتغالية، عن المغرب وأحواله وما يطرأ فيه من أحداث. ومعلوم أن أسرة كولاصو(Colaço) احتكرت منصب القنصلية العامة بالمغرب لمدة طويلة، من نهاية القرن الثامن عشر إلى بداية القرن الحالي. وولد بعض أفرادها وعاشوا في طنجة، فتأتى لهم بذلك إطلاع واسع على أحوال المغرب ومعرفة كبيرة بأهله وعاداته، وكونوا علاقات وطيدة مع المغاربة بمختلف مشاربهم ومكاناتهم .

يتسم أرشيف القنصلية البرتغالية بطنجة بعدد من الخصائص والمميزات التي تعطي مصداقية كبيرة لما يتضمنه من معلومات وما يتطرق إليه من مواضيع. ويستطيع الباحث أن يتبين ذلك بكل وضوح عند الإطلاع عليه. ومن هذه المميزات الحياد والموضوعية اللذين يطبعان جل المراسلات، وخاصة تلك التي تتطرق لمواضيع لا تتضمن مصالح شخصية للقنصل، أو آراءه الخاصة في الدين والعادات المغربية. وبالنسبة لموضوعنا، فإن الدقة والموضوعية ضروريتان، لأن الدولة البرتغالية تحتاج إلى معرفة أحوال البلاد المناخية، وحالة المحاصيل الزراعية، وأثمان المواد المنتجة، وكل ما يطرأ من أحداث سياسية من شأنها أن تؤثر سلبا أو إيجابا على الإنتاج الفلاحي. كما تتضمن المراسلات القنصلية بعض الجوانب الغائبة في المصادر المغربية التي لا تتحدث مثلا عن الاتفاقات المبرمة بين المغرب وبين غيره من الدول الأوربية، وخصوصا تلك المتعلقة بالتبادل التجاري في المواد الفلاحية والماشية. وتتسم هذه المراسلات أيضا بالاستمرارية، فهي تمتد على فترة زمنية لا بأس بها، ونطلع فيها على تطور الأحداث، حيث نتتبع الجفاف من بدايته إلى نهايته، والأوبئة منذ ظهورها إلى حين القضاء عليها تماما. ومما يعطي لهذه التقارير المزيد من المصداقية، كون القنصل العام البرتغالي يعتمد في ما يزود به بلاده من أخبار على تقارير أخرى تأتيه من شبكة واسعة من المراسلين، ومنهم نوابه

---

1 - نشر ضمن أعمال الأيام الوطنية العاشرة للجمعية المغربية للبحث التاريخي المنظمة بالجديدة، " المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب والجمعية المغربية للبحث التاريخي، سلسلة ندوات ومناظرات، عدد 4، سنة 2004، صص. 289-305.

في بعض المدن المغربية، وأصدقاؤه من مغاربة مسلمين ويهود، وبعض رجالات المخزن، والتجار، وممثلي القنصليات الأوربية الأخرى. وبالإضافة إلى الأخبار المؤكدة واليقينية، فإن المراسلات تتضمن أيضا الإشاعات والأخبار غير المؤكدة، وهي أيضا تفيد الباحث لأنها تعبر عن الجو السائد في البلاد، وعن التأثير النفسي الذي يحدثه الوباء أو المجاعة في الناس.

ولكي تتضح هذه الخصائص والمزايا أكثر، ارتأيت أن أعرض مجموعة من النصوص المختارة من أرشيف القنصلية البرتغالية بطنجة، في ملحق بهذا البحث، وسأكتفي بتعريف مختصر بالإفادات المتضمنة فيها، تاركا للقارئ أن يعود بنفسه إليها ليطلع عليها بالتفصيل .

أولا ـ الإفادات المتعلقة بالمجاعات والجفاف

اهتم البرتغاليون ـ وربما أكثر من غيرهم من الدول الأوربية ـ بالأوضاع الفلاحية في المغرب، وبأحوال المناخ من تساقطات وجفاف، وكل ما من شأنه أن يؤثر على الإنتاج الفلاحي. ويرجع هذا الاهتمام إلى أن دولة البرتغال ـ كما هو معروف ـ لم تكن تنتج ما يكفيها من الحبوب، ولم يكن ما تنتجه من مواش كافيا لها، وخاصة خلال الأزمات السياسية التي مرت بها، ولذلك كانت تعتمد اعتمادا كبيرا على ما توفره لها الدولة المغربية. ولذلك أيضا، حفلت تقارير القنصل البرتغالي بمعلومات عن حالة المحاصيل الزراعية وأثمانها وحالة القطيع المغربي وأثمان رؤوس المواشي، سواء في أوقات الشدة أو الرخاء. ويمكن أن نعاين ذلك من خلال الإطلاع على الوثائق الملحقة[2]. كما أن بعض هذه الوثائق تتضمن تفسيرات لما تتعرض له البلاد من مجاعات، مثل الجراد أو الجفاف أو الوباء[3].

وتتضمن التقارير القنصلية أيضا معلومات عن مظاهر الجفاف والمجاعة، وما وصلت إليه أحوال المغاربة خلال أزمة المجاعة. ويكفي الإشارة إلى ما ذكره القنصل عن اضطرار الناس إلى أكل جذور النباتات والجيف ومختلف أنواع الأزبال، وموت الناس جوعا في الشوارع[4]، وحالة القلق التي عمت المغاربة الذين تعودوا ـ حسب رأيه ـ على الإنتاج الوفير والرخيص[5]، واستغلال الباشوات لهذه الوضعية للمطالبة لأنفسهم بهدايا ورشاوى مقابل السماح بتصدير الحبوب التي أمر السلطان بتصديرها [6]، ووفود الناس من المناطق الداخلية إلى المدن الساحلية التي استفادت من واردات الحبوب[7]، كما تطرقت بعض التقارير إلى نتائج المجاعات، ومن

2ـ أنظر الوثائق أرقام 1 و2 و 3 و 16 و 17 . في الملحق المرفق بنهاية هذا المقال.
3ـ نفسه، أرقام : 1 و 9 و 10 و 16 و 17 .
4ـ نفسه، رقم 19 .
5ـ نفسه، أرقام 1 و 16 و 18 .
6ـ نفسه، رقم 2 .
7ـ نفسه، أرقام 16 و 17 و 18 .

بينها مثلا تسببها في بعض الأمراض ومن بينها الحمى الخبيثة[8]، وعدم تمكن الناس من الاستفادة من سقوط الأمطار بسبب موت الماشية وقلة البذور[9].

ثانيا ـ الإفادات المتعلقة الأوبئة

تتضمن التقارير أيضا العديد من المعطيات المتعلقة بالأوبئة التي تعرض لها المغرب. وقد كان الاهتمام الأوربي بالموضوع نابعا من قلق الدول الأوربية وتخوفها من انتقال العدوى إليها عن طريق المغرب من خلال الاتصال والاحتكاك المباشر في السفن والموانئ بين الرعايا الأوربيين والمغاربة، ومن خلال ما تحدثه الأوبئة من انقطاع لكل الاتصالات وخاصة منها التجارية. وكان الاهتمام البرتغالي بهذه المسألة أيضا كبيرا نظرا للقرب الجغرافي ولتردد الكثير من البرتغاليين على المغرب بهدف التجارة أو الصيد البحري، أو بهدف الاستفادة من الخدمات التي كانت تقدمها الموانئ المغربية للأسطول البرتغالي. وتتنوع المعلومات والإفادات المتعلقة بالأوبئة والطواعين في التقارير البرتغالية. ويمكن أن نجملها في المواضيع التالية:

1 ـ **أسباب الأوبئة وعوامل انتشارها** : وتفيدنا التقارير القنصلية بمعلومات مهمة في هذا الشأن حيث نعرف مثلا أن وباء سنة 1799 انتقل إلى مراكش بواسطة جيش السلطان مولاي سليمان الذي نقله معه، وكذلك بواسطة السلع التي سبقت الجيش الذي ذهب من فاس إلى مراكش[10] . وترجع تقارير أخرى سبب انتشار الوباء إلى الفقر وعدم توخي الاحتياط من قبل المغاربة، وعدم تبليغهم عنه وعدم قبولهم للعلاج [11]. كما ترجعه تقارير أخرى إلى استعمال المغاربة لملابس المرضى، والعيش في منازلهم بدون أدنى مراعاة لشروط النظافة[12]. بينما ترجح تقارير أخرى أن تكون مخلفات المجاعة، وخاصة منها التعفنات الناتجة عن الوفيات الكثيرة وراء الإصابة ببعض الأوبئة مثل داء الحمى الخبيثة[13].

2 ـ **أعراض الوباء ومظاهره**: ومن أمثلة ذاك ما جاء في أحد التقارير، وفيه يذكر القنصل أن أعراض الوباء كما تمت معاينتها هي: آلام في الرأس وحمى تتبعها بعض البقع السوداء التي تظهر على الجسم قبل وبعد وفاة المصاب. ولا تتعدى مدة الإصابة 24 ساعة من الوقت الذي تظهر فيه بعض الدمامل الصغيرة إلى حدوث الوفاة. ويبلغ الألم في هذا المرض الوبيل درجة شديدة، أكثر شدة من الطاعون العادي [14].

8ـ نفسه رقم 19، والرسائل المؤرخة ب31 يناير و1 مارس و15 أكتوبرو4 يونيو 1826 في الملحق رقم 23

9 ـ نفسه، رقم 19 .

10ـ نفسه، أرقام 5 و 9 .

11ـ نفسه، أرقام : 5 و 14 و 15 .

12 ـ نفسه، رقم 15 .

13 ـ نفسه، رقم 19، والرسائل المؤرخة ب 31 يناير و1 مارس و 5 ماي و 24 يونيو 1826 في الملحق رقم 23

14ـ نفسه، رقم 6 .

3 ـ **كيفية التعامل مع الوباء:** تفيدنا الوثائق البرتغالية في التعرف على بعض أشكال تعامل المغاربة مع الوباء. فمنهم من اعتبر الوباء قضاء من الله وربما عقابا إلهيا. ومعظمهم كان يرفض قبول العلاج، ولا يبلغ عن إصابته بالمرض، مما يسمح بانتشاره أكثر[15]، كما أن السلطان نفسه اضطر إلى الهروب من الوباء في فاس وانتقل بجيشه إلى مراكش[16]، ولم يفلح هذا الهروب في نجاة العديد من الأعيان والأمراء الذين رافقوا السلطان، حيث مات منهم وزيره ابن عثمان والأمراء مولاي الطيب وهشام والحسين وغيرهم من رجالات المخزن الكبار[17]. وقد أدى الخوف من التعرض للإصابة بالوباء إلى تعطل وتجميد المعاملات التجارية وفراغ الأسواق بسبب منع الناس القادمين من المناطق الموبوءة من المجيء إلى المناطق غير الموبوءة[18]. وتباين الموقف من الكرنطينة ما بين مؤيد ومعارض، ولكن بعض العلماء، ومنهم عالم طنجة الأكبر أصدر فتوى تجيز إقامة الكرنطينة على كل الراغبين في دخول المدينة[19]. وتأثرت المبادلات مع الخارج، لأن القناصل منعوا أي اتصال بين المراكب والسكان المغاربة في البر[20]، وأحدث الوباء رعبا كبيرا في إسبانيا والدول المجاورة، واضطربت لذلك المعاملات والمراسلات[21].

4 ـ **المعطيات الإحصائية:** تقدم الوثائق البرتغالية بعض الأرقام عن ضحايا الوباء، وهي أرقام معبرة على الرغم من التحفظ الذي يمكن أن نبديه حيالها، والذي أبداه القنصل نفسه، بسبب افتقارها إلى الدقة واعتمادها على التقدير وعلى ما يقدمه المغاربة أنفسهم. ومن أمثلة ذلك ما ذكره القنصل من أن الوفيات بلغت في مراكش ما يزيد على 600 من الأعيان[22]، وأن الوفيات بلغت في بعض الأيام أكثر من 2000 حالة وفاة، لدرجة أن بعض الجثث لم تجد من يدفنها فافترستها الكلاب[23]. ومن الأرقام التي أوردتها التقارير: 150 من الوفيات يوميا في أسفي خلال الوباء، و100 وفاة يوميا بالصويرة ووفاة 3000 جندي من أصل 7000 جندي الذين رافقوا مولاي سليمان إلى مراكش[24]. وما تدوول من أخبار بين الناس عن حجم الخسائر البشرية التي كان يقدرها المغاربة بثلث سكان المدن[25].

---

15 ـ نفسه، أرقام 5 و 14 و 15 .
16 ـ نفسه، رقم 7 .
17ـ نفسه، رقما 9 و 10 .
18 ـ نفسه، رقم 7 .
19 ـ نفسه .
20 ـ ا نفسه، رقما 6 و 8 .
21ـ نفسه، رقم 9 .
22 ـ نفسه .
23 ـ نفسه، رقم 10 .
24 ـ نفسه .
25 ـ نفسه، رقم 15 .

5 ـ **الاهتمام الأوربي بالصحة في المغرب:** يتضح من المراسلات القنصلية أن الأوربيين بصفة عامة والبرتغاليين بصفة خاصة أصبحوا يبدون اهتماما متزايدا بالأحوال الصحية في المغرب، فالقنصل البرتغالي كان يبعث رسائل شهرية إلى كاتب دولته في الصحة يخبره بأحوال الصحة العامة بالمغرب[26]. وتمكن القناصل من تأسيس المجلس الصحي الذي أصبح يفرض إقامة الكرنطينة على كل السفن القادمة إلى المغرب لتجنب دخول الوباء إلى المدينة وبالتالي إلى المغرب[27]، وكان القناصل يتخذون بعض التدابير الوقائية لمنع الوباء من الوصول إلى المغرب عن طريق الاتصال بقناصل دولهم لفرض الكرنطينة على المسافرين القادمين إلى المغرب في مراسي الانطلاق قبل القدوم إلى المغرب[28].

يتضح من هذا الاستعراض الموجز لبعض ما يتضمنه الأرشيف البرتغالي بقنصلية طنجة من إفادات ومعلومات، أن هذا النوع من الوثائق يمكنه أن يقدم خدمات كبيرة للباحثين. إلا أن فائدته تظل مع ذلك ناقصة ما لم تدعم بالرجوع إلى وثائق قنصليات الدول الأوربية الأخرى ومقارنتها بما جاء في الوثائق البرتغالية بقصد سد الثغرات وتكملة النقص وتصحيح الأخطاء، وكذلك بالرجوع إلى المصادر والوثائق المغربية التي لا تخلو بدورها من أهمية في هذا الموضوع .

الملحق الوثائقي

1 ـ " ... عندما كنت بفاس، عاينت هنالك أن الثيران تباع بأثمان تصل إلى 25 بسيطة لاستهلاك تلك العاصمة. وهي أثمان تقلق هؤلاء الناس. وسببها راجع بالأساس إلى أن الجراد حل بتلك المناطق وأتى على المراعي، وهو يهدد بهلاك الماشية قبل أن تتمكن محاصيل الخريف من إنقاذها ..." [29].

2 ـ " ... تأكد لي عن طريق الرسائل التي توصلت بها من تجار الجديدة وأسفي، أن القمح القليل المعد للشراء يوجد بثمن غال جدا، ويعود ذلك إلى المحاصيل الهزيلة التي عمت تلك المناطق. ونتج عن ذلك أن الباشوات استغلوا هذا المبرر للحصول على الهدايا لأنفسهم ..." [30] .

26ـ نفسه، رقم 23 .

27 ـ نفسه، أرقام 20 و 21 و 22 .

28 ـ نفسه، رقم 20 .

29ـ من رسالة القنصل العام البرتغالي جورج بيدرو كلاصو إلى وزير خارجية دولته السيد لويش بنت ودي سوزا كوتينيو، من طنجة بتاريخ 9 يوليوز 1798 ، أنظرها في : عثمان المنصوري ، العلاقات المغربية البرتغالية (1790ـ1844) ، الجزء 2، مطبعة فضالة بالمحمدية، سنة 2005، المراسلة رقم 16، ص 183. وسنكتفي فيما يأتي من الوثائق بالإحالة إلى رقم المراسلة والصفحة.

30ـ رسالة كولاصو إلى نفس الوزير من طنجة بتاريخ 20 غشت 1798، المراسلة 19 ، ص 185-186.

3 - "... الشيء المؤكد، هو أن نقصا شديدا في الأقوات يعم كل المملكة. في الصويرة يوجد كل شيء أغلى من هنا [طنجة]، والأمر أكثر قليلا في كل جهات البلاد، الشيء الذي يؤثر جدا على هؤلاء الناس المعتادين على الإنتاج الوفير والرخيص باستمرار..."[31] .

4 - " ... مع عودة الخادم والكثير من الناس الذين رافقوه، حصلت على معلومات حول المرض الموجود بفاس. ما يمكن تأكيده هو أنه يموت بالفعل من 30 إلى 50 شخصا يوميا، وأن المغاربة لا يعتبرونه مرضا طاعونيا. بينما يؤكد اليهود أنه الطاعون. كيفما كان الأمر، فالملاحظ لدى الكثير من السكان بتلك العاصمة أن أي مرض خبيث مثل الحمى والتعفنات يمكن أن يؤدي أيضا إلى هذا العدد من الوفيات اليومية إذا بقي بدون علاج أو لم تتوفر إمكانيات العلاج منه. وفوق هذا هناك اتصال مستمر بين فاس ومكناس، ولا يظهر أن المرض انتقل إلى هذه العاصمة الأخيرة أو انتشر فيها، وقد تأكد أنه لا توجد فيها حالات مرضية مشابهة. وعلى الرغم من كل هذا، فنحن ننتظر أخبارا دقيقة طلبتها هيئة القناصل من القنصل العام الإسباني [الموجود بفاس] لتكوين فكرة حقيقية عن هذا المرض غير المؤكد، وسأبلغكم حينئذ بتقرير مفصل عن الموضوع ..."[32] .

5 - " ... أصبح مؤكدا أن المرض المعدي الذي انتشر منذ شهور في فاس، وفي بعض القبائل المجاورة هو الطاعون. وسمع أنه يعطي في مكناس مؤشرات على أنه أعراض حمى عادية .

بعد وضوح هذه الحقيقة، اتخذ الناس بعض الاحتياطات المرتبطة بالاتصالات، لكن إقناع العامة بالالتزام بهذه الاحتياطات صعب للغاية. والأغلبية لا يصرحون بشيء عندما يصابون بالعدوى، كما هو الشأن في تطوان وهنا ومنطقة الغرب البعيدة عن هنا بثلاثة أو أربعة أيام. لكن هذه المنطقة المعتدلة تستفيد من مناخ طيب مهيمن على هذا الجزء من المملكة، ونتمنى من الله أن لا يصل هذا المرض الوبيل إلينا .

يخشى مع ذلك أن يكون الأمير مولاي الطيب قد أدخل الوباء مع فرقه العسكرية إلى الرباط. وهناك من يقول إنه ظهر فعلا بتلك المدينة نفس النوع من الوباء، وسيصبح المشكل أكثر سوءا إذا خرج السلطان فعلا مع قسم من جيشه عبر نفس

31ـ رسالة إلى نفس الوزير من طنجة بتاريخ 30 شتنبر 1798 ، المراسلة 22 ، ص 192.
32ـ رسالة إلى نفس الوزير، من طنجة بتاريخ 27 فبراير 1799، المراسلة 6 ، ص 218 .

الطريق إلى مراكش ليوصل الوباء إلى تلك المناطق من المملكة. المؤكد هو أن الظروف جد سيئة لدرجة لا يستهان بها ..."[33].

6 ـ " ... يوم 28 أبريل صباحا، وصلت أيضا فرقاطة صاحبة الجلالة "أندورينيا". وبمجرد أن رست بعثت قاربا إلى البر. وبدون أن ينزل منه أحد، تم إعلامه بكل العلامات الخاصة بالفرقاطة الطرابلسية، وبالوباء المعدي الموجود داخل هذه البلاد، وبعدها بقليل، عادت الفرقاطة إلى جبل طارق. مازال وباء الطاعون مستمرا بفاس ومكناس وبعض المناطق المجاورة وفي الرباط. والعلامات هي هي دائما: آلام في الرأس، وحمى تتبعها بعض البقع السوداء التي تظهر على الجسم قبل أو بعد وفاة المصاب. ولا تتعدى مدة الإصابة 24 ساعة من الوقت الذي تظهر فيه بعض الدمامل الصغيرة إلى حدوث الوفاة. ويبلغ الألم في هذا المرض الوبيل درجة شديدة، أكثر شدة من الطاعون العادي ..." [34].

7 ـ " ... ليس هناك أدنى شك في أن السلطان أسرع في الانتقال إلى تلك المناطق، إما بسبب الغليان الذي بدأت ملامحه تتشكل في مناطق عبدة ودكالة، أو من أجل تجنب عدوى وباء الطاعون الذي ما زال يفتك فتكا ذريعا ويلحق أضرارا فظيعة بالناس في فاس ومكناس وغيرها من المناطق التي ظهر فيها. علم من رسالة من الرباط مؤرخة ب 20 ماي أنه ارتفعت هناك إصابات الطاعون، ووصلت يوميا حتى 150من الوفيات. نفس الرسالة تقول إن العدوى انتقلت إلى مدينة سلا المجاورة، ثم ـ عبر الشاطئ ـ نحو مناطق الجنوب إلى غاية أسفي. وهناك احتمال كبير بأن يكون جيش السلطان مصابا بالعدوى، وأن يكون قد نقلها إلى كل الجهات التي مر بها، حتى وصوله إلى مراكش والجهات القريبة منها [...] على الرغم من أن سكان البلاد لا يتخذون الاحتياطات الضرورية التي تتخذ في هذه الظروف الخطيرة، يلاحظ مع ذلك اتخاذ نوع من الكرنطينة في بعض المناطق المشتبه بإصابتها. ومع أن هذه الاحتياطات الضرورية متوسطة وعابرة، فلدينا هنا آمال أكبر من تلك التي كانت لنا قبلا. لكن هذا الباشا المهمل، أمر -بناء على أوامر من السلطان- أن لا تتخذ الإجراءات الاحتياطية بالرغم من قلتها، وبذلك نبقى تحت رحمة ما يخبئه القدر لنا. تبين من رسائل من جبل طارق، أن حكومته منعت كل اتصال مع هذه المملكة. هذا يعني أن الوباء وصل إلى العرائش، ومنها إلى هذه المدن الإسبانية بواسطة الرعايا الذين يتصلون بهذه المدينة بدون الإلمام بأنها مصابة بالعدوى [...] بتأثير من أكبر عالم بهذه المدينة، سيتم اتخاذ إجراءات فعالة بعدم قبول أي شخص من داخل البلد

33ـ رسالة إلى نفس الوزير، من طنجة بتاريخ 18 أبريل 1799، المراسلة 8 ، ص 219 .

34ـ رسالة إلى نفس الوزير، من طنجة بتاريخ 5 ماي 1799، المراسلة 9 ، ص 220 .

بدون أن يخضع للكرنطينة خارج المدينة [...] هذا الإجراء قد يحررنا لبعض الوقت من خطر الطاعون ..."[35].

8 - "... وباء الطاعون مستمر في إلحاق خسائر مهولة بالمناطق التي يدخلها[...] دخل مؤخرا إلى القصر الكبير بقوة كبيرة، ولا نعرف هل دخل العرائش أم لا[...] ما زلنا في قلق مستمر، ويساورنا بعض الذعر. في الرباط يستمر الوباء بقوة لا تتصور[...] كتب إلي الموظف الذي يعمل معي في العرائش بتاريخ 4 يونيو أنه ظهر على بعد قليل من ذلك الميناء 25 مركبا للصيد برفقة سفينة عسكرية. دخل أحد هذه المراكب إلى الداخل فبلغه أمرا [...] يتضمن عدم السماح بأي شكل من الأشكال بإجراء اتصالات مع البر، ولا حمل الفريشك أو أي شيء زائد على الماء الذي يكفيهم لسفرهم، محذرا إياهم من أن يعودوا إلى هناك مرة ثانية. وكنت أصدرت هذا الأمر[...] لتأكدي أنه الوسيلة الوحيدة لمنع الإصابة بذلك الطاعون الذي يخشى وصوله من ساعة لأخرى ..." [36].

9 - " ... ليس هناك أدنى شك في أن الوضعية المؤلمة التي تئن تحت وطأتها هذه المملكة بسبب الطاعون قد أحدثت رعبا بإسبانيا لدرجة أن المراسلات التي تتم بين طنجة وطريفة فقدت نظامها وطريقها، ولدرجة أنها تضطر للبقاء في قادس، مما نتج عنه أنني أجد صعوبة في إرسال الرسائل سواء منها العادية أو الرسمية [...] انتشر الطاعون بكل المملكة. نحن فقط في طنجة، وكذلك تطوان وأصيلا وبعض القبائل، مازلنا برحمة الله بمنأى عن هذا الوباء. كل موانئ البحر إلى غاية الصويرة، تعرضت وما تزال لخسائر كبيرة. في العاصمة مراكش، حصد الوباء عددا كبيرا من الأرواح، حوالي 600 شخص من الأعيان الذين رافقوا السلطان، ومن بينهم وزيره الأكبر ابن عثمان. كان من ضحاياه العدول والأعيان من حاشية الأمير مولاي الطيب. يقال إن نفس الأمير والسلطانين السابقين مولاي هشام ومولاي حسين فقدوا حياتهم أيضا، وحول هذا الخبر الأخير، هناك علامات تفيد صحته، بينما ما زال الخبر المتعلق بمولاي الطيب ينقصه التأكيد [...] وصل مولاي سليمان سالما إلى مكناس التي يقال بأنه تم فيها القضاء على الوباء. لكن الوباء قد يعود كما تمت ملاحظته عدة مرات، حيث يحدث تدهور كامل، وبعده مباشرة يقضى تماما على الوباء، لكن يقع بعد ذلك تطور سريع، ويعود الوباء أكثر قوة من ذي قبل. لا يمكن الاطمئنان التام على البقاء بمنجاة من عودة جديدة للمرض. وهذا هو الذي يثير قلق كل الناس. ولذلك فهم لا يعطون مصداقية لما يروج عند العامة من أن الإصابات بالطاعون هي في انخفاض مستمر من مراكش إلى هذه المناطق[...] على الرغم من أن محصول الحبوب هذه السنة كان

35ـ رسالة إلى نفس الوزير، من طنجة بتاريخ 27 ماي 1799، المراسلة 11 ، ص 222-224 .

36ـ رسالة إلى نفس الوزير، من طنجة بتاريخ 8 يونيو 1799، المراسلة 12 ، ص 224-225.

وافرا على العموم، فإن ظروف الطاعون تضع في خطر كبير من يرغب في الاستفادة من تصديره والاتجار فيه ..."[37].

10 - "... لم يبق شك الآن في أن الأمراء الثلاثة الطيب وهشام وحسين ماتوا في مراكش، وأن ما يحدثه الطاعون من خسائر في تلك العاصمة لا يتصور. إذا أعطينا مصداقية للأخبار العامة والرسائل الخاصة، هناك أيام مات فيها أزيد من 2000 شخص. وتعرضت بعض الجثث التي لم تجد من يدفنها للافتراس من الكلاب. عدد من المناطق تعرضت لنفس الدمار، وحصد الموت حتى قطعان الماشية وغيرها من المخلوقات التي لم تجد من يسقيها الماء. مناطق دكالة وعبدة هي الأكثر تعرضا لهذا الوباء وتضررا منه[...] في الحقيقة، عم الوباء كل البلاد. حسب بعض الأخبار، وصلت الوفيات في أسفي إلى 150 ضحية في اليوم، وفي الصويرة، في نهاية الشهر الماضي إلى قرابة مائة [...] وكما يلاحظ عموما، هناك انخفاض يكاد يكون عاما في الإصابات، لكنه سرعان ما يعود إلى الظهور بعنف أقوى من السابق[...] يقال إن عدد الإصابات أخذ في التضاؤل يوما عن يوم، وأن المصابين مؤخرا سبق أن تعرضوا للوباء في المرة الأولى والثانية[...] تأكد أن الطاعون دخل إلى مراكش وغيرها من مناطق الجنوب، مع البضائع التي حملت من فاس أياما قبل مجيء الجنود. من بين 7000 رجل من الجنود الفعليين الذين خرجوا مع السلطان من مكناس، مات هناك أكثر من 3000. في النهاية، الفقر وعدم الاحتياط هما السببان الرئيسيان في إصابة مثل هذا العدد الكبير..." [38].

11 - "... تؤكد الأخبار العامة أنه قد قضي على الطاعون في القسم الأكبر من البلاد، وأن المنطقة التي يوجد فيها أكثر هي المنطقة الموجودة بين العرائش وطنجة، لكن بعدد من الإصابات يتناقص يوما بعد يوم. وعلى هذا الأساس سيصل إلينا قريبا جدا.يقال في بعض المرات إنه موجود داخل المدينة. لكن المؤكد هو أن هذا الخوف راجع إلى الفزع الشديد الذي يعاني منه هؤلاء الناس أكثر مما هو في الواقع، لإدخالهم في الاعتبار آثاره الفظيعة، وما يحدثه من دمار في المناطق التي يدخلها..."[39].

37ـ رسالة إلى نفس الوزير، من طنجة بتاريخ 5 غشت 1799، المراسلة 13، ص. 228-229 .

38ـ رسالة إلى نفس الوزير، من طنجة بتاريخ 13 غشت 1799، المراسلة 14، ص. 230-231.

39، رسالة إلى نفس الوزير ، من طنجة بتاريخ 7 فبراير 1800، المراسلة 1 ، ص 234-235 .

12 ـ "... تأكد لي من الرسائل الأخيرة القادمة من الصويرة وأسفي والمؤرخة بنهاية شهر يناير الماضي، أنه ما زالت بتلك المناطق بعض الإصابات بالطاعون، وأنه في تناقص يوما بعد يوم ..." [40].

13 ـ "... أما فيما يخص الصحة العامة بهذا البلد، فإن آخر الأخبار المحصل عليها من الداخل إيجابية. علمت من رسالة بتاريخ 20 من الشهر الماضي أنه لم تقع وفيات بمدينة أسفي، وبوجود إصابات في الصويرة، ولكنها طفيفة [...] يقال أيضا إن الوباء ظهر من جديد في مراكش، لكن عددا من الناس وصلوا من تلك المناطق يؤكدون أنه لم تقع حاليا أية إصابة. كما أكد بعض الناس القادمين مؤخرا من فاس ومكناس أنهم لم يصادفوا منذ خروجهم من المدينتين إلى أن وصلوا إلى مسافة قريبة من طنجة أية إصابات معدية جديدة، مما سمح بالتأكد من خلو هذه المناطق من الداء ..." [41].

14 ـ "... يقولون في الصويرة إنها بخير، وأن الوباء في تناقص بمراكش أيضا، ونفس الشيء بشمال هذه المملكة. منذ رسالتي بتاريخ 9 أبريل لم تقع وفيات كثيرة بهذه المدينة. والوفيات اليومية الناتجة عن مختلف الإصابات تتراوح عادة ما بين 4 إلى 6 [...] والعدوى آخذة في التناقص بشكل ظاهر في المناطق المجاورة[...] وعلى العموم فد تحسنت أحوال عدد كبير من المصابين. ولو أن هؤلاء الناس قبلوا العلاجات، لكان من الممكن أن لا تتعدى الوفيات ثلث ما بلغته ..." [42].

15 ـ " ... ما زالت وضعية الصحة العامة على حالها بدون ارتفاع ملحوظ في الإصابات. منذ رسالتي بتاريخ 29 من الشهر الماضي إلى الآن، لم تتجاوز الوفيات اليومية داخل المدينة 15 شخصا من كل أنواع الأمراض، بحيث كان العدد يتراوح على العموم بين 6 و10 وأحيانا 12. لدرجة أنني سمحت لنفسي بإعلام سيادتكم أن عدوى الطاعون ليست بنفس الخطورة التي يخشى من انتقالها إلى سيادتكم، كما هو الشأن في أوبئة طاعون أخرى. يوجد حاليا هنا ،منذ وقت طويل، أزيد من 50 هاربا من الثغور الإسبانية، وهم خلال النهار كله يوجدون مختلطين بالمغاربة في الأزقة، يشترون في سوق المدينة حاجياتهم اليومية، ولحد الآن لم نر أيا منهم وقد أصيب بهذا الداء. ولم تسجل إصابات تذكر بين اليهود الذين يتصلون في أغلبهم بالمغاربة، ويدخلون إلى دورهم، والذين يفترض لذلك أن يصابوا أكثر من غيرهم بالطاعون. إن المصابين عادة، هم فقط أولئك الناس الذين يستعملون مباشرة ملابس الموتى الموبوئين، ويعيشون في منازلهم بدون أدنى نظافة. بعضهم يموت، والبعض الآخر يشفى تماما [...] المدن، سواء الكبيرة منها أو الصغيرة مليئة بالناس. لكن يقال إن

40ـ رسالة إلى نفس الوزير ، من طنجة بتاريخ 18 فراير 1800 ، المراسلة 3 ـ ص 237 .
41ـ رسالة إلى نفس الوزير ، من طنجة بتاريخ 9 أبريل 1800 ، المراسلة 4 ـ ص 239 .
42ـ رسالة إلى نفس الوزير، من طنجة بتاريخ 29 أبريل 1800، المراسلة 6 ، ص. 241 .

معظمها فقدت ثلث سكانها. وقد يكون في ذلك بعض التضخيم الناتج عن الذهول الذي أصاب الناس والذي يمكن اعتباره السبب الأصلي للصدى القوي الذي عرفته أخبار الوباء في كل مكان. وأساسا في أوربا. يضاف إلى ذلك، وجود مبعوثين يعملون على إشاعة أخبار أضخم من الواقع، بدافع من مصالحهم الخاصة ..." [43]

16 - " ... عم الخراب بسبب الجفاف ونقص الأمطار في السنة الماضية، ومازال الجفاف متواصلا حاليا. ويوجد الجميع في تخوف شديد بسبب نقص المحاصيل، وقد ارتفعت أثمان الحبوب بشكل كبير في كل جهات المغرب. وعلى الرغم من أن طنجة استفادت من استيراد بضعة آلاف من فانيقات القمح الرديء، فإن ذلك لم يمنع من ارتفاع ثمنه، حيث وصل حاليا إلى 1400 ريال لكل فانيقة ..." [44].

17 - " ... كانت المناطق المجاورة للجديدة في الماضي غنية بجميع أنواع الحبوب التي كانت تصدر إلى الخارج. إلا أن محاصيل هذه السنة، سواء في هذه المنطقة أو أغلب المناطق المغربية الأخرى، ضاعت بسبب عدم سقوط الأمطار، وبالتالي يوجد نقص شديد وغلاء كبير في كل هذه المناطق في ثمن القمح والشعير على الخصوص[...] وعلى الرغم من أن منطقة الغرب كانت أحسن حظا وأنتجت محاصيل في هذه السنة، فإن ثمن القمح ارتفع إلى 14 أوقية للمد (1870 ريالا للفانيقة). ولولا استيراد المغرب للقمح من جبل طارق لفاق ثمنه 20 أوقية ..." [45]

18 - " ... زاد الخصاص الشديد في الحبوب الذي تعرفه كل أنحاء البلاد من حالة القلق العام، لدرجة أن الكثير من الناس يتوافدون من الأقاليم الداخلية على الموانئ البحرية بحثا عن القوت، ولولا وصول مقادير من القمح من جبل طارق لحسن الحظ، لوصلت المجاعة هنا إلى أوجها ..." [46].

19 - "... سقطت أمطار غزيرة عمت كل أنحاء البلاد مما يعطي أملا في الشروع في عملية الحرث. إلا أن العملية لن تكون كبيرة بسبب آثار الجفاف الذي أتى على قسم كبير من المواشي التي افتقرت إلى المراعي في السنوات الماضية، وبسبب الخصاص الشديد في البذور. كل البلاد تقدم منظرا مثيرا للشفقة بفعل الخسائر التي أحدثتها المجاعة التي تعتبر الأكثر خطورة حسب الرقم المهول لضحاياها. لقد ألجأت الناس إلى أكل جذور النباتات والجيف ومختلف أنواع الأزبال. وبلغ الأمر إلى درجة الموت جوعا

43- رسالة إلى نفس الوزير، من طنجة بتاريخ 14 ماي 1800، المراسلة 7، ص. 242-243 .

44- رسالة كولاصو إلى ماركيز بالميلا وزير الخارجية، طنجة في 8 يناير 1825، المراسلة1، ص. 364.

45- رسالة كولاصو إلى كونت سانطو،من طنجة بتاريخ 2 يوليوز 1825، المراسلة 17، ص. 373.

46 - رسالة كولاصو إلى نفس الوزير، من طنجة بتاريخ 5 شتنبر 1825، المراسلة 21، ص. 374-375 .

في الشوارع. وهذه الوضعية الكارثية أدت إلى حدوث تخوف من تعرض البلاد للأوبئة..." [47].

20 - " ... وردت أخبار من حاكم جبل طارق إلى القنصل العام الانجليزي تفيد ظهور وباء الكوليرا بالجزيرة العربية. اجتمعت الهيئة القنصلية المقيمة بطنجة، وضمنها القنصل البرتغالي، التي أوكل إليها السلطان مهمة مراقبة قطاع الصحة العامة وتداولت فيما يجب عمله ...".

المرفق : تقرير القناصل:

" في 20 شتنبر 1831، على الساعة الواحدة زوالا، اجتمع القناصل الذين يتكون منهم المجلس الصحي، بطلب من القنصل العام الانجليزي، بدار قنصلية الأراضي المنخفضة، للتداول في أحسن الإجراءات التي يجب اتخاذها لحفظ المغرب من الخطر الذي يمكن أن يتعرض له بمجيء الحجاج العائدين من الجزيرة العربية التي أعلن عن ظهور الكوليرا بها.

بعد مداولات جادة، تقرر أن الوسيلة الأنجع للوصول إلى هذا الهدف المرغوب هي أن يقوم السادة القناصل المكونون للمجلس الصحي، بإرسال رسائل إلى زملائهم في موانئ الإسكندرية وطرابلس وتونس، ويحثوهم على إرغام قباطنة السفن التابعة لدولهم، والتي تحمل الحجاج إلى المغرب، على أن تقوم أولا بقضاء الكرنطينة كاملة في أحد الموانئ التي يوجد فيها محجر صحي، قبل عودتهم .

لكن بناء على ملاحظة أحد أعضاء المجلس - الذي لم يكن مخولا من دولته بتقديم طلب من هذا النوع إلى زملائه بالمدن المذكورة - تقرر لتأكيد حصول نجاح أفضل لهذه الإجراءات، أن يبعث القناصل إلى حكوماتهم، حتى تبعث هي بالأوامر إلى القناصل الموجودين بالموانئ المذكورة، إذا ارتأت ذلك مناسبا .

أما فيما يخص منع الحجاج من العودة عن طريق البر، فإن المجلس مقتنع بأن الخطوات التي يمكن أن يقوم بها في هذا الشأن لدى السلطات المغربية، لن تكون لها أية نتيجة، لأن السلطان نفسه لو أراد أن يقوم بإجراءات لمنع الحجاج من الدخول برا أو بحرا لما استطاع، ولأن الديانة المحمدية تمنع ذلك. أما فيما يخص طلب قنصل جبل طارق إلى قنصل بريطانيا بضبط عدد الحجاج الذين يعودون سنويا إلى المغرب برا، فالمجلس الصحي يرى أن تلبية هذا الطلب مستحيلة، لأن الحكومة الفرنسية نفسها تجهل ذلك .

47 - رسالة كولاصو إلى نفس الوزير، من طنجة بتاريخ 20 فبراير 1826، المراسلة 2، ص 382 .

توقيع التقرير من لدن القنصل العام المداوم [قنصل الشهر] المكلف بالمصلحة الصحية، قنصل هولاندا فريسينيت "[48].

21 ـ " ... في يوم 21 من الشهر الماضي، رست بميناء طنجة بريك حربية فرنسية تدعى (Cometa) قادمة من وهران وعلى متنها موظف رسمي يدعى (De Segur Dupeyron) يعمل في مصلحة الصحة العامة، ومكلف بإقرار تنظيمات جديدة في هذه المصلحة بفرنسا، ويقوم حاليا بزيارة كل هذه المؤسسات في البحر الأبيض المتوسط وسواحل إفريقيا، حتى يجمع كل التوضيحات والملاحظات من أجل إصدار قوانين جديدة باتفاق مع دول أخرى لتحسين ظروف التجارة، ومراعاة الاحتياطات اللازمة لضمان الصحة العامة. قدمه الباشا إلى القناصل بصفته مكلفا من السلطان بتفتيش مرافق الصحة العامة، وتلقى منهم كل المعلومات التي يريد عن الطاعون، وأخبروه بالإجراءات المتخذة ضد الطاعون الذي يأتي عادة مع ركاب الحج من مكة أو الجزائر، وعن إجراءات الكرنطينة التي تقام على السفن القادمة من أجل التجارة..." [49].

22 ـ " اقترح السلطان من أجل تفادي الوضعية المزرية التي يتعرض لها الحجاج المغاربة الذين تفرض عليهم الإقامة الجبرية لمدة أربعين يوما في انتظار التأكد من سلامتهم من الوباء، أن يتم تشييد مكان لائق في طنجة، وأن توفر لهم ظروف جيدة للإقامة، على أن تبقى مهمة الرعاية الصحية بيد القناصل الذين عليهم أن يختاروا هذا المكان. وقد جمع الباشا القناصل وأخبرهم بهذا الاقتراح. وقد ارتأى القناصل أنه ليس في هذه المحاجر الصحية ما يضر الحجاج، ولكنهم مع ذلك لا يمانعون في تلبية طلب السلطان" [50].

23 ـ رسائل القنصل البرتغالي إلى سكرتير إدارة الصحة العمومية بالبرتغال السيد جواكين شافيي دا سيلفا، وكلها عن أحوال الصحة العامة بالمغرب.

1 ـ رسائل سنة 1824: كان القنصل يبعث رسائل شهرية، توضح كل ما يطرأ على أحوال الصحة بالمغرب. ابتدأت هذه المراسلات من شهر فبراير بطلب من وزير الخارجية البرتغالي. وفي هذه السنة أرسل 11 رسالة تتضمن كلها إحدى العبارتين التاليتين: " يسرني أن أبلغكم أنه، منذ رسالتي السابقة المؤرخة ب... لم يطرأ أي جديد على أحوال الصحة العامة في كل هذه الإمبراطورية المغربية... " أو " ... إن

48ـ رسالة كولاصوإلى فيكونت سانطارين، من طنجة في 22 شتنبر 1831، المراسلة 17، ص. 455 - 456 .
49ـ رسالة كولاصو إلى كونت فيلا ريال، من طنجة في 5 شتنبر 1836، المراسلة 16 ، ص 488.
50ـ رسالة كولاصو إلى فيكونت باندير ا ، طنجة في 23 دجنبر 1538 ، المراسلة 8 ، ص 502 .

الصحة العمومية في هذه الإمبراطورية توجد في أحسن حال، مثلما كانت عليه في رسالتي السابقة إليكم بتاريخ ... "[51].

2 - رسائل سنة 1825، 12 رسالة، وتتضمن نفس العبارة: الحالة الصحية بالإمبراطورية المغربية جيدة، ولم تسجل فيها أية حالة وباء [52].

3 - رسائل سنة 1826 :

- رسالة بتاريخ 31 يناير1825: " ... منذ الرسالة الأخيرة، لم يقع ما يفيد شبهة وقوع وباء ما، ولكن الوفيات الناتجة عن المجاعة كبيرة جدا لدرجة يخشى معها أن تتسبب في حدوث وباء ما، خاصة أن الجوع دفع بالناس إلى أكل جذور النباتات والجيف ... " [53].

- رسالة بتاريخ 1 مارس :" ... تزايد عدد المصابين بالحمى الخبيثة بهذه المدينة، وفي تطوان يعانون من نفس المرض، وكذلك الشأن في بعض المدن المغربية الأخرى. لكن هذا المرض لم يتخذ لحد الآن شكل وباء معد ..." [54].

- رسالة بتاريخ 15 أكتوبر: " ... في هذا الشهر أرسلت حكومة جبل طارق مبعوثا طبيا لفحص الأمراض التي عوينت هنا. وفي اليوم التالي، صرح أنه من الصعب تكوين فكرة محددة عن هذا المرض، هل هو التيفوئيد أو حمى شديدة ..." [55].

- رسالة بتاريخ 5 ماي: تتضمن تأكيدا على أن مرض الحمى الخبيثة موجود في طنجة وتطوان وبعض المدن المغربية الأخرى، كما سبق له أن أخبره في مراسلة سابقة، وأن القناصل يوجدون بمنجاة منه [56].

- رسالة بتاريخ 24 يونيو: " ... حالات الحمى الخبيثة التي ظهرت هنا هي في طريق أن يقضى عليها بشكل نهائي. أما بالنسبة لداخل البلاد، فالأخبار الواصلة عن الصحة العامة بهذه الإمبراطورية إيجابية أيضا ..." [57].

4 - رسائل سنة 1827: 12 رسالة، تفيد كلها أن الصحة العامة بالمغرب بخير، وأنه لم يقع أي تطور سلبي أو أية إصابة بوباء أو غيره [58].

51ـ ع. المنصوري ، العلاقات... ، م . س ، الجزء الثاني ، ص 360.
52ـ نفسه ، ص . 379.
53ـ نفسه ، ص 392 .
54ـ نفسه ، نفس الصفحة .
55ـ نفسه ، نفس الصفحة .
56ـ نفسه.
57ـ نفسه.
58ـ نفسه ، ص 409.

صدى الحملة النابليونية في المغرب[1]

لعله من نافلة القول التذكير بأهمية الحملة النابليونية، وبآثارها المختلفة على مصر والعالم الإسلامي، ومكانتها في سياق الأحداث العالمية التي رافقتها. لقد تطرق إلى هذا الموضوع العديد من الباحثين، سواء في مصر أو خارجها، وأوفوه حقه من العناية. أما هذه المداخلة فهي تسعى إلى تسليط بعض الأضواء على آثار هذه الحملة وانعكاساتها على المغرب سواء إبان الحملة أو بعدها بسنوات عديدة، إذ على عكس ما قد يتبادر إلى الذهن، فإن وصول الفرنسيين إلى مصر، ومقامهم القصير بها، كان محط اهتمام ومتابعة من طرف المغاربة، وأحدث فيهم تأثيرا بليغا، وأثر على علاقات الدولة المغربية مع فرنسا لسنوات عديدة. وتهدف هذه المساهمة المتواضعة إلى إبراز ذلك عن طريق الاستعراض لما جاء في بعض المصادر المغربية، والوثائق البرتغالية التي تطرقت إلى هذا الموضوع .

اهتمام المغاربة بالحملة ومتابعتهم لأخبارها :

تلقى المغاربة نبأ الحملة الفرنسية على مصر، واحتلال الفرنسيين لهذا القطر الإسلامي باهتمام كبير. ومنهم من اعتبر ذلك من علامات الساعة لأنه اقترن في المغرب بأحداث أخرى، ومن بينها مثلا تعرض المغرب لسلسلة من الحروب الداخلية التي استمرت ما يقرب من العقد من الزمن، على إثر وفاة السلطان سيدي محمد بن عبد الله، بين الأمراء المتنافسين على الحكم. ومنها أيضا الجفاف الشديد الذي عرفته البلاد سنة 1798، ووباء الطاعون الكاسح الذي أعقبه، وذهب بأرواح العديد من المغاربة. ناهيك عن استيائهم لتعطيل فريضة الحج لبضع سنوات بسبب الاحتلال الفرنسي[2]. كما أن تمكن فرنسا من احتلال هذا البلد الإسلامي الكبير، يعني - في جملة ما يعنيه - أنها قادرة على إعادة الكرة مع دول إسلامية أخرى، وأن احتمالات مهاجمتها للمغرب لم تعد مستبعدة. وأن ذلك سيشجع دولا أخرى على الإقتداء بالفرنسيين، ومحاولة الاستيلاء على المغرب، وبذلك تحكم هاجس التخوف من الاحتلال الفرنسي والأوربي في سياسة المغرب لعدة عقود بعد حملة نابليون، وازداد هذا الهاجس حدة، بوصول الفرنسيين إلى شبه جزيرة إيبيريا، ومجاورتهم للمغرب.

---

1 - نشر هذا المقال ضمن أعمال ندوة العلاقات المصرية المغربية عبر التاريخ، التي نظمت بجامعة حلوان بمصر ما بين 16 و 18 فبراير 2002، باشتراك بين كليتي آداب حلوان وعين الشق بالدار البيضاء. ص 205-227.

2 ـ محمد المنصور ، الجهود المغربية من أجل استرجاع سبتة في عهد المولى سليمان ، مجلة كلية الآداب ، الرباط ، عدد5_6 ، سنة 1979، ص 29 -30 .

تمكن المغاربة من الاطلاع على أخبار الحملة الفرنسية وتطوراتها من مصادر متعددة، عن طريق الحجاج والتجار والرسائل التي وردت من المشرق وتركيا. ولكنهم تابعوها أكثر بواسطة ممثلي الدول الأوربية القاطنين بالمغرب، وخاصة القناصل الذين كانوا مقيمين آنذاك في مدينة طنجة، والذين كانوا يزودون باشا المدينة والوزير الأكبر بالأخبار التي كانت تصل بواسطتهما إلى السلطان في العاصمة.

إن تتبع أخبار الحملة في تقارير القناصل الأوربيين بطنجة، وفي غيرها من المدن الأوربية مثل قادس وجبل طارق، يحتاج إلى دراسة خاصة، ولذلك سنقتصر في هذه المساهمة على بعض الإشارات التي وردت في تقارير ومراسلات القنصل البرتغالي التي أتيح لنا أن نطلع عليها، والتي تقدم لنا مثالا على ما وصل إلى المغاربة عن الحملة الفرنسية والصراع الفرنسي الانجليزي، وغيرها من المعلومات المتعلقة بهذا الموضوع.

بعد بضعة أشهر من وصول الفرنسيين إلى مصر، وبتاريخ 22 أكتوبر 1798، بعث القنصل البرتغالي جورج بيدرو كولاصو إلى وزير خارجية دولته السيد كوتينيو، بتقرير تضمن بعض ما وصله من أخبار عن الحملة الفرنسية، والصراع بين الفرنسيين والإنجليز، جاء فيه :

" [...] في يوم 18، دخلت إلى مرسى جبل طارق ست سفن عسكرية من تلك التي أسرت للفرنسيين في معركة الشرق ومعها خمس سفن إنجليزية جاءت برفقتها [...] لم تصل أية سفينة من جبل طارق ، ولذلك لم نتوصل بأخبار إضافية قد تكون وصلت مع هذه السفن سواء ما يتعلق بالمعركة البحرية أو بالوضعية التي توجد عليها الفرق العسكرية التي نزلت من السفن . يقول الإنجليز إنهم استولوا على مراسلات حكومة المديرين مع نابليون ، وفي نفس الوقت يدعي الفرنسيون أنهم تمكنوا من تدمير أسطول العدو في الشرق،وهو ادعاء لا يقوم على أي أساس [...] " [3].

وقد حظي "نداء" نابليون بونابرت المشهور باهتمام كبير من طرف القنصل البرتغالي، ومن لدن المغاربة الذين تمكنوا من الاطلاع على ترجمته إلى العربية. وقد عمل القنصل المذكور على نقل مضمونه إلى وزارته، وسعى جادا للحصول على الترجمة العربية التي أعدها ممثل فرنسا بطنجة، وقدمها للباشا والسلطان. وقبل أن نستعرض هذا النص المترجم، ونعلق عليه، سنتبين وقع هذا المنشور على المسيحيين بصفة عامة، وعلى القنصل البرتغالي خاصة،

3 ـ من تقرير القنصل المذكور ، الموجه من مدينة طنجة ، والموجود بأرشيف طوري دو طومبو ، لشبونة ، الصندوق رقم : M.N..E. CX : 299.

الذي استنكر ما جاء فيه، واستغل المناسبة لشن حملة على الفرنسيين وقائدهم بونابارت، وذلك من خلال مقتطفات من رسالتين بعثهما القنصل إلى دولته في 3 و 13 نونبر 1798 .

جاء في الرسالة الأولى ما يلي :

" [...] أنتقل الآن لأحكي لكم عن ظاهرة لا يمكن أن تنال كبير استحسان من سيادتكم تتعلق بالمشاعر الحالية للفرنسيين نتيجة لمنشور وزعه بونابرت في مصر، وتم نشره في إحدى كوازيط ليدن[4]. اتخذ المكلف الفرنسي المقيم هنا قرارا غريبا بترجمته وأضاف إليه ما أمكنه من الخزعبلات التي اعتقد أنها مناسبة لمحو الآثار التي خلفتها الحملة الفرنسية لدى هؤلاء الناس، واستعمل من أجل هذا الهدف أشد العبارات خزيا، والتي لا يمكن أن يتخيلها إنسان، بحيث لم أر، ولا يمكن أن أرى ورقة كهذه.

مما جاء فيها، أن من أهم الدوافع التي دفعت نابليون بونابرت إلى مهاجمة روما، هي عزل تلك الحكومة التي تخرج منها الحملات المتتابعة ضد الديانة المحمدية، وأن الحملة انتقلت بعد ذلك إلى مالطة للقضاء على هؤلاء الناس الذين يعتبرون مأمورين من طرف الحكومة الأولى لمضايقة المسلمين، وأنهم أخيرا، قاموا بحملتهم إلى مصر وذلك فقط بهدف إصلاح العادات والقضاء على الاستبداد الذي تعاني منه هذه الشعوب البائسة، وأنه أي [بونابرت] يقدس ويحترم القرآن الكريم وشريعة محمد كواحدة من أصح الديانات وخالية من التجاوزات الموجودة. ويظهر أنه خلص إلى أن الهدف الحقيقي لوجوده هناك هو إقامة الحرية والنظام في تلك البلاد الرائعة لصالح عموم الشعب القاطن بها، وأصبح يعتبر نفسه كواحد من ذلك الشعب السعيد، حسب الديانة الإسلامية ويصوم 30 يوما من رمضان. أنا لا أعرف هل المانفستو المكتوب بالكازيطة هو من صنع نابليون حقيقة، لكن ما يمكنني تأكيده لسيادتكم، هو أنه بعد أن انتهى المبعوث الفرنسي من كتابته، مع عدد من الأفكار الأخرى المكتوبة بالعربية، أرسلها إلى باشا هذه المدينة الذي تسلمها وأرسلها إلى مولاي سليمان[5] مع باقي الرسائل التي توصل بها من عدة مغاربة بجبل طارق حيث يحكون ـ حسب ما سمعوا ـ عكس ما قيل عن نابليون بونابرت في مصر. كما أن أنباء مماثلة وصلت من الشرق عبر البر إلى السلطان الذي يوجد في حالة ترقب للحصول على أخبار أكثر وضوحا. وما يلاحظ الآن هو أن المغاربة عموما، يحتقرون كل

4 ـ إحدى صحف أو جرائد مدينة ليدن الهولندية .

5 ـ سلطان المغرب ، تولى من سنة 1790 إلى سنة 1822 .

العبارات [المتسامحة] لبونابرت،ويعطون لها معنى محددا، مستقى من السوابق التي أبداها الفرنسيون للعالم [...]"[6].

وأرفق الرسالة الثانية بنسخة المنشور المترجمة إلى العربية، وببعض التوضيحات الإضافية:

" [...] قدمت لكم في رسالتي السابقة بعض التفصيلات المتعلقة بالمانفستو الذي قدمه المبعوث الفرنسي هنا إلى هذا الباشا لإرساله إلى سيده السلطان. لكن بما أنني وجدت صعوبة كبيرة في الحصول على المعلومات المذكورة، فقد سعيت إلى الحصول على نسخة أكدوا لي أنها نسخت من الأصل المقدم إلى الباشا، وهي نفسها التي احتفظ بها لنفسه، وهي التي أرفقها لكم مع هذه الرسالة. ومنها يتضح أن بعض النقط الأساسية لم تفهم في رسالتي السابقة [...] في النسخة المذكورة نرى تفصيلات أكثر غرابة مما لا يمكن للعقل أن يقبله. وهناك ملاحظتان أضيفتا إلى بداية المنشور ونهايته يمكنهما أن تلخصا جيدا المفهوم والمصداقية اللذين يعطيهما المسلمون المغاربة لمانفستو بونابرت. هناك من يقولون بأن السلطان تلقى رسائل من المشرق عن طريق البر، وفيها أكدوا له القضاء على الجيش الفرنسي. وقد أعطى السلطان للشخص الذي حمل إليه ذلك الخبر مبلغ 400 دورو [...]"[7]

ويتبين من هذه المقتطفات أن نداء نابليون أحدث تأثيرا كبيرا على الأوربيين والمغاربة على السواء، وأنه لم يقنع أيا منهما. فالقنصل البرتغالي عبر عن اندهاشه واستنكاره لما صدر من نابليون من عبارات تشيد بالإسلام، وتعادي المسيحيين، واستبعد أن تصدر منه، وخاصة ما تعلق منها بادعائه للإسلام، وغيرته على سكان مصر ومحبته لهم. أما المغاربة فإن الملاحظات التي أرفقوها بالنص المترجم، تعبر بوضوح عن موقفهم المكذب لمضمونه. وقد سارع الممثل الفرنسي إلى ترجمة النداء الذي نشر في إحدى الجرائد بمدينة ليدن الهولندية، وأرسله إلى الباشا، الذي بعثه إلى السلطان بعد أن احتفظ بنسخة منه. ولكننا نتبين منها أيضا أن الباشا تلقى رسائل من بعض المغاربة بجبل طارق، أخبروه فيها ببعض ما بلغهم من أخبار عن نابليون في مصر، وهي أخبار تخالف تماما ما قيل في منشور نابليون، كما وصلت أخبار أخرى عن طريق البر، مما يعني أن القناصل لم يكونوا وحدهم مصدر ما يصل من أخبار إلى الدولة المغربية، وأن السلطان والمخزن[8] المغربي كانا متابعين باهتمام لتطورات الموقف في مصر،

6 - رسالة القنصل البرتغالي إلى وزيره بتاريخ 3 نونبر 1798، أرشيف طوري دو طومبو بلشبونة، رقم: M.N.E, CX: 299. مراسلات سنة 1798.

7 - رسالة القنصل البرتغالي إلى وزيره بتاريخ 13 نونبر 1798، أرشيف طوري دو طومبو بلشبونة، رقم: M.N.E, CX 299. مراسلات سنة 1798.

8 - تطلق كلمة المخزن على الجهاز الإداري والحكومي المغربي بما فيه السلطان والوزراء والباشوات وغيرهم من الموظفين.

وأبديا اهتماما خاصا بالحملة وقلقا وتخوفا على المسلمين. ولا أدل على ذلك من أن السلطان الذي كان يترقب بتعطش كل جديد من الأخبار المتصلة بالموضوع، أعطى للبشير الذي أخبره بهزيمة نابليون مكافأة سخية، تعبر عن فرحه بالخبر، وتوضح موقفه المتعاطف مع المسلمين في مصر، والمعادي للفرنسيين.

لقد احتفظ لنا الأرشيف البرتغالي بنسخة الترجمة العربية للنداء الذي أصدره نابليون، وهو في حد ذاته يمكن أن يكون موضوع دراسة خاصة، خصوصا إذا قورن بالنصوص الأخرى وعلى رأسها نص النداء كما ورد عند الجبرتي[9]. ويؤكد القنصل البرتغالي أن نص هذا النداء نشر في إحدى الصحف الأوربية. وسنكتفي في هذه المساهمة بنشر النص، وتقديم بعض الملاحظات السريعة عليه[10]، وكتابة الفقرات المقابلة للنص عند الجبرتي في الهامش الأسفل للمقارنة.

---

9 ـ عبد الرحمان الجبرتي ،عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، بيروت ، 1978 ، الجزء الثاني ، ص 182 _ 184 .

10 ـ قمنا بالتسطير على الكلمات الخاطئة وعلى الإضافات التي أمكننا إضافتها لإصلاح لغة النص .

نص المنشور النابليوني :

ترجمة نداء بونبرطي قائد محلة الفرانصيص
بعد نزوله على الإسكندرية (قبح الله سعيه)[11]

بإسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك فمن قديم الزمان يرجي لهذا الوقت تعذيب جميع بايات مصر وأصلهم مماليك جاءوا من جبل كرجستان ونيتهم وقصدهم خراب البلدان الجميلة ومن قديم الزمان يقصدون الهجوم على الجنس الفرنصاوي والوثوب عليهم ويظلمون تجارهم بأي نوع شاءوا واليوم بونبارطي القائد الكبير للجمهورية الفرنصاوية وقاصد الحرية جاءهم هو والله تعالى رب الدنيا والآخرة ثم حكومة البايات[12].

أيا سكان مصر إذا قالوا لكم البايات إن الفرنصاوية جاءوا لخراب دينكم فإنه منهم كذب فلا تأمنوهم وواجبوهم[13] [أجيبوهم] بإن الفرنصاوي [الفرتسيين] لم يكن قصدهم ما زعموه وإتيانهم إنما هو ليقبضوا حق المسكين من يد الظالمين والفرنصاويون يعبدون الله ويكرمون النبي ويعظمون القرءان المقدس[14]

وبين يدي الله تعالى يكون الانسان من حيث هو مستويا [متساويا] ما عدا من هو من أهل الموهبات [المواهب] كالعالم والصالح والعاقل والحكيم والبايات لم يكن فيهم وصف من هذه الأوصاف والذي لم يكن فيه واحد منها فكيف يستهل[15] الحكومة على الناس في هذه البلد وقد أخذوا لكم الارضين [الأراضي] الكثيرة وحازوا الحبشيات المستحسنات والخيل المسومات والسريات العظمى هل خصهم الله بهذه النعمة وحدهم فإذا زعموا ذلك فليبينوا لكم الحجة بل الله تعالى الكريم [أكرم] الأكرمين وهو سبحانه الكريم على كل إنسان ويحب الحق سبحانه واليوم أراد الله تعالى أن يكون الناس كلهم سواء في الصعود والمرتبة العظمى وأردنا حضور جموع من العلماء والصالحين وأهل الخير ويكون جمعهم ان شاء الله تعالى بالسعادة واليقين بأن الفجور والظلم الذي كان في مصر من باياتهم من قديم الزمان قد

11 - توجد هذه النسخة ضمن ملحقات الرسالة المذكورة أعلاه في الهامش رقم 4 .

12 - نص الفقرة الأولى عند الجبرتي : بسم الله الرحمن الرحيم لا اله ال الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه من طرف أمير الجيوش الفرنساوية بونابارته يعرف أهالي مصر جميعهم أن من زمان مديد الصناجق يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرانساوية ويظلمون تجارها بأنواع الايذاء والتعدي فحضر الان ساعة عقوبتهم .... .

13 - وضعنا سطرا لتمييز الأخطاء اللغوية والكلمات الدارجة، وحاولنا توضيح بعضها في الهامش أو بين معقوفتين.

14 - نص الجبرتي : " يا أيها المصريون قد قيل لكم انني ما نزلت بهذا الطرق الا بقصد ازالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفترين انني ما قدمت اليكم الا لاخلص حقكم من يد الظالمين وانني اكثر من المماليك اعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيه والقرآن العظيم ...".

15 - يستحق ، يكون أهلا .

أذهبه الله عنهم ولا يكون في المستقبل وترجع حراثة مصر كما كانت قبل البايات ويكثر الخصب[16]

الفرنصيص مسلمون حَقيقَةً لا مَحَالَةً ففي الفارط عن قريب ذهبوا لرومه وهدموا كرسي الباب الكذّاب الذي يزعم أنه نائب المسيح وكان دائما يحرض النصارى على كل من يتبع مذهب الإسلام والإسلام هو دين سيدنا محمد وهو الدين في الحَقيقة وبَعْدَ ما عملوا في رومة ما عملوا ذهبوا الى مالطة فقبضوها وطردوا منها الكفرة الذين كانوا يزعمون أنما خلقهم الله لمحاربة المسلمين ومن قديم الزمان الجمهور الفرنصاوي كان محبا للسلطان العثماني ولجميع المسلمين ويحب من يحبهم ويعادي من يعاديهم وذلك حقاً ويقيناً والله تعالى يديم عزّ ملك سلاطين المسلمين في كلّ الأزمنة والبايات البخلاء الغوّاغين[17] العاصين على السلطان العثماني فالله تعالى يعذبهم ويصيرهم تحت التراب [18]

سكان مصر لهم الآن فرحة بإتياننا ومن حقهم يعينون فمَنْ أتانا منهم عزما أو بقي في داره لم يدخل في هذه المسائل فلا يعينون ولا يعين غيرنا فلا يكون معه إلا الخير والّذين يعينون البايات ويشارون [19] عليهم فيقضى عليهم بالموت ولا نسلموهم [20] ونمحو آثارهم من الدنيا [21]

---

16 ـ نص الجبرتي : " ... وقولوا أيضا لهم إن جميع الناس متساوون عند الله وان الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شيء أحسن فيها من الجواري الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة فان كانت الارض المصرية التزاما للمماليك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم ولكن رب العالمين رؤوف وعادل وحليم ولكن بعونه تعالى من الان فصاعدا لا ييأس أحد من اهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الامور وبذلك يصلح حال الامة كلها == == وسابقا كان في الاراضي المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من المماليك ...".

17 ـ ربما الغوغائيين .

18 ـ نص الجبرتي : " ... قولوا لامتكم ان الفرانساوية هم ايضا مسلمون مخلصون واثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبرى وخربوا فيها كرسي الباب الذي كان دائما يحث النصارى على محاربة الاسلام ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكواللرية الذين يزعمون ان الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين ومع ذلك الفرنساوية في كل وقت من الاوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء أعدائه أدام الله ملكه ومع ذلك أن المماليك امتنعوا من طاعة السلطان غير ممتثلين لامره فما أطاعوا اصلا الا لطمع انفسهم ..."

19 ـ ويشيرون .

20 ـ ولا نسالمهم .

21 ـ نص الجبرتي : " ... طوبى ثم طوبى لاهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلو مراتبهم طوبى أيضا للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين لاحد من الفريقين المتحاربين فإذا عرفونا بالاكثر تسارعوا الينا بكل قلب لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك في محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقا إلى الخلاص ولا يبقى منهم أثر ..." .

الشرط الأول كل موضع الذي هو بينه وبين محلتنا مقدار ثلاثة ساعات من الطريق يوجهون واحدا من أعقل محلتهم ليشهدوا أنهم قبلوا إتيان الفرنصيص ويعملون السنجاق الفرنصاوي الذي هو أحمر أبيض أزرق [22]

الشرط الثاني كل بلد ومدشر ومدينة قبلوا ما ذكر يعملون مع السنجاق الفرنصاوي سنجاق محبهم السلطان العثماني الله يعظمه ويكرمه ويكون معه[23]

الشرط الثالث أشياخ العرب والأكابر_من سائر البلدان والقرى يجعل في جميع حوائجهم وءاتات ديارهم وجميع أمتعتهم من قليل الأشياء وكثيرها جليلها وصغيرها طابع لكيلا تتلف له مسئلة واحدة ولا تضع لهم من أمتعتهم ولو قلامة ظفر[24].

الشرط الرابع كل مدشر يمد يده يتشار[25] مع الفرانصاوي فنحرقه ونمحوا أثره[26]

الشرط الخامس كل شيخ أو قاضي أو إمام يبقى على طريقته ودينه وانشغاله ويبقون في ديارهم ساكنين مأمونين بأنفسهم وعيالهم وأمتعتهم ويصلون صلواتهم في المساجد والمصلات ويبقون على مالهم ويعضوا على دين الاسلام بالنواجد [27]

كل من سكان مصر يحمد الله على مجيء الفرنصاوي وعتقهم من يد باياتهم ويفعلون الأفعال الموفقات ويتركون الأفعال الموبقات ويصلون ويصومون ويفعلون الخيرات والله تعالى يجعل المجد للسلطان العثماني وينصره وينصر الجمهود الفرنصاوي على أعدائه الكفار ويعاقب البايات والممالك حتى يرجع مصر إلى حالته يلمع كشعاع الشمس

(وهذا كله حيلة وصنعة وخديعة للمسلمين وقد انفذ الله فيه وعده ملعون ملعون ملعون من يثق به وقد عصى الله ورسوله).

---

22 ـ نص الجبرتي : " ... المادة الاولى جميع القرى الواقعة في دائرة قريبة بثلاث ساعات من المواضع التي يمر بها عسكر الفرانساوية فواجب عليها ان ترسل للسر عسكر من عندها وكلاء كيما يعرف المشار اليه انهم أطاعوا وانهم نصبوا علم الفرنساوية الذي هو أبيض وكحلي واحمر ..."

23 - هذا الشرط هو المادة الثالثة عند الجبرتي . نص الجبرتي : " ... المادة الثالثة كل قرية تطيع العسكر الفرنساوي ايضا تنصب صنجاق السلطان العثماني محبنا دام بقاؤه ...".

24 ـ نص الجبرتي : " ... المادة الرابعة المشايخ في كل بلد يختمون حالا جميع الارزاق والبيوت والاملاك التي تتبع المماليك وعليهم الاجتهاد التام لئلا يضيع أدنى شيء منها ...".

25 ـ يمد يده بالشر . يعادي أو يبدأ بالشر .

26 ـ نص الجبرتي : " ... المادة الثانية كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوي تحرق بالنار ...".

27 ـ نص الجبرتي : " ... المادة الخامسة الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة الائمة انهم يلازمون وظائفهم وعلى كل واحد من اهالي البلدان ان يبقى في مسكنه مطمئنا وكذلك تكون الصلاة قائمة في الجوامع على العادة والمصريون باجمعهم ينبغي ان يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عالي ادام الله اجلال السلطان العسكر الفرنساوي لعن الله المماليك وأصلح حال الامة المصرية ...".

لقد سعى ممثل دولة فرنسا بطنجة إلى تمكين السلطان من النسخة المترجمة للمنشور النابليوني، وغرضه من ذلك تحسين صورة فرنسا وإظهارها بمظهر الدولة الحامية للمستضعفين والمدافعة عن مبادئ العدالة والحرية والمساواة، والمحترمة للدين الإسلامي إلى حد تفضيله على الديانة المسيحية، ولعل دافعه إلى ذلك هو معاينته لمشاعر المغاربة المعادية للفرنسيين، وخاصة بعد الحملة النابليونية على مصر.

وقد اطلع المغاربة فعلا على المنشور المذكور، ولكنهم لم ينخدعوا لما جاء فيه، ويظهر ذلك من العبارات التي أضيفت إلى النسخة التي احتفظ بها الباشا، حيث أرفق العنوان بعبارة(قبح الله سعيه)، وختم بعبارة توضح جيدا الموقف المغربي، وهي: وهذا كله حيلة وصنعة وخديعة للمسلمين وقد أنفذ الله فيه وعده، ملعون ملعون من يثق به ويتبعه وقد عصى الله ورسوله. ويظهر أن صاحب الجملة المضافة قد بلغته أخبار عن هزيمة نابليون كما تدل على ذلك جملة وقد أنفذ الله فيه وعده.

وعندما نقارن بين نص الجبرتي وهذا النص، نجد أن الأفكار هي نفسها تقريبا مع بعض الاختلاف الناتج عن الترجمة، أو ترتيب الشروط. والفرق الوحيد الواضح في النصين هو المتعلق بالشرط الثالث المقابل للمادة الرابعة، حيث يتعلق الأمر بمحافظة السكان على كل الممتلكات المملوكية من أجل تسليمها للفرنسيين، وهو مخالف لما فهمه مترجم مدينة طنجة.

وكيفما كان الأمر فقد وصل النداء واطلع عليه المغاربة. ولا شك أنه أحدث نقاشا واسعا بينهم، كما أحدث نفس التأثير لدى الهيئة القنصلية بالمدينة.

ونتبين من الأخبار التي كان القنصل البرتغالي يرسلها إلى دولته أن اهتمام المغاربة بموضوع الحملة لم ينقطع، وأن أخبارها كانت تصل إلى المغرب من مصادر متعددة، ومنها وفود الحجاج المغاربة العائدين من الشرق، كما يتبين من المقتطفات التالية:

"[...] وصل إلى تطوان حاجان قادمان من مكة، وقالا إنهما حملا رسائل من بعض الحجاج الآخرين من وجهاء تطوان، وفيها يحكون عن التراجيديا التي عانى منها بونابرت، وهزيمته الكاملة بعد ثلاثة أيام متتابعة من القتال مع باشا سوريا الذي مات أيضا. ويذكرون أن عدد القتلى في صفوف الفرنسيين وأتباعهم كان كبيرا. وعلى الرغم من هذه المعلومات المرضية فإنه لم يصلنا ما يؤكدها عن طريق جبل طارق، ونتيجة لذلك ما زال نفس الشك يخامرنا [...]".[28]

28 - رسالة القنصل البرتغالي إلى وزيره بتاريخ 24 دجنبر 1798،أرشيف طوري دو طومبو بلشبونة ، رقم: 299 M.N.E , CX مراسلات سنة 1798.

كما أن قسما هاما من هذه الأخبار كان يصل إلى طنجة من جبل طارق ، فيتلقاه القناصل من ممثلي دولهم ويسربونه إلى المخزن المغربي:

"[...] تأكد بواسطة رسائل موثوق بها وصلت من جبل طارق أن الأسطول الفرنسي الذي دخل إلى طولون دخل منكوس الأعلام مكسر الصواري من جراء تعرضه لعاصفة [...] ونفس الرسائل تقول إنه تم أسر ناقلتين بحريتين في الطريق من الإسكندرية إلى فرنسا وبهما أزيد من 200 من الضباط الفرنسيين الكبار الذين رافقوا بونابرت. وقد أخبر هؤلاء أنهم تركوا فريقه والجيش مصابين بالطاعون وغيره من الأمراض، وأنهم يوجدون في بؤس شديد لدرجة قد تدفعهم للتفكير في إنهاء هذه الحملة السيئة [...] "[29].

وكان قناصل الدول الأخرى يزودون المخزن المغربي بالمعلومات المتعلقة بالأوضاع بمصر، وأحوال الفرنسيين، ويفهم من سياق هذه الرسائل أن القناصل يعرفون مسبقا رغبة المغاربة في الحصول على أخبار مفرحة عن اندحار الفرنسيين، ولذلك نجد هذه الأخبار تصاغ على شكل بشارة، وتصحبها بعض العبارات القدحية في حق نابليون والفرنسيين. ومن بين هذه الرسائل واحدة كتبها قنصل البندقية إلى الوزير المغربي محمد بن عثمان بتاريخ 11 يونيو 1799 ، جاء فيها:

" [...] واعلم محبنا أنه قد يكون عندكم خبر عمارة سفاين الفرنصيص بأنهم خدمت عليهم فرتونة عظيمة في البحر الصغير فدخلوا مراساهم طلون فيهم ثلاثة سفاين مسقطين مكسرين الصواري وذكروا أن اثنين منهم غرقا وكذلك وقع بعمارة الاصبنيول [...] وأما عمارة لنجليز [...] خرجت متجهة إلى طلون لتحاصر عمارة الفرانصيص التي دخلت هناك فلا تترك احدا يخرج منها بالجيش الذي أتى في العمارة بقصد نزوله باسكندرية ليمدون به مالبارط [30] أكبتهم الله ودمرهم تدميرا [...]" [31].

وكلما حصل أحد رجال المخزن على خبر من هذا النوع، بادر بإرساله فورا إلى السلطان، كما فعل باشا تطوان عبدالرحمان عشعاش الذي بعث رسالة إلى مولاي سليمان بتاريخ 23 مارس 1804، يخبره بانهزام نابليون، جاء فيها:

---

29 ـ رسالة بتاريخ 8 يونيو 1799،أرشيف طوري دو طومبو بلشبونة ، رقم : 299 : M.N.E , CX مراسلات سنة 1798.

30 ـ مالابارط ،صفة قدحية، عن طريق قلب صفة اسم بونابارت، مـن بونا إلى مـالا، والـدعاء عـلى الفرنسـيين في الأخـير لا يحتـاج إلى توضيح .

31 ـ وثائق أكاديمية العلوم بلشبونة ، رقم 2021، بتاريخ 11 يونيو 1799 .

" [...] وهذه النواح من فضل الله ووجود سيدنا نصره الله وأدام وجوده بخير وفي هناء ولا باس والحمد لله وقد شاع هنا على الألسنة من عند النصرى أن بوبرطى [في الهامش أيمن الرسالة: يعني بُونَبَرْطى] قتل وأراح الله منه العباد [...] "[32].

تأثير الحملة على علاقات المغرب الأوربية:

إذا ابتعدنا قليلا عن الحملة نفسها وظروفها وأخبارها، وحاولنا تتبع تأثيرها على الأوضاع في المغرب، وعلى علاقاته بالدول الأوربية، وخصوصا منها تلك التي ربطته بها علاقات الجوار والمصالح المشتركة، أو التي كانت لها مصالح في المغرب، نجد ان الاحتلال النابليوني لمصر أثار لدى السلاطين المغاربة مخاوف شديدة من أن يتعرض المغرب لحملة مشابهة سواء من فرنسا نفسها أو من الدول الأخرى المتربصة بالمغرب مثل انجلترا وإسبانيا. وإذا كان عهد السلطان مولاي سليمان قد اتسم بالتحفظ الشديد في علاقاته بهذه الدول، فإن ذلك يرجع في جزء منه إلى هذا التخوف الذي أشرنا إليه. لكن تأثير الحملة على علاقات المغرب الخارجية يظهر أكثر في علاقات المغرب مع فرنسا، وميله إلى صف أعدائها، وحالة القلق من غزو" بني الأصفر" التي هيمنت على المغاربة خلال العقود الأربعة من القرن التاسع عشر، وكانت تزداد كلما ساءت الأحوال مع الدول الأوربية. وأصبحت هذه الحالة واضحة جدا عندما تمكن نابليون من أن يحط رحاله في شبه الجزيرة الإيبيرية، فأصبح الخطر أقرب، وعلى مرأى العين، كما سنتبين من الوثائق البرتغالية والمصادر المغربية التي تطرقت إلى الموضوع.

في سنة 1801، خرج المغرب منهكا من وباء الطاعون، وآثاره المريعة التي شملت كل الميادين، وكان هناك تخوف كبير من أن تقوم إحدى الدول الأوربية بمهاجمة البلاد. وقد أكد القنصل البريطاني ماطرا الذي قدم إلى فاس في نفس السنة لتجديد الاتفاقية المغربية البريطانية أن المسؤولين المغاربة كانوا جد متخوفين من احتمال تعرض البلاد لهجوم أجنبي[33]، وظهر ذلك في عدة مناسبات، من بينها مثلا هجوم قامت به سفن إسبانية على ساحل الريف، واعتبره المغاربة مقدمة لغزو إسباني أكبر شبيه بما وقع لمصر، كما يتبين من المقتطف التالي من رسالة بعثها القنصل البرتغالي إلى دولته:

" [...] يوجد عند هؤلاء الناس قلق من غزو محتمل من طرف إسبانيا وفرنسا شبيه بما حدث لمصر. ويعتبرون ما وقع بسبتة مقدمة له، ففي وقت ما خرجت من سبتة لانشات إلى هذه المنطقة، وهاجمت أسفل الساحل، وقتلت بعض الأغنام في البر بالرصاص. ألقي القبض على الأوائل منهم وسجنوا وأرسلوا إلى مكناس، حيث ما

32 - وثائق أكاديمية العلوم بلشبونة ، رقم 2021، بتاريخ 23 مارس 1804.

33 - المنصور ، الجهود ،م . م . مجلة كلية الآداب، الرباط ، عدد 5 _6 ص 32 .

يزالون هناك. بعد ذلك وصل أمر إلى أولئك الناس بالساحل، أن بإمكانهم قتل أولئك الذين يأتون إلى البر [...] "[34]

كانت سياسة المغرب مع فرنسا في العقد الأول من القرن التاسع عشر، مقسمة بين شعور العداء، والتعاطف مع أعداء فرنسا، وبين الحذر والرغبة في الحفاظ على شعرة معاوية مع هذه الدولة، وتجنب الاحتكاك بها أو إتاحة الفرصة لها للتدخل في المغرب. ومن أجل هذا الهدف، وقع تقارب كبير بين المغرب وانجلترا، التي لم ينس لها المغاربة الدور الذي قامت به من أجل إخراج الفرنسيين من مصر، والتي تعتبر حليفا رادعا لأي خطر فرنسي محتمل. كما أن تخوفات المغاربة لم تكن بدون أساس، ففي سنة 1803، وجهت فرنسا الجاسوس علي باي العباسي للتعرف على البلاد المغربية وأخذ معلومات عن تضاريسها وتحصيناتها العسكرية، وقد تم اكتشاف أمره وطرد من المغرب[35].

بعد وصول نابليون بونابرت إلى إسبانيا والبرتغال، أصبح الخطر محققا وقريبا، وأصبح للمخاوف المغربية ما يبررها، وأصبح المغرب طرفا في الصراع الأوربي بشكل غير مباشر، لأنه مكن انجلترا من بعض التسهيلات والمساعدات لدعم أسطولها الموجود في المضيق، وتنازل لها لبعض الوقت عن جزيرة صغيرة تدعى تاورة بالقرب من سبتة، وقدم للبرتغال المساعدات المطلوبة لأسطولها، ولم يقدم نفس العون لفرنسا ولا لإسبانيا عندما كانت خاضعة لها. ونستطيع أن نتلمس كل هذا من خلال بعض الإشارات الواردة في بعض المصادر المغربية والوثائق البرتغالية في هاته الفترة .

لقد شاع لدى المغاربة، وربما بإيحاء من الانجليز أن نابليون يخطط لغزو المغرب، وأنه صنع قنطرة من الخشب ليعبر عليها بجيوشه إلى المغرب، ويتضح ذلك من خلال ما جاء لدى مؤرخ مغربي معاصر يدعى الضعيف، الذي سجل ذلك في تاريخه المعروف باسمه :

"[...] وفي هذه السنة[36] قوي سلطان الفرنسيس وهو نابليون بنابرطي وقهر أجناس النصارى وغلبهم، ولا بقي مخالفا عليه إلا اللنقليز[37]، وأراد الخروج للمغرب وأتى بأجناس النصارى للبوغاز[38] وإلى طريفا[39] والخزيرات[40] وصنع قنطرة من اللوح ليقطع[41] عليها ثم خاف من اللنقليز لأنه لم يتفق معه على ذلك وقال: إن أردت القطوع

34 ـ رسالة من القنصل كولاصو إلى وزيره كوتينيو، بتاريخ 20 شتنبر 1801 .أرشيف طوري دو طومبو ، رقم 299: M.N.E.CX

35 ـ زكي مبارك ، مولاي سليمان ، مجلة البحث العلمي ، عدد 42 ، صص 61 ـ 62 .

36 ـ يقصد سنة 1222 هجرية ، التي توافق سنة 1807 ميلادية .

37 ـ يقصد الانجليز .

38 ـ مضيق جبل طارق .

39 ـ جزيرة طريفة .

40 ـ الجزيرة الخضراء .

41 ـ يقصد العبور ، أو أن تقطع إلى المغرب .

للمغرب فأحرق لك السفن فإن غلبت فذاك وإن لم تغلب فيقتلكم المسلمون وذلك جزاؤكم، فتنهنه ورجع[...]"[42].

يظهر هذا التردد بين العداء الصريح، ولزوم جانب الحياد من خلال تصرفات المخزن المغربي في هذه الفترة، ففي سنة 1807، أرسل السلطان سفيرا إلى فرنسا وهو الحاج إدريس الرامي وهو الإبن الأكبر لأحد الشرفاء الأدارسة بفاس، وأرسل معه عددا من المغاربة، وتاجرا فرنسيا كان مقيما بالعرائش يدعى جان لاربر كليرمونت (Jean Larbre Clermont) وكان يتكلم العربية، بصفة مترجم. وقد وصل فعلا إلى مارسيليا يوم 6 يوليوز، وفي غشت وصل إلى باريس، واستقبل رسميا من طرف نابليون يوم الأحد 6 شتنبر [43]. ولا يظهر أن هذه السفارة قد حققت نتائج ملموسة. وقد وجد السلطان المغربي نفسه في امتحان حقيقي حينما أرسل له نابليون يطلب منه ألفا من الخيل لمساعدته في حروبه، وهو أمر غير مقبول شرعا ولا يسمح به الدين، وقد استشار السلطان وزيره الذي عرض عليه حلا وسطا وهو أن يبعث لنابليون ببعض الخيول هدية، وهو أمر لا يتعارض مع الدين ويأمر بعض عماله بإرسال بعضها الآخر، وبذلك لا يكون رفضه تاما، ولا ينصاع في نفس الآن لطلب نابليون، لأن حوالي 30 أو 40 من الخيول لا يعتبر مساعدة عسكرية ذات قيمة تذكر، ولا يعني رفضا مطلقا لطلب نابليون، وإن كان في الحقيقة رفضا مؤدبا. وقد سجل هذا الموقف المؤرخ الضعيف في كتابه المذكور:

"[...] وكان سلطان النصارى دمره الله وهو ملك بني الأصفر بونابرط أهلكه الله بعث للسلطان مولانا سليمان أيده الله على أن يبعث له الخيول بسروجها نحو الألف فرس، وتكون الخيل عتيقة من خيل أهل المغرب، فبعث السلطان لوزيره السيد محمد بن الحاج عبد السلام السلاوي وقال له: إن هذا النصراني بعث لي على أن أبعث له الخيل فكيف العمل. فقال السلاوي: ابعث له نحو 10 من الخيل و15 فرسا وأمر كل عامل من عمالك يبعث فرسا من عنده. فبعث السلطان لعامل دكالة يبعث فرسا، وللزوين يبعث فرسا وللغازي الشاوي كذلك ولغيره من العمال كذلك أيضا[...] وفي يوم الأحد 17 صفر عام 1222 المذكور، خرجت من الرباط الخيل التي بعث عليها بونابرت لمولانا سليمان وفيها فرس عتيق بسرجه منبت[44] مع المزامزة

---

42 ـ محمد بن عبد السلام الضعيف ، تاريخ الدولة السعيدة (تاريخ الضعيف) ، تحقيق أحمد العماري ، الرباط ، 1986، ص 342.
43- Caillé , Ambassades , Hespéris , 1960 , p .63 .

44 ـ مرصع .

والشاوية[45]، وساروا بالخيل لطنجة، وأخبروا بأن قونصو[46] الفرنسيس قبض الخيل منهم، وأعطى لكل واحد منهم 16 ريالا[...]"[47].

ويظهر أن فرنسا لم تستسغ رفض مولاي سليمان التعاون معها، وربما بدرت منها نوايا عدائية، أو وصلت إلى مولاي سليمان أخبار من الإنجليز عن تحركات فرنسية استعدادا للهجوم على المغرب، ولذلك حدثت في المغرب حركة تأهب قصوى، واستعداد لمواجهة كل الاحتمالات، وقد بلغ عدد الجيش المتجمع في شواطئ المغرب المحاذية للمضيق حوالي30000 رجل، وكان على رأسها باشا طنجة محمد بن عبد السلام السلاوي(2 ماي 1808)[48]. ويعطينا الضعيف صورة واضحة عن هذه الاستعدادات:

"[...] وفي أوائل محرم 1223 شاع وذاع بأن النصارى دمرهم الله خارجين للمغرب، وأخذ الناس في الاستعداد للجهاد من جميع جهات المغرب كأهل فاس وتطاون والرباط وسلا وغير ذلك. وفي يوم الثلاثاء 13 صفر من العام المذكور ورد كتاب السلطان من مراكش يحذر أهل سلا وأهل الرباط من بني الأصفر ووافق اليوم الأخير من مارس، وبعث لكل مرسة من مراسي المغرب مثل الصويرة وأغادير وزمور وسلا والرباط والمهدية والعرائش وطنجة وتطوان، وأمر على كل قبيلة مجاورة لكل مرسة تأتي بخيلها ورجالها، وأمر العمال أن يميزوا[49] على ساحل البحر. وفي يوم عيد المولد عام 1223 المذكور كان الميز على كل مرسة، وأمر الباشا الغازي الشاوي على قبائل الشاوية فأتت لرباط الفتح ومعهم عرب الويدان. وكان عيد المولد عام 1223 يوم الأربعاء. وفي هذا اليوم وهو يوم العيد المذكور، كانت على ساحل الرباط نحو الأربعين ألفا من قبائل الشاوية وعرب الويدان وورديغة، وقطع أهل سلا محزمين[50]، وخرج الباشا الغازي الشاوي وسرط القبائل المذكورة، وكان ميز كبير. ثم افترقت القبائل[...]وفي يوم الثلاثاء 21 ربيع الأول سمعنا بأن النصارى نزلوا بمرسة تامراغت بقرب أغادير، وشاع خبرهم بسلا والرباط ، ثم كان الخبر غير صحيح [...]"[51].

ولعل الخوف من الخطر الفرنسي هو الذي دفع بالمغرب آنذاك إلى التقارب مع الإنجليز للاعتبارات السالف ذكرها، وتسليمهم جزيرة تاورة، وكاد الأمر أن يتحول لتحالف

45 ـ مع ناس من منطقتي أمزميز والشاوية .

46 ـ يقصد القنصل .

47 ـ الضعيف ، تاريخ ، ص 343 .

48- Posac Mon , Marruecos y la guerra de la indepenencia (1800-1814), Hespéris - Tamuda, vol :XXVI - XXVII , fasc .U . 1988-89 , p140 -141

49 ـ أن يظهروا الاستعداد والقوة وشدة المراقبة (نقلا عن المحقق) .

50 ـ يقصد عبر أهل سلا إلى الرباط ، مستعدين .

51 ـ الضعيف ، تاريخ ، ص 344 .

من أجل استرجاع سبتة، لولا تطور الموقف لصالح إسبانيا، وبداية تراجع نابليون عن شبه الجزيرة الإيبيرية[52]. كما يفسر أيضا المساعدات التي قدمها لدولة البرتغال، وخاصة تموين أسطولها، وتزويد الجيش بحاجياته الغذائية، والتعبير التلقائي للمغاربة عن تضامنهم مع البرتغاليين في محنتهم، والابتهاج الذي أبدوه للانتصارات التي حققوها على الفرنسيين. وسيظهر الموقف المغربي بوضوح، في الاستقبال البارد الذي خصص للوفد الفرنسي الذي قدم إلى المغرب يعرض التحالف مع السلطان المغربي ويطلب تزويده بما يحتاج من المساعدات، ويحذره من التعاون مع الإنجليز. وكل هذه الأمور نجدها مع بعض التفصيلات في مراسلات القنصل البرتغالي التي نعرضها فيما يلي:

"[...] بمجرد أن توصلت بالخبر السعيد بأن مملكة الغرب تمكنت من صد الاستعمار المستبد لحكومة فرنسا، وأنها أقامت هيئة حاكمة لإعادة الإسم الملكي لسيدنا الأمير، بعثت بهذا الخبر إلى الوزير الأكبر لسلطان المغرب طالبا في نفس الوقت كل المساعدة والجميل من طرف هذا السلطان مما يمكن أن نحتاجه من أراضيه. وقد تلقى الوزير المغربي هذا الخبر بأكبر مظاهر الفرح، ووعدني بأن سيده السلطان سيقدم كل المساعدة التي ستطلب منه للتعاون في قضية عادلة كهذه، بمجرد أن تستتب الأوضاع للعاهل البرتغالي، مراعاة للصداقة والتقدير القديمين اللذين يكنهما سلطان المغرب لعاهلنا[...]"[53].

وقد احتفظ لنا الأرشيف البرتغالي بمعلومات مفصلة عن مهمة الوفد الفرنسي الذي بعثته فرنسا بقيادة القبطان بوريل (Burel) في مهمة لدى السلطان مرفوقا بممثل فرنسا بطنجة السيد دورنانو (D'Ornano)، واستقبل من طرف السلطان يوم 13 غشت 1808 استقبالا باردا[54]. وقد تزامن قدوم هذا الوفد مع وصول أنباء الانتصارات التي حققها البرتغاليون على الجيوش الفرنسية بقيادة جونو (Junot) في نفس الشهر، وما ذكره القنصل من احتدام المقاومة للوجود الفرنسي بإسبانيا، مما كان له بدون شك دور في اتخاذ السلطان لهذا الموقف الفاترمن السفارة، الذي توضحه التفاصيل التالية المذكورة في رسالة القنصل البرتغالي إلى وزيره، وكذلك الرسالة المرفقة التي كتبها أحد البرتغاليين الذين حضروا لقاء الوفد بالسلطان.

"[...] بمجرد أن تـأكد الخائن بونبارت من إخضاع إسبانيا أرسل رسالة إلى سلطان المغرب بعثها من مدريد بواسطة صهره مراد مع وفد رسمي من المهندسين لتتم مرافقتها من طرف قنصله العام هنا. وكان هدف الزيارة الحصول على جزيرة صغيرة قام الإنجليز

52 - ينظر في هذا الصدد: المنصور، الجهود، م.م.أعلاه .

53- رسالة من القنصل كولاصو إلى وزيره كوتينيو، بتاريخ 11 يوليوز 1801. أرشيف طوري دو طومبو، رقم 299: M.N.E.CX

54 - زكي مبارك، مولاي سليمان والثورة الفرنسية ونابليون بونابارت، مجلة البحث العلمي، عدد 42، ص. 67.

بتحصينها بهذا الشاطئ وتم استرجاعها من طرف السلطان على الفور وذلك عندما ضغط عليهم بمنع الفريشك[55] عنهم أو لأساطيلهم بجبل طارق، وأغلق في وجههم كل الموانئ المغربية.

بعد وصول الوفد احتدت الثورة بإسبانيا. وبدون اعتبار للظروف الجديدة فإن قنصل فرنسا أصر على تنفيذ مهمته ـ على الرغم من أنه خفف كثيرا من لهجته وأظهر الكثير من الخضوع، كما أسر لي بذلك الوزير المغربي ـ ولا شك انه غير المهمة التي جاء من أجلها بعد رؤيته للواقع الجديد بإسبانيا وحاول تقديم هذه الثورة على أنها عصيان استطاعت القوة الفرنسية القضاء عليه بسرعة. أخيرا تم استدعاؤهم من طرف السلطان. ومن التقرير الذي أعطاني إياه البوتيكاريو[56] البرتغالي الموجود في خدمة السلطان المغربي، الذي كان حاضرا في اللقاء الذي خصص لهم والذي أتشرف بإرفاقه، يتبين أنهم لم يحظوا بلقاء ثان مع السلطان بعد اللقاء الأول، على الرغم من طلبهم ذلك وبإلحاح، ولا حتى بالاستئذان كما هو معتاد عند هذا البلاط. فقد أمروا بالانصراف إلى طنجة، التي دخلوها بدون أدنى مظهر رسمي بأمر من الباشا الحاكم الوزير سيدي محمد السلوي. بينما جرت العادة بهذه البلاد على إعداد استقبال رسمي كبير للممثلين الذين يعودون من حضرة السلطان، وهذا كله يؤكد بداهة السخط الذي تنظر به هذه الدولة إلى التصرف المخادع وسوء النية اللذين تصرفت بهما دولة فرنسا[...][57].

ونتعرف على تفصيلات أكثر حول موضوع هذه السفارة الفرنسية من خلال التقرير الذي كتبه البوتيكاريو السيد مانويل إغناسيو دو بريطو إلى القنصل البرتغالي من مدينة فاس، بتاريخ 21 غشت 1808، وهو المرفق بالرسالة السابقة :

"[...] أحيطكم علما بوصول القنصل الفرنسي. ذهب مباشرة إلى مكناس حيث بقي يومين مخيما خارج المدينة، ثم قدم إلى هنا. أمر السلطان بإقامته في أحد البساتين، وبعد يومين، التقى به في بوجلود[58]. بعد السلام، ذكر المرسول أن بونبارت بعثه ليؤكد رغبته في صداقة السلطان، وتقديره لها جيدا. وأنه وصلته أخبار بأن جلالته غير واثق من صداقته ، لذلك يطلب منه أن يعقد معه تحالفا قويا، وهو يأمل منه لذلك أن يساعده ويمد له العون ضد أعدائه. وأخبره بأن ملك إسبانيا سلم التاج بمحض إرادته لبونبارت الذي عين أخاه جوزيف حاكما على إسبانيا، وهو يوجد حاليا بمدريد، وأن الإسبان لم يقدروا جيدا مزايا جلالته، ولكنهم بحكم وجودهم الآن تحت

55 ـ يعني المواد الطرية من لحوم وخضر وفواكه وماء ، وكان يقدم للسفن الأجنبية التي ترتاد الموانئ المغربية .

56 ـ البوتيكاريو ، شخص يداوي بالأعشاب .

57 ـ رسالة من القنصل كولاصو الى وزيره كوتينيو،بتاريخ 30 غشت 1808 .أرشيف طوري دو طومبو ، رقم 299: M.N.E.CX

58 ـ ساحة عامة بفاس آنذاك ، وتشتهر ببابها الذي يحمل نفس الإسم .

الحكم الفرنسي يحيون بالاحترام اللازم ملكا مطاعا جدا مثل جلالته. وسلم له رسالة قائلا إنها من يد بونبارت. رد عليه جلالته قائلا: طيب، سأرى ما يجب عمله، وانسحب.
بعد ذلك استدعاني السلطان وأمرني أن اقرأ الرسالة، قلت له إنني لا أعرف قراءة الفرنسية فأمر أحد الكتاب "طالب" بترجمتها إلى العربية، وكانت تتضمن نفس الكلام، وجاء فيها أيضا أن الإنجليز ليسوا رجالا حسني النية، ولذلك ليس من الصواب أن يقيموا حصونا في أراضيه لأن هذا سيضر به، خصوصا بعد قيام تحالف متين بين البلدين. كما طلب من جلالته أن يعينه ضد الانجليز.
لكن جلالته ولله الحمد، يعرف جيدا تصرفاتهم[الخرقاء] في هذه الظروف، كما خبرهم في مناسبات أخرى، ولن يمنحهم أبدا أي شيء، لأنه أحيط علما بحقيقة هؤلاء الفرنسيين. وأجابهم بأن عليهم العودة إلى طنجة، وانتظار رسالة جوابية منه [...]"[59].

لم يستطع المغاربة إذن أن يحتفظوا بموقف الحياد من الصراع بين نابليون وخصومه، واتسمت علاقاتهم بالفرنسيين بالحذر الشديد، ولم يخفوا تعاطفهم مع أعداء الفرنسيين، ولا شك أن المقتطفات التالية من رسالة التهنئة التي بعثها محمد السلاوي إلى قنصل إسبانيا بعد هزيمة نابليون توضح ابتهاج الوزير المغربي لهذه الهزيمة، ومعه الموقف المغربي من نابليون. وهو موقف يرجع في أصوله إلى الحملة النابليونية على مصر.

" [...] وقد سرنا كثيرا وفرحنا وكافة الناس فرحا كثيرا على هذه الأحدوثة العظيمة التي أوقعها الله بظالم الدنيا ومهلك الحرث والنسل فيالها سنة ما أعظمها على خليفة الله نطلب الله أن يكمل ذلك على العباد باهلاكه وقطع دابره وإراحة الدنيا من نصبه وتعبه والمؤكد به عليك أن لا تغيب عنا ما يزداد من اخبار ذلك [...] "[60].

لقد تم القضاء في الأخير على نابليون، وتحقق دعاء الوزير المغربي، ولكن، هل انتهت متاعب المغاربة مع الفرنسيين؟ لقد ظل شبح بني الأصفر مخيما على رجال الدولة المغاربة، وجثم بكلكله على صدورهم، خصوصا بعد وصولهم إلى الجزائر، وتطور العلاقات بالتدريج في إطار المسلسل الذي انتهى باحتلال المغرب، لتصدق النبوءة التي كانت تقض مضجع المغاربة، والتي تحدثت عن دخول بني الأصفر ووصولهم إلى فاس، وهو موضوع يحتاج إلى وقفة أخرى.

59 - رسالة مرفقة بالوثيقة المشار إليها في الهامش رقم 52 .
60 - رسالة من لوزير محمد السلاوي إلى قنصل إسبانيا المعين بطنجة منذ سنة 1810 ، السيد (Blas de Mendizabal) بتاريخ 2 فبراير 1813 . ضمن مجموعة أكاديمية العلوم ، رقم : 1020 .



ترجمة نداء بونابارطي قايد محلة الفرانسيس
بعد نزوله على الاسكندرية له فتح الله سعيد له

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك
في قديم الزمان برجي لهذا الوقت تعذيب جميع بابات مصر واملهم ممالك جاءوا من
جبل كرجستان ونيتهم وقصدهم خراب البلدان الجميلة ومن قديم الزمان يقصدون
الهجم على الجنس الفرنساوي والوثوب عليهم ويظلمون تجارهم باي نوع شاءوا واليوم
بونبارطي القايد الكبير للجمهور الفرنساوي وقاصد الحرية جاءهم هو والله تعلى رب
الدنيا والاخرة ثم حكومة البايات

انا سكان مصر اذا قالوا لكم البايات ان الفرنساوية جاءوا لخراب دينكم فاياه منهم
كذب فلا تامنوهم واخبروهم بان الفرنساوي لم يكن قصده ما زعموكم واتيانهم
انما هو ليقبضوا حق المساكين من يد الظالمين والفرنساوي يعبدون الله ويحرمون
النبي ويعظمون القرآن المقدس؛
ومن يدي الله تعلى يكون الانسان من حيث هو مستويا ما عدى من هو
من اهل الموهبات كالعالم والصالح والعاقل والحكيم والبايات لم يكن فيهم وصف
من هذه الاوصاف والذي لم يكن فيه واحد منها كيف يستاهل الحكومة على
الناس في هذه البلد وقد اخذوا لكم الاراضي الكثيرة وحازوا الجنينات المستحسنة
والخيل المسومات والسريات العظمى هل خصهم الله بهذه النعمة وحدهم فاذا
زعموا ذلك فليبينوا لكم الحجة بل الله تعلى الكريم الاكرمين وهو سبحانه الكريم
على كل انسان ويجب الحق سبحانه واليوم اراد الله تعلى ان يكون الناس كلهم
سواء في الصعود والمرتبة العظمى واردنا حضور جموع من العلماء والصالحين واهل
الخير ويكون معهم ان شاء الله تعلى بالسعادة واليقين بان الجور والظلم
الذي كان في مصر من باباتهم من قديم الزمان قد اذهبه الله عنهم ولا يكون في
المستقبل ترجع خزائنه مفرحة كما كانت قبل البايات ويكثر الخصب
الفرنسيس مسلمون حقيقة لا محالة فهي الحارط عن قريب ذهبوا الرومة وهدموا
كرسي الباب الكذاب الذي يزعم انه نايب المسيح وكان دايما يحرض النصارى
على كل من يتبع مذهب الاسلام والاسلام هو دين سيدنا محمد وهو الذين
في الجزيلة وبعد ما عملوا في رومة ما عملوا ذهبوا الى مالطة فقبضوها وطردوا
منها الكفرة الذين كانوا يزعمون انما خلقهم الله لمحاربة المسلمين ومن قديم
الزمان الجمهور الفرنساوي كان محبا للسلطان العثماني ولجميع المسلمين ويحب
من يحبهم ويعادي من يعاديهم وذلك حقا يقينا والله تعلى يديم عز ملك سلاطين
المسلمين في كل الازمنة والبايات البخلاء الطواغين العاصين على السلطان العثماني
فالله تعلى يعذبهم ويهلكهم ويسبرهم تحت التراب
سكان مصر لهم الان فرحة باتياننا ومن حقهم يعينون بحق اتانا منهم عرضا

[illegible]

نداء بونابرت بالعربية

نسخة

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

الى القونصوا ابلس ديمنديتيل الانبولي بثغر طنجة حاطه الله امين وبعد
فقد وصلني كتابك فوجدنا متشوفين لتلك الاخبار انتشاف الحوت
للماء لانها غابت عنا هذه مدة وتشوفنا من عدم اعلامكم لنا بالحال لان
اخباركم هي المعتمدة عندنا في كلما تسمع وقد سرنا كثيرا وفرحنا وفرحت
الناس فرحا كثيرا على هذه الاحدوثة العظيمة التي اوقعها الله بظالم الدنيا
ومهلك الحرث والنسل فيالها منة ما اعظمها على خليقة الله فنطلب الله
ان يكمل ذلك على العباد باهلاكه وقطع دابره واراحة الدنيا من نصبه
وتعبه والموكد به عليك ان لا تغيب عنا ما يزداد من اخبار ذلك
وبه كتب اليكم محمد بن عبد السلام السلاوي وفقه الله في متم
محرم الحرام فاتح عام 1228 رزقنا الله خيره ووقانا ضيره

الوزير السلوي يعبر عن سروره بهزيمة نابليون

المسكوت عنه في علاقات موظفي المخزن بقناصل الدول الأجنبية

لا تتحدث المصادر المغربية عادة عن بعض الجوانب الخفية من سلوكات موظفي المخزن. وحتى حين يتم ذلك، فإن عددا من التفصيلات الضرورية تظل غائبة. ويرجع السبب في ذلك غالبا إلى أن هذا النوع من السلوكات يظل بمنأى عن المراقبة والضبط ويتم في السرية ولا يترك آثارا دالة عليه.

ويظهر من استقراء المصادر من مغربية أو أجنبية أن موظفي المخزن كانوا يعملون بأساليب مختلفة على الاستفادة من وظائفهم ونفوذهم لجمع ومراكمة الثروات. ولعل هذا هو الذي يفسر مصادرة المخزن لثروات العديد من هؤلاء الموظفين بعد وفاتهم، أو حتى في حياتهم، وخصوصا عند انتقال السلطة من سلطان إلى آخر. والأمثلة كثيرة على ذلك، لا تكاد تخلو منها فترة من الفترات، ويمكن أن نذكر من بينها على سيل الاستئناس، ما فعله المنصور السعدي مع بعض قادته ووزرائه ومنهم على الخصوص الدغالي قائد جيش الأندلس، الذي اغتاله المنصور وصادر أمواله ومنها عدد من البغال " [...] **الحاملة لماله وأثقاله وكانت نهايته ستين ألفا من الذهب العين** [...]"[1]، والكاتب محمد بن عيسى الذي تعرض لنفس المصير وصودرت له أموال كثيرة من بينها: " [...] **ثمانون حسكة مذهبة ومن الرخام والودع ومائة تخت من ملف ملون ، وأواني الدار كلها من الودع وغيره من الأثاثات الثمينة الفاخرة** [...]"[2]، وكان هذا الكاتب صاحب ثروة كبيرة "[...]**ملك جوطية بأسرها داخل فاس تتكون من حوالي ثلاثين دكانا** [...] "[3].

ولا شك أن أموال موظفي المخزن كانت تعتبر أموالا عمومية يحق للسلطان أن يسترجعها وقتما يشاء لأنه هو الذي سمح لأصحابها بجمعها. وهذا يبدو من العديد من الإشارات والأمثلة ومنها في عهد المنصور دائما، توفي قائدان من ذوي قرابته، ويخبرنا مصدر برتغالي معاصر بأن:

" [...] العادة جرت - لدى كل المغاربة- بأن يقدموا هدية معتبرة للشريف عندما يتوفى لهم أب غني، مؤملين بذلك الحصول على المهام والوظائف التي كانت

1ـ الفشتالي ، مناهل الصفا، ص . 44 .

2ـ مجهول ، تاريخ الدولة الدرعية التاكمادارتية ، ص 84 .

3ـ بنعلة مصطفى ، مجموعة رسائل سعدية ، ص 22 ، من حوالات فاس ، رقم 52 ، ص 177 .

لأبيهم؛ ولذلك فإن الحسن ابن أحد القائدين ... انتظر بضعة أيام ثم نهج نفس الطريق، وذهب إلى الشريف، وحمل إليه مائتي ألف أوقية، وهي ما يعادل 80 ألف كروزادو.

استقبله الشريف معبرا له عن أسفه الكبير على وفاة أبيه وعمه، وسأله كم خلفا من المال، فأجابه بأنهما تركا ثمانمائة وخمسين ألف أوقية، وأنه حمل منها مائتي ألف، أما الباقي فهو تحت تصرف الشريف متى شاء، لأنه لا يرغب منه إلا بما هو ضروري له لتأمين حاجيات عمله. وعندئذ أعطاه الشريف مائة وخمسين ألف أوقية زيادة على المائتين [التي أحضرها] والتي طلب منه أخذها لأنها في أمان بيد رجل مثله، ابن أب مثل أبيه، أكثر من وجودها في خزائنه الخاصة [نفسها]..." [4].

ويخبرنا نفس المصدر عن المصير الذي لقيه أحد قادة المنصور المقربين على يدي ابنيه مولاي الشيخ وأبي فارس، على الرغم من المكانة التي كانت له لدى أبيهما. ويتعلق الأمر بقائد القصر الكبير أحمد بلكوشة، الذي جمع أموالا كثيرة خلال حكم المنصور تقدر بمليوني أوقية نصفها خبأه في القصر الكبير ونصفها الآخر في مراكش. فقد مات كل أبنائه تحت التعذيب ما عدا ابنه الأصغر الذي فر معه إلى مراكش لاجئا عند مولاي أبي فارس، وذلك بعد أن أرغمهم مولاي الشيخ على الاعتراف بالأماكن التي خبأ فيها أبوهم ثرواته في فاس والقصر الكبير. وعندما ذهب إلى أبي فارس ضغط عليه هذا الأخير لتسليمه أمواله المدفونة، فحمل إليه في البداية 300000 أوقية، ثم طلب منه 400000 أوقية فحمل إليه إناءين مليئين بالمثاقيل وأخبره أنهما يحتويان على أكثر مما طلب منه وأنهما كل ما بقي له، ولكن مولاي أبا فارس استمر في الضغط عليه وسجنه مع ابنه، ثم أخذ ابنه فيما بعد وعذبه ليقر بمكان الأموال المخبأة، وقد مات القائد كمدا عندما علم من أحد الخدم أن ابنه مات بعد أن عذب بواسطة حبل شدوه حول رأسه إلى أن خرجت عيناه[5]. وشبيه بذلك ما وقع للوزير قدوس مع السلطان اليزيد فيما يفصله الضعيف في تاريخه حيث طالبه بأموال أبيه، ولكنه رفض خصوصا بعد أن أمر بقطع يديه"[...] وقال: **لو أراد المال ما قطع يدي، فلو تركني أعطيته مالي وأوريته أين هو مال أبيه الذي بالصحراء ومراكش والذي عند الروم وحين فعل ما بي ما فعل فوالله لا يرى مني فلسا واحدا [...]"**[6].

4- أنطونيو دو صلدانيا، أخبار المنصور سلطان المغرب، الفصل رقم 100.
5- نفسه، الفصل 135.
6- الضعيف، تاريخ الضعيف، ص 217.

هذه الأمثلة تبين بوضوح أن الوزراء والقادة كانوا يستفيدون ماديا من عملهم في المخزن، وأن السلاطين يعلمون بذلك ويعتبرون أن لهم الحق بالمطالبة بذلك المال عند الحاجة إليه، واستعادته بعد وفاتهم .

وعندما نتصفح الأرشيف الأجنبي، نعثر على أمثلة أكثر وضوحا وتنوعا عن استفادة موظفي المخزن من مناصبهم بشتى السبل، وتكالبهم أحيانا على الأموال والهدايا مقابل ما يقدمونه من خدمات لقناصل الدول الأوربية وممثليها في المغرب.

ففي مراسلات هؤلاء الموظفين مع القناصل مثلا، نجدهم يتحررون من كل تحفظ أو تخوف ويتطرقون صراحة إلى ما يتقاضونه مقابل الخدمات التي كانوا يقدمونها لهؤلاء القناصل، وكان هؤلاء بدورهم يقدمون حسابات مفصلة عما كانوا يدفعونه من هدايا ومكافآت إلى هؤلاء الموظفين لأنهم كانوا يقدمونها من الميزانية المخصصة لتسيير قنصلياتهم، ويقدمون عنها حسابات مضبوطة، ولم يفتهم في تقاريرهم أن يشيروا باستمرار إلى ما كانوا يتعرضون له من ضغوط من هؤلاء الموظفين للحصول على المصالح التي يتوخونها كما ستشير إلى ذلك.

وبما أنه يصعب التوقف عند كل الأمثلة والإشارات التي تزخر بها هذه الوثائق فإن هذه المساهمة تسعى إلى تقديم بعض النماذج المعبرة المنتقاة أساسا من الأرشيف البرتغالي، وبالضبط من أرشيف القنصلية البرتغالية بطنجة خلال الفترة الممتدة من سنة 1773 إلى سنة 1844، وذلك من خلال العناوين التالية:

1 ـ السفارة البرتغالية إلى المغرب سنة 1773، من أجل عقد معاهدة الصلح مع المغرب:

احتفظ لنا الأرشيف البرتغالي بوثيقة تبين أوجه النفقات التي صرفها هذا الوفد خلال مقامه بالمغرب الذي استمر من نهاية أكتوبر إلى فاتح أبريل من السنة الموالية 1774. ونتبين منها أن الهدايا والعطاءات التي قدمها الوفد كانت كثيرة ومتنوعة، وأن المستفيدين منها كانوا كثيرين وعلى مستويات تبدأ بأصغر موظف وتنتهي بالوزراء والأمراء. كما أن العطاءات كانت تتنوع بين الهدية الصريحة والرشوة أو السخرة مقابل قضاء الأغراض المختلفة.

وعندما نستعرض قائمة المستفيدين نجدها تضم: باشا مدينة الصويرة والوزير قدوس وأصدقاءه والأمير سلامة والباشا ابن عمران والأمير مولاي عبد السلام وقاضي أسفي وصمويل سنبل الذي كان له نفوذ كبير في الشؤون الخارجية والقايد سعيد حاكم منطقة عبدة. كما تتضمن عددا من الأمناء وموسيقيي السلطان والمكلفين بمدفعية الحصن والفرسان المرافقين للوفد وقبطان الميناء والمرافقين له والبوابين ومرافقي هدية السلطان وجنود حامية الصويرة

الذين رافقوا هدية الوفد البرتغالي، والطباخ الذي وضعه السلطان تحت تصرف السفير البرتغالي ومساعديه الأربعة وبعض النجارين والجنود المرافقين لكرسي الوزير المفوض البرتغالي، والحراس الذين حضروا الاستقبال الملكي والفرسان وحاملي المظلة والرماة وسائقي عربة السلطان والمكلفين بالمهماز وحامل السيف والمكلفين بالملابس وحاملي كرسي السلطان وحاملي الماء وقائد المدفعية وخدم الأمير وحاشيته وبوابي القصر وعدد من القادة والخدم العاملين داخله وحاملي الاسطرلاب وساعة السلطان والحراس الشخصيين وسائسي الخيول وصاحب مفاتيح الخزينة وبعض الشرفاء [الأعيان] وكاتب الباشا وكتاب الأمير وطباخ السلطان الأول، وبستانيي الحديقة التي أقام بها الوفد وحراسها الخ .

يلاحظ من الوثيقة المرفقة تعدد المستفيدين الكبير، وذلك عن كل الخدمات العادية أو الاستثنائية، ومنهم من استفاد عدة مرات. مثل القايد قدوس، والأمير مولاي عبد السلام وقاضي أسفي. كما يلاحظ التفاوت في العطاء حسب مرتبة الشخص أو الخدمة التي أداها للوفد، فباشا مدينة الصويرة مثلا حصل على أكثر من 1000 بسيطة، وحصل القايد قدوس على مائة بسيطة وكذلك قاضي أسفي في المرة الأولى والطباخ على 120 بسيطة، وطباخ السلطان الأول على 100 بسيطة. وحصل كل من الأمير سلامة وعبد السلام على ثلاثة قضبان ذهبية بقيمة 300000 ريال، ثم حصل هذا الأخير على أربعة قضبان أخرى بقيمة 400000 ريال وحصل فيما بعد على 2000 بسيطة وحصل القايد سعيد حاكم منطقة عبدة على 205 بسيطة، وحصل قاضي أسفي على ما مجموعه 900 بسيطة نظير تحريره لعقد الصلح، وذلك لأنه كان يتعمد التأخير في تحرير العقد مما يدفع البرتغاليين إلى تحفيزه بمبالغ نقدية، بحيث دفعوا له المبلغ على ثلاث دفعات في كل واحدة منها 300 بسيطة.

أما المبالغ المعطاة لغير هؤلاء فتتراوح بين 5 بسيطات و60 بسيطة. ولكن تعدد المستفيدين أوصل المبلغ في النهاية إلى 10110 بسيطة بدون حساب القضبان الذهبية التي وصلت قيمتها إلى مليون ريال، وبدون حساب الهدية الرسمية المقدمة إلى السلطان والتي لا يتحدث التقرير عنها [7].

ويظهر أن كثرة المستفيدين من العطاءات والهدايا لا تقتصر على مناسبة السفارات وحدها وأنها ظاهرة موجودة باستمرار، فعند قراءتنا للتقارير التي يكتبها القناصل لدولتهم والحسابات السنوية التي يرفعونها إليها تطالعنا لائحة طويلة وغير عادية مكونة من أسماء الأشخاص الذين يستفيدون من عطاءات وهدايا القنصل البرتغالي وغيره من القناصل في مناسبات الأعياد وزيارتهم لطنجة أو تعيينهم باشوات فيها أو عودتهم إليها بعد سفرهم إلى العاصمة، أو قضائهم لخدمات تخص القنصل أو دولته. بحيث إن هذه الهدايا والعطاءات

7ـ أنظر نص التقرير في الملحق رقم 1 .

أصبحت تشكل حيزا كبيرا مهيمنا على ميزانية القنصلية وسببت للقنصل العديد من المشاكل مع دولته[8]. ونجد من المستفيدين مثلا: الباشا وخليفة الباشا وخدم الباشا وخدم الوزير وخدم الأمراء والجنود الذين يأتون بالرسائل ورياس السفن القرصانية المغربية وعددا غير معين من الشرفاء وموظفي الميناء وأعيان البلاط ـ[9]، والمديرين المكلفين بالديوانة وثلاثة كتاب، وقبطان الميناء وحراس أبواب المدينة الأربعة[10].

وفي تقرير لقنصل فرنسا نتبين أن الأمر يتعلق بالباشا وخليفته ومدير الديوانة ونائبه وكاتبين بالديوانة وقبطان الميناء و7 إلى 8 من قواد المخزن بطنجة إضافة إلى هدايا نقدية تقدم إلى بوابي الباشا ومدير الديوانة وقائد الألف. كما يذكر في نفس التقرير لائحة بأسماء من يتلقون الهدايا في العاصمة وفي طنجة:

"[...] في العاصمة تؤدى إلى السلطان وبن جلول وابن ادريس المختار والأمراء ومولاي الحسن وباشا طنجة ومدير الديوانة والقائد الأكبر للسلطان ورئيس المشور وكتاب البلاط الأربعة والقايد الجيلالي وقبطان العلم والقايد السفوري والقايد قاسم وزعيم الطائفة اليهودية وحرس السلطان والمتعهدين لفراشه وقائد الرماة [البنادق] وقائدي المشور والبستاني وقائد الفرق العسكرية.

وفي طنجة تؤدى الهدايا إلى الباشا والباشا القديم والمراكشي والمكلف بالأمن والكتاب ومدير الديوانة والأزدي والكندافي واليمني وقبطان الميناء وكتاب الديوانة والجيلالي كومندان الحرس [...] وتتكون الهدايا من أثواب الموسلين وأثواب هولاندا وبروطانيا وأثواب القطن والسكر والقهوة والشاي وقنينات الكحول [المشروبات الروحية] وأثواب الحرير وأواني القهوة والشوكولاطة وصوف الزرابي وأواني الفواكه والبنادق والمسدسات والسيوف وغيرها [...] "[11].

وفي كثير من الأحيان يضطر القنصل أو السفير البرتغالي إلى طلب المزيد من الهدايا والمال من دولته لسد حاجيات الأشخاص الكثيرين المستفيدين من هذه العطاءات كما وقع سنة 1790 عندما قدم السفير البرتغالي جاك فيليب دو لانديريسيت إلى المغرب ومعه هدية إلى

8ـ أنظر : عثمان المنصوري، العلاقات المغربية البرتغالية (1790 ـ 1844)، مطبعة فضالة بالمحمدية، 2005، الجزء الثاني، ملحق بملفات عن الهدايا العادية والاستثنائية. صص. 573-618.

9ـ نفسه .

10ـ نفسه، رسالة من القنصل العام جورج جوزي كلاصو إلى وزيره في الخارجية ماغاليايش، المراسلة 1،من طنجة بتاريخ 9 فبراير سنة 1841 ، ص 521 ـ 522 .

11ـ نفسه ، ملحق الهدايا، تقرير القنصل الفرنسي إلى دولته ،سنة 1838 ، ص 577-578 .

السلطان مولاي اليزيد وأحضر معه أيضا 8 آلاف بسيطة من أجل الوزراء ورجال البلاط والحكام ولكنها لم تكف ولذلك أرسل سفينة إلى قادس لإحضار 8 آلاف بسيطة أخرى [12].

2 ـ مشروع تحالف بين القناصل الأوربيين المقيمين بالمغرب:

في هذه الوثيقة المحررة باللغة الفرنسية، يظهر أن ممثلي الدول الأوربية قد ضاقوا ذرعا بممارسات موظفي المخزن المغربي التي ترهقهم بنفقات وأعباء تعوق نمو مبادلاتهم التجارية مع المغرب، ومما يبين ضخامة المشكل أنهم اجتمعوا وقرروا تقديم مقترح حلف مشترك إلى دولهم يسعى إلى ردع هذه الممارسات والوقوف ضدها وإرغام هؤلاء الموظفين على التراجع عنها. وتم توقيع هذا المشروع في 18 يونيو 1788 ووقع عليه قناصل الدنمارك وانجلترا والبرتغال وهولاندة وإسبانيا والسويد والبندقية وفرنسا، وتم إرساله إلى دولهم قصد المصادقة عليه. ويهمنا من هذا المشروع أن نتبين أن تجاوزات موظفي المخزن أصبحت تشكل عبئا على النشاط التجاري بين المغرب والدول الأوربية، التي بدأت تتضرر منها، وتسعى إلى الحد منها. ويكفي أن نستعرض بعض فقرات هذا المشروع ليتبين لنا أن جوهر المشكل يعود إلى تجاوزات موظفي المخزن:

"[...] إن سلطان المغرب يدرك جيدا أهمية المداخيل الكبيرة التي تدرها عليه الديوانة من تجارته مع أوربا. لكنه ـ ربما ـ لا يعلم أبدا أن هذه التجارة هي قليلة الأهمية، أو بدون نتيجة تذكر، بالنسبة لأي من هذه القوى.

إن التجارة مع المغرب أصبحت في تدهور قوي، وبدون نتائج، لدرجة أنه، يوما بعد يوم، يقع إهمال ونقص في الاهتمام والاحترام الواجبين للمعاهدات والاتفاقيات المبرمة بين الدول الأوربية والسلطان، والتي تحافظ عليها هذه الدول مقابل نفقات كبيرة جدا.

إن أهم أسباب هذه التحولات تعود إلى الانحراف في أهواء ومصالح وزراء السلطان الذين لا يلقون بالا لخدمة سلطانهم بإخلاص، ولا يأبهون للمصلحة العامة لدولتهم، ولا يكفون عن خلق وتدبير كل ما يظهر أنه موافق لمصلحتهم الخاصة على حساب مصالح الآخرين .

من أجل هذه الأسباب، ومن أجل النظر في وضع حد لهؤلاء الناس فإن القناصل يقترحون ما يلي : ...الخ "[13].

12ـ نفسه ، تقريرالأب أنطونيو مورا عن الهدية البرتغالية إلى سلطان المغرب سنة 1743، صص. 591-594.

13ـ نفسه، نص المشروع، صص. 25-28.

وجوهر الاقتراح أن يتكتل القناصل كلما تعرض أحدهم لممارسة لا تليق، ويبعثوا إلى دولهم لتقاطع الموانئ المغربية إلى أن يرضخ المغرب لمطالبهم ويرضي الدولة المتضررة. ويتبين من هذا التقرير / المشروع أن القناصل الأوربيين استاءوا جدا من سلوكات وممارسات الموظفين المخزنيين المغاربة، وذكروا بالتحديد الوزراء المغاربة الذين يفضلون مصالحهم الخاصة على مصلحة البلاد، ويتبين من شدة لهجة التقرير وتفكير القناصل في القيام بتحرك جماعي وإنشاء حلف للدفاع عن مصالحهم وإرغام المغرب على احترام اتفاقياته، أن المسألة وصلت إلى حد لا يطاق.

3 ـ مسألة الرياس الخمسة :

تتلخص هذه القضية في أن مولاي سليمان أراد في مستهل حكمه أن يبعث إلى القناصل من يخبرهم أنه سيحافظ على العلاقات الحسنة التي كانت لوالده مع دولهم، كما يتبين من رسالته المؤرخة ب 12 ماي 1792[14]، ولذلك أرسل بعض الرياس المغاربة لأداء هذه المهمة اعتقادا منه أنهم أقدر على ذلك بسبب مخالطتهم للأجانب ومعرفتهم بطرق التعامل معهم. لكن هؤلاء الرياس الخمسة[15]، طلبوا من القناصل أن يعطوهم "سخرتهم" وحين أعطاهم القناصل ما طلبوا رفضوه ولم يقبلوا به وأسمعوا القناصل كلاما قاسيا، مما دفع بهؤلاء إلى مراسلة السلطان والاحتجاج على هذه المعاملة. ويظهر من رسائل السلطان في الموضوع أنه لم يكن على علم بهذه المسألة، وأنه لم يقبل بها، ولذلك بعث يوبخ هؤلاء الرياس الخمسة، ويلوم قواد منطقة الريف الذين كان عليهم ـ حسب رسالة السلطان إليهم ـ أن يخبروه بحقيقة هؤلاء الرياس وأن ينصحوه بعدم إرسالهم إلى القناصل لأنهم أدرى بسلوكاتهم وأحوالهم، وبعث في نفس الوقت رسالة إلى الرياس يوبخهم ويعنفهم على سلوكهم ويطلب منهم رد ما أخذوه من القناصل، بل ورده بدون إظهار الغضب أو الاستياء[16].

وشبيه بموقف هؤلاء الرياس ما فعله ابنه الأمير مولاي علي في سنة 1821عندما رفض قبول هدية قنصلي فرنسا وإسبانيا بمناسبة عيد الفطر، ولعله استصغرها أو احتقرها مما أغضب والده الذي أمره بمغادرة طنجة فورا [17].

وقبل ذلك ـ في عهد السلطان محمد بن عبد الله [في7 مارس 1770] دفع القنصل 12 بسيطة إلى قائد وأربعة جنود بعثهم السلطان إلى قواد بعض الموانئ المغربية برسالة تتضمن أمرا بإعطاء "الفريشك" للمراكب البرتغالية ولكنهم رفضوا أن يأخذوا أقل من 23 بسيطة، ولم

14- ع.المنصوري، العلاقات...، م.م. الجزء الأول، الوثيقة رقم 58. ص. 428.

15- وليس الأربعة كما جاء في الرسالة، ولعلهم كانوا أربعة في البداية ثم اصبحوا خمسة .

16 ـ ع.المنصوري، العلاقات...، م.م. الجزء الأول، الوثائق رقم: 59و60و61. ص. 428-430.

17 ـ ع.المنصوري، العلاقات...، م.م. الجزء الثاني، رسالة القنصل إلى وزيره طوريش، بتاريخ 28 أكتوبر 1821، ص.311-312.

يقبلوا بما عرضه عليهم القنصل إلا بعد جهد جهيد وبعد أن وعدهم بإعطائهم هدايا أخرى بعد مجيء الوزير[18].

4 ـ قصة بلقاسم الزياني مع المحفزات المادية :

اخترنا بلقاسم الزياني لأنه شخصية قريبة منا، فهو المؤرخ الكبير صاحب كتاب الترجمان المعرب والترجمانة الكبرى وغيرها من المؤلفات، ولكنه كان في نفس الوقت خديما للسلطان، ويتضح من بعض الوثائق القنصلية أنه كان يستفيد من منصبه بل ويضغط للحصول على هذه الفوائد المالية.

في البداية لدينا مجموعة من المراسلات التي تبادلها مع القنصل من أجل الحصول على شقتين من الكتان المسمى الكبرية يتبين منها أن بلقاسم الزياني طلب من القنصل في البداية أن يعطيه شقة من ثوب الكبرية التي وصلت لحساب السلطان، فاعتذر هذا الأخير بأن ما وصل باسم السلطان معين ومحدد في صناديق خاصة لا يمكنه التصرف فيها. ثم عاود الطلب من جديد، وكرره في كل مناسبة، إلى أن تمكن من الحصول عليه. ويمكن أن نلاحظ من نصوص الرسائل أن الزياني يدعي أن الثوب للخدم، ولكن إلحاحه الشديد يعطي الانطباع أنه يرغب فيه لأغراض أخرى. ونلاحظ من جهة أخرى المدة الزمنية التي استغرقها في الإلحاح مما يدل من جهة على أن الطلب ليس سهلا ولا عاديا في قيمته، فقد بدأ الطلب في الرسالة الأولى بتاريخ:31 ماي 1800، وتوصل بغرضه في الرسالة الأخيرة بتاريخ 24 شتنبر 1801. أي ما يعادل سنة وثلاثة أشهر. وجملة الله يكثر خيرك التي سطرها في رسالته الأخيرة ـ وهي عبارة شاع استعمالها في هذا الشأن ـ تدل على أن المسألة مجانية وأن قيمة الثوب كبيرة. ويتأكد الإلحاح من عبارة ولابد التي تكررت في بعض هذه الرسائل. ثم يظهر من ثنايا سطور رسالة القنصل أن الأمر يتعلق بمحفزات مادية: يكفي الوقوف عند العبارات التالية:

" لانه كلما تقف فيه معنا من ما يكون هناك من امورنا فانا لا ننساه لك ولا نضيع لك فيه حقا عند اهل كورطينا ونحن على عهدك ومحبتك القديمة"

"فكن هنيئا منها ومن غيرها ان شاء الله فانا لا ننسا لك ذلك وعلي وفاؤه كما نوفي لك جميع ما تقف فيه من امورنا عند سيدنا نصره الله ونعرفك بمحبتنا ونظهر لك ما لبسه عليك الغير في جانبنا والخير والمقصود امام ان شاء الله "[19]

وبالإضافة إلى هذه المجموعة نجد في أرشيف القنصلية البرتغالية بطنجة تقارير ورسائل توضح بما لا يقبل الشك ضلوع بلقاسم الزياني في هذا النوع من الممارسات الهادفة

18 ـ نفسه، مراسلات القنصل لسنة 1778، ص. 7 .

19ـ نفسه، الجزء الأول، الوثائق رقم: 214و 217 و 218، صفحات: 532 - 536.

إلى الاستفادة من منصبه ومن الخدمات التي لا يكتفي فقط بتقديمها بل إنه يعرض بنفسه القيام بها ويضغط للحصول على مكافأة عنها.

وأوضح مثل على ذلك ما رواه القنصل من أن الزياني اتفق مع أحد البرتغاليين على استصدار أمر من السلطان من أجل تمكين البرتغاليين من أرض لبناء مجزرة عليها مقابل مبلغ 200 ريال. وعندما عاد التاجر الذي كان مكلفا من دولة البرتغال بمشروع بناء المجزرة إلى المغرب رفض ذلك واحتج بشدة لأن المملكة البرتغالية لا يمكن ولا يجب أن تعطي السخرة على مصالحها، وعندما استصدر القنصل نفس الأمر من السلطان أخذ الزياني يعرقل المشروع بأساليب متعددة ومنع البرتغاليين من تسقيف المجزرة مدعيا أن أمرا سلطانيا صدر بذلك.

وفي الرسالة التي بعثها القنصل إلى الوزير ابن عثمان اتهام صريح للزياني بأنه يضغط للحصول على السخرة[20]. وإذا كان القنصل البرتغالي قد اتهم الزياني صراحة في رسالته إلى الوزير ابن عثمان، فإنه في رسالته إلى مولاي سليمان تحاشى أن يتهمه صراحة ولكن ثنايا الرسالة تنضح بهذا الاتهام، فهو يذكر واقعة منع الزياني للبناء وأمره القايد بذلك بدون أن يظهر أوامر مكتوبة وواضحة من السلطان زاعما أن أمرا سلطانيا وصله بذلك، ثم يستغرب القنصل أن يكون الأمر قد صدر من السلطان الذي رخص له بالتسقيف قبل ذلك بوقت قصير، ويعرض بالزياني قائلا:

" ولاكن امثال هذا وأشباهه انما يقع من الذين يسعون بالفساد بين يدي سيدنا نصره الله وبين الراينة [...] ثم لما قال لي القايد المذكور رفعت يدي عنه لانه ذكر انه عن أمر مولانا ايده الله وما أظنه كذلك وانما هو من الذين يسعون في تخسير الخواطر من الجانبين ...الخ " [21].

ولعل هذه الحادثة التي تذكرها الرسالة قد أوقعت بعض الجفاء بين الزياني والقنصل، وقد لمح القنصل إلى ذلك في إحدى الرسائل التي تحدثنا عنها أعلاه حين قال: " **[...]ونعرفك بمحبتنا ونظهر لك ما لبسه عليك الغير في جانبنا والخير والمقصود امام ان شاء الله [...]**"[22].

5 ـ نماذج متنوعة:

بالإضافة إلى القضايا التي ذكرنا أعلاه، نجد في الأرشيف البرتغالي عددا من المراسلات والتقارير التي تؤكد حصول موظفي المخزن على هدايا متنوعة من القناصل الأوربيين

---

20 - نفسه، الجزء الأول، الوثيقة رقم 159، ص. 495-496.

21ـ نفسه، الوثيقة رقم 161، ص. 498.

22 - نفسه، الوثيقة رقم 217، ص. 534.

وتلقيهم مكافآت على ما يسدونه من خدمات، ويمكن أن نتبين ذلك من استعراض عينات من هذه النماذج:

- **هدايا الباشا:** من خلال الاطلاع على مصاريف القنصلية البرتغالية ومقارنتها بمصاريف القنصليات الأوربية الأخرى نلاحظ أن الباشا مثلا يحصل في الأعياد الثلاثة على هدايا تقدر قيمتها بما يزيد كثيرا عن الراتب المخصص لهؤلاء القناصل أنفسهم أي ما بين 4000 و5000 بسيطة بدون الحديث عن السخرة والمكافأة وهدايا العودة من السفر والتعيين في المنصب. وللمقارنة فإن قنصل إسبانيا وسردينية كانا يتقاضيان من دولتهما 3000 بسيطة سنويا، وقنصل فرنسا 3725 والبرتغال 1332 بسيطة[23]. وهذا بدون أن نحسب الطلبات والمقضيات والأغراض التي يطلبها الموظفون المخزنيون من القنصل. كما نجد في هذه التقارير قيمة الهدايا التي قدمت إلى الوزير المغربي بمناسبة زياراته لطنجة فقد حصل مثلا في ما بين سنتي 1810 و 1812 على هدايا بقيمة 200 ثم 156 ثم 110 بسيطة خلال ثلاث زيارات قام بها إلى طنجة[24].

- **الطلبات الخاصة** : وهي تلك التي تتم بناء على طلب من رجال المخزن، وهي في الغالب تتخذ شكل هدية مقنعة لأن إدراجها في حساب النفقات التي تمت على يد القنصل يؤكد أن اصحابها لم يدفعوا مقابلا عن ثمنها ، فهي شيء مثل الهدية أو السخرة أوالتسبيق الممهد لقضاء أغراض في المستقبل أو مكافأة مبطنة على قضاء أغراض للقنصل، ولربما هي من باب جلب الرضى الذي يجر معه المنفعة إن آجلا أو عاجلا، ومن هذه الأمثلة: في 22 يوليوز 1777، بعث القنصل إلى الأمير مولاي علي، وبناء على طلب منه، الشاي والسكر بقيمة 20.5 بسيطة[25]. وفي سنة 1782، وصلت بعض المشتريات التي أرسلت إلى الباشا عشعاش وتتضمن الشاي والسكر وثوب الكمبراية الذي كان قليلا في السوق وغاليا بسبب الحرب[26]. وفي سنة 1797، بعث الأمير مولاي الطيب إلى القنصل في طلب شيء من **"سكنجبير المرقد مع شيء من الجوزة المرقدة"**، ولكن القنصل اعتذر بعدم وجودها لديه وبعث إلى لشبونة لإحضارها[27]. وفي سنة 1798، بعث القنصل إلى الطاهر بن عبد الحق فنيش نصف ما كان بمنزله من الشاي والسكر بناء على طلبه[28].

---

23 _نفسه، الجزء الثاني، ملف الهدايا والنفقات القنصلية، صص. 573-580.
24_ نفسه ،حساب مصاريف القنصلية لسنوات 1810 ، و 1811 و 1812 صص. 327-330.
25 _نفسه، حساب مصاريف سنة 1771، ص. 9 .
26 _ نفسه ، الجزء الأول، الوثيقة رقم 15، ص. 396.
27 _ نفسه ، الوثيقة رقم 176، ص. 506 .
28 _ نفسه ، الوثيقة رقم 197، ص. 517 .

وفي رسالة بعثها خديم السلطان محمد بن الحاج إلى القنصل سنة 1802، يتبين أنه تلقى صلة القنصل [هديته] على يد نائبه مالك القجيري،وشكر القنصل قائلا : " **كثر الله خيرك وجزاك عنا ...**"، وطلب منه فوق ذلك شيئا من الشاي والسكر لأنه "**لم يبعث لأي قنصل آخر غيره ...**"[29]. وقد أجابه القنصل بأنه لا يتوفر في منزله على الشاي والسكر ولكنه سيبعث به إليه بمجرد توصله به من بلده وطمأنه قائلا: "**... كن مطمئن البال لأجله فإنه على رأسي...**"[30].

وفي سنة 1807، أحضر القنصل من البرتغال مجموعة من المشتريات لحساب السلطان وأخرى لحساب وزيره، ثم بعث في طلب أخرى في نفس السنة، كما أحضر في دجنبر من نفس السنة عددا من المشتريات المتنوعة للوزير الأول المغربي من جبل طارق بقيمة 51 بسيطة، ومثلها للأمير مولاي عبد السلام بقيمة 96 بسيطة[31]. ووصل بتاريخ 11 فبراير 1815 صندوق يحتوي على ستة ربعات من الشوكولاطة كان الوزير الأول المغربي قد طلبها من البرتغال[32]. وفي سنة 1818، بلغت قيمة الطلبات التي قضاها القنصل لعدد من المغاربة: 140 بسيطة و9 ريالات[33].

_ **السخرة وما شابهها:** توجد في الأرشيف البرتغالي رسائل تؤكد تعامل موظفي المخزن بالمقابل عما يؤدوه من خدمات، وهو ما كانوا يعبرون عنه بالسخرة والأمانة والحق والمسألة والغرض. ولا يتسع المجال لتتبع كل ما كتب ويكفينا أن نقتطف من هذا الأرشيف بعض العبارات والإشارات الدالة التي يمكنها أن توضح لنا الرؤية:

في سنة 1773بعث الوزير المختار بن عبد الله للقنصل البرتغالي جورج كولاصو يؤكد له أنه وقف معه في الحصول على5آلاف قنطار من القطنية و10 آلاف من الزرع ويعبر له عن استعداده لقضاء أغراضه، ويطلب منه أن يبعث له سخرته جيدة ولا بد مع حامل الكتاب وكذلك يعطي لحامل الكتاب سخرته أيضا،ويرجوه أن يكتب له بالذي أعطاه [34].

بعث العربي الحدراني إلى قنصل البندقية يعاتبه على عدم إرساله أي شيء نظير ما قضى له من غرض لدى السلطان قائلا: "**... أنا مخاصم معاك خصومة كبيرة** "، وذكر في رسالته أن القنصل يسوفه ويماطله ولم يبعث له "**...لاشاي ولا سكر ولافضة ولا ريال** " وإنما بعث له الكاغد [35].

---

29 _ نفسه ، الوثيقة رقم 245. ص. 550.
30 _ نفسه ، الوثيقة رقم 247. ص. 552.
31 _ نفسه ، الجزء الثاني، ص. 324.
32 _ نفسه ، ص. 275ص .
33 _ نفسه ، ص. 282-283.
34 _ نفسه ، الجزء الأول، الوثيقة رقم 4. ص. 387-388.
35 _ نفسه ، الوثيقة رقم 21، ص. 400.

عندما ألح باشا طنجة في سنة 1792 على القناصل ليدفعوا له مبلغ 1000 بسيطة الذي طلبه السلطان مولاي سلامة منهم، عمل القنصل البرتغالي على التخلص من إلحاح الباشا، بأن أهداه بعض أثواب الكتان والشاي والسكر لتأجيل الدفع في انتظار معرفة ما ستسفر عنه الأحداث[36].

في سنة 1795، قدم القنصل هدية إلى مولاي الطيب ليساعده في إقناع أخيه مولاي سليمان بتمكين البرتغال من وسق القمح من أسفي والجديدة، وأفهمه أن دولته ستشكره على مساعدته [بواسطة هدية أخرى]. وطلب الأمير أن تؤدى له 80 ريالا عن كل فانيقة كمكافأة. لكن القنصل اعتذر له وأفهمه أن التجار سيضعون في الاعتبار ما سيتلقونه من مساعدات وخدمات طيبة وسيشكرونه عليها بالشكل الذي يسر سموه. وطبعا _ يقول القنصل _ إذا حصلنا على امتياز مماثل لما تحصل عليه إسبانيا، سيكون علينا أن نقدم له هدية تتناسب مع الربح الذي سنحققه[37]. وقد قدم القنصل البرتغالي هدية خاصة إلى باشا طنجة لإقناعه بطلب ترخيص من السلطان بتصدير الثيران للبرتغال[38]. وفي السنة الموالية كتب القنصل إلى الوزير محمد بن عثمان يطلب منه الوقوف معه فيما طلبه من السلطان، قائلا بأنه لا زال "**متفكرا إحسانه وما أسداه من المعروف**"، ومضيفا: "**... بحيث لا يضيع لك أمر في جنابنا** "[39].

ويظهر من بعض العبارات التي جاءت في رسالة أخرى من القنصل البرتغالي إلى نفس الوزير نوع من التورية عن هذا النوع من المكافآت أو الوعود بدفعها مقابل الخدمات المطلوبة، حيث يقول : " **بارك الله لنا في عمرك وأعاننا على مكافأتك ... فالمطلوب منك تقف معنا في هذا الأمر فلا نقصر معك** ..." وفي العبارتين تلميح إلى أن القنصل سيكافئ الوزير على مساعدته[40].

وفي حساب نفقات القنصلية لسنة 1809 نجد إشارة إلى هدية بقيمة 500 بسيطة قدمت للوزير الأكبر المغربي مكافأة له على تدخله الفعال من أجل الحصول على ترخيص لصالح البرتغال، والترخيص المشار إليه هو من أجل وسق 2000 ثور و20 ألف فانيقة من القمح للبرتغال. والمبلغ ليس هينا، إنه 6 أو سبعة أضعاف قيمة الهدايا التي كان يقدمها القنصل في العيد للباشا وباقي موظفي المخزن بطنجة[41]

36 _ نفسه ، الجزء الثاني، المراسلة رقم 11، بتاريخ 26 مارس 1792، من القنصل إلى الوزير كوتينيو، ص. 57 .

37 _ نفسه ، المراسلة رقم 9، بتاريخ 10 يونيو 1795، ص. 102.

38 _ نفسه ، المراسلة رقم 10، بتاريخ 22 يونيو 1795، ص. 105-106 .

39 _ نفسه ، الجزء الأول، الوثيقة رقم 93، ص. 452.

40 _ نفسه، الوثيقة رقم : 168، ص.502-503.

41 - نفسه ، الجزء الثاني، المراسلة 18، حساب نفقات القنصلية، ص.326.

ويبدو من بعض الوثائق والمراسلات أن القنصل البرتغالي كان واعيا بضرورة تقديم الرشاوى والهدايا، لأن رفض تقديمها سيعرقل لا محالة مصالحه ففي سنة 1798_على سبيل المثال _ استغل الباشوات غلاء أسعار القمح في الجديدة وأسفي للحصول على هدايا لأنفسهم. وكتب القنصل البرتغالي إلى دولته قائلا:

"[...] إنهم تعودوا على هذا السلوك في مثل هذه الحالات، فمن جهة يظهرون تطبيقهم لأوامر السلطان، لكن بقيود، بحيث لا يطبق منها في واقع الأمر شيء. وعلى الرغم من هذا السلوك المعروف والمتسم بالطمع من طرفهم فإنه من المناسب إرضاؤهم بأية طريقة. وفي حالة العكس فإن باستطاعتهم إثارة غضب العامة والقيام بعدد من المناورات التي يمكنها في مناسبات كهذه أن تدفع السلطان إلى إلغاء الامتياز الذي تم الحصول عليه[...]"[42].

وبما أن القنصل خبر هذه الأساليب عدة مرات فإنه نبه التجار البرتغاليين منذ البداية عندما بعث إليهم الأوامر الملكية (السلطانية) من فاس، إلى ما يجب عليهم عمله. ويظهر أنهم تمكنوا ـ اعتمادا على هذه الوسيلة الضرورية ـ من وسق ما يحتاجونه بدون مشاكل.

وكما أشرنا إلى ذلك أعلاه فإن ما كان يقدمه القنصل من خدمات وما يشتريه من طلبات، تقابله من الطرف الآخر خدمات وتدخلات لصالح دولة البرتغال، ويبدو هذا بوضوح من خلال بعض المراسلات، ومنهاعلى سبيل المثال، رسالة كتبها القنصل البرتغالي إلى الوزير السلوي يخبره بوصول ما طلبه من لشبونة : "[...] **ناموسية جيدة غاية بغطاءيها وكسوتها في غاية ما يكون من الإتقان والتزويق داخل صندوق، وأيضا الشوكولاطة الجيدة الطيبة الرائحة وأيضا 2 اغناسي من المشمع كما امر مبطنين بالملف[...]"** وفي المقابل طلب منه أن يعمل جهده وطاقته في إصدار أمر السلطان على المسائل التي طلبها البرتغاليون باسم أميرهم والجواب عنها إيجابا "[...]**بما يجبر الخواطر ويزيد محبة على محبة[...]"**[43].

وفي الوثائق البرتغالية معلومات عن الدور الذي لعبه بعض الوزراء المغاربة لصالح دول أجنبية مقابل ما تلقوه من أموال، ولعل أبرز مثال على ذلك ما ذكره القنصل البرتغالي عن الوزير المغربي ابن عثمان، حيث أكد انه لعب في اتفاق الصلح الذي تم بين المغرب وإسبانيا سنة 1799 كما شاء بهدف أن يكون لصالح إسبانيا، وأن القسم الأعظم من الاتفاق لم يصغ بالذكاء الذي يضمن تطبيقه، وأنه تلقى لقاء ذلك مبلغا ماليا من حكومة مدريد [44].

---

42 ـ نفسه ،الجزء الثاني، المراسلة رقم 19، بتاريخ 20 غشت 1798، ص.186 .

43 ـ نفسه ، الجزء الأول، الوثيقة رقم 262، ص. 561 .

44 ـ نفسه ، الجزء الثاني، المراسلة رقم 4، بتاريخ 20 شتنبر 1801، ص. 248.

لقد ترسخت لدى القنصل قناعة بأن الرشاوى والعمولات والسخرة التي يدفعها للمغاربة لتذليل الصعاب وتيسير الحصول على الامتيازات أمر ضروري، ولا بد منه، ولا يمكن تجنبه لمن يرغب في تحقيق مصلحة ما في المغرب. وكرر ذلك في عدد من المناسبات. وأوضح ما قاله في هذا الصدد، ما جاء في إحدى مراسلاته، حيث يقول:

"[...] من الضروري استمالة السلطان الجديد [م ابراهيم] وكل الأعيان من حكومته الذين بإمكانهم أن يكون لهم تأثير في المفاوضات، لذلك من الضروري الإسراع بتقديم العطاءات المعتادة، ومن غير هذه العطاءات لا شيء مطلقا يمكن أن يتم في هذا البلد" [45].

كما جاء في مراسلة أخرى بأن الراتب المخصص له لا يكفي لأن المغرب يتميز عن غيره من دول أوربا بوجود نفقات استثنائية خاصة لا بد منها، وبدونها لا يمكن تحقيق أي نجاح لمصالح الدولة البرتغالية[46]. وفي مناسبة أخرى يقول:

"[...]إن الحكام المغاربة ورعاياهم يكونون فكرة حسنة أو سيئة عن الدول الأجنبية، من خلال ما يلاحظونه من اهتمام أو إهمال لممثليها. لأنهم من الرؤساء إلى أقل فرد لا يعرفون ولا يقدرون إلا مصلحتهم [...] إن هذه العلاقات معرضة لأكبر المشاكل عند أقل خطإ أو إهمال يمكن أن يقع فيه ممثلها عند تقديم الهدايا المعتادة إلى الأعيان ورجال السلطة بالبلاد في الأوقات المناسبة، خصوصا إذا كانوا في خدمة من طرف السلطان[...]"[47].

وهو عندما برر لدولته الهدايا التي قدمها للباشا في سنة 1777، ذكر أنه يقدمها ليضمن دوام رضاه [48]. وفي هذه العبارات الأخيرة غنى عن كل تعليق عن أهمية هذا النوع من المحفزات المادية.

لقد استعرضنا في هذه المساهمة نماذج متنوعة توضح بعض جوانب الخلل في علاقة مستخدمي المخزن مع ممثلي الدول الأوربية، لدرجة يتم فيها أحيانا تفضيل المصلحة الخاصة على المصلحة العامة، وعرقلة النمو الطبيعي للعلاقات بين المغرب وهذه الدول. وتبينا كيف أن هذه الممارسات المختلة فرضت نفسها حتى على ممثلي الدول الأوربية الذين تعاملوا معها كواقع لا يمكن تجاوزه ، وساهموا في استشراء هذا الفساد بما كانوا يقدمونه من هدايا وأموال ويقضونه من أغراض لإرضاء هذه النخبة من المستخدمين بغية قضاء أغراضهم ومصالحهم .

45 _ نفسه ، الجزء الثاني ، المراسلة رقم 3، بتاريخ 4 مارس 1821، ص.302. .

46 _ نفسه ، المراسلة رقم 20، بتاريخ 24 دجنبر 1822، ص. 335. ص .

47 _ نفسه ، المراسلة رقم 3، بتاريخ 19 يناير 1824، ص. 349.

48 _ نفسه ، المراسلة رقم 1، مصاريف القنصلية لسنة 1774، ص. 12..

وإذا كان الاستعراض قد طغى على هذه المساهمة، فمرجع ذلك إلى أن معظم ما قدمناه من وثائق يتسم بالجدة، ونترك لباقي الباحثين أن يتعاملوا معه من حقول تخصصهم المتنوعة، ولذلك أدرجنا عددا من هذه الوثائق في الملاحق المرفقة بهذه المساهمة.

الحمد لله وحده   صلى الله على سيدنا محمد وءاله وصحبه

كافة قواد خدامنا اهل الريف سلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فاعلموا
ان الرؤساء الخمسة الذين وجهنا للفونصوات لتفرقهم فقد افترقناهم عن غيرهم
من خدامنا ظنا منا انهم يحسنون مخاطبة النصارى والملاقات معهم وتكون
نفوسهم وهممهم عالية عن الطمع فيهم والتشوف اليهم وبعد ان يعطونهم النصارى
شيئا الا يقبلونه منهم فاذا بهم هم الذين طلبوا منهم العطاء وما اعطوا لهم
لم يقنعوا به ويسمعونهم كلاما الموهم به وكان الواجب عليكم حيث لم تكن
فائدة في الرؤساء لتنبهوهم انتم وتقولوا لهم هذا لا يناسبكم وتمنعونهم من
الكلام معهم في هذا المعنى وتذكروهم تخوفهم بان ذلك لا يخفى عليكم
فانكم عارفون بطرق النصارى من كثرة ممارستكم معهم وعين الاسلام لا
يناسبه اهله الا ان تكون يدهم هي العليا فهذا تعريف وتقصير وقع
منكم ومنهم والسلام عاشر شوال المبارك عام 1206

رسالة لوم من مولاي سليمان إلى قواد الريف

مــلاحــق البحث.

الملحق رقم 1: تقرير عن العطاءات التي قدمها الوفد البرتغالي للمغاربة خلال سفارة سنة 1773 .

تقرير عن العطاءات التي قدمت لكبار الشخصيات ورجال البلاط المغربي وغيرهم من المرافقين للوزير المفوض من جلالة الملك البرتغالي والقنصل العام .

التاريخ	المستفيد	المبلغ بالبسيطة
1773/10/26	ـ باشا مدينة الصويرة	1008
	ـ قبطان وموظفو الميناء	150
	ـ خمسة أمناء : الحاج أحمد ابراهيم ومحمد سكيرج وسيدي العربي وسيدي الطاهر وسيدي محمد "الشرقي"	250
	ـ موسيقيو السلطان	30
	ـ مدفعيو الحصن "مقابل تحيتهم "	30
. 11 / 8	ـ 15 قائدا "10 بسيطات لكل واحد "	150
	ـ 85 فارسا قدموا مع القادة المذكورين لمرافقة الوفد "5 بسيطات لكل واحد "	425
	ـ القايد قدوس وأصدقاؤه	100
	ـ 20 مغربيا مرافقا لقبطان الميناء " 4 بسيطات لكل واحد منهم "	80
	ـ 25 بوابا من خدم السلطان الخاصين "4"	100
	ـ ستة جنود رافقوا الخيول الستة التي بعثها السلطان هدية إلى الملك البرتغالي	24
	ـ 40 شخصا من حامية الصويرة الذين رافقوا الهدية البرتغالية مشيا على الأقدام	120
	ـ الطباخ الذي أمره السلطان بخدمة السفير	120
	ـ الوزير المفوض البرتغالي	100
	ـ أربعة مساعدين للطباخ المغربي " 10 بسيطات لكل واحد منهم"	40
	ـ بعض النجارين	20

_ سبعة جنود مرافقين لكرسي الوزير المفوض . 56

_ الأمير سلامة " 3 قضبان ذهبية بقيمة 100 ألف ريال لكل واحدة " 300000 ريال

_ الأمير عبد السلام " نفس الهدية " 300000 ريال

_ القايد بوعزة نظير خدماته بالصويرة 10

_ 74 مغربيا الذين رافقوا الهدية من الصويرة إلى مراكش بدون أن يتلقوا أية مكافأة " 4 بسيطات لكل منهم " 296

_ الباشا ابن عمران الذي عين لاستقبال السفير ومرافقة الهدية مع فرقة من الفرسان 1000

_ مولاي عبد السلام المفاوض المغربي في إبرام اتفاق الصلح " 4 قضبان ذهبية بقيمة 100 ألف ريال لكل منها " 400000 ريال

_ نفس الأمير 2000

_ الحراس الذين حضروا الاستقبال الملكي 50

_ الفرسان 50

_ حاملو المظلة 16

_ حاملو الرماح 24

_ الرماة حاملو البنادق المذهبة 47

_ سائقو عربة السلطان 30

_ المكلفون بالمهماز 5

_ حامل السيف 5

_ القايد موسى ورفاقه المكلفون بالملابس 60

_ حاملو كرسي السلطان 8

_ حاملو الماء 12

_ المغربي الذي أعلم السلطان بوصول المركب ورسوه . 40

_ قائد المدفعية 20

_ خدم الأمير وحاشيته 80

_ بوابو القصر 80

_ القائد مبارك 20

_ القايد رضوان والقايد غارسيا 54

ـ القايد حميد	20
ـ 35 من خدم السلطان العاملين داخل القصر	196
ـ متعهدو حدائق السلطان	40
ـ الثلاثة الذين يقدمون الشاي للسلطان	35
ـ خدم الباشا ابن عمران	50
ـ حاملوا الاسطرلاب إلى السلطان	20
ـ أربعة ممن مرافقي السلطان ورفاقه: قدوس وأحمد ويهوديان.	
ـ رقاصان بعثهما السلطان	80
ـ القايد باجوهو (Bajuho)	12
ـ طباخان صغيران	25
ـ حاملو ساعة السلطان	40
ـ ثلاثة حراس شخصيين للسلطان يحملون بندقية مذهبة	20
ـ ثلاثة من سائسي الخيول	25
ـ القايد علال صاحب مفاتيح الخزينة	18
ـ القايد " العربي " ابن الباشا (Laber)	50
ـ الشريفان مولاي الكبير ومولاي عبد المالك	50
ـ القايد عبد الله الزرهوني ورفيقان له	46
ـ القايد قدوس برنوس	32
- القايد (Rilette)	16
ـ عدد من المغاربة الذين حملوا هدايا السلطان والأمراء	20
ـ شريفان : من أقرباء السلطان	15
ـ قاضي أسفي وكاتب المفاوضات	60
ـ كاتب الباشا	100
ـ القايد " عزوز" (Azuf)	40
ـ القايد " الطاهر" (Tagar)	100
ـ كتاب الأمير مولاي عبد السلام	14
ـ الكاتب الذي أحضر "الإذن " بدفن السفير	600
ـ الطباخ الأول للسلطان	50
ـ خدم الأمير الذين ساقوا العربة التي بعثها هدية	100

للبرتغال والشريف الذي أشرف على إرسالها .

		144
	_ القائد "لعنبر" من قادة جيش العبيد	25
	_ حراس	35
	_ بستانيو الحديقة التي أقام بها الوفد	57
	_ خادمان للأمير مولاي عبد السلام ساهما بفعالية لإنجاز الاتفاقية	60
	_ حراس الحديقة	20
	_ صمويل سنبل الذي له نفوذ كبير في الشؤون الخارجية	60
	_قاضي أسفي،فقيه وكاتب ومحرر الاتفاقية: ثلاث مرات فوق ما تقاضاه في الأعلى	900
	_ القايد سعيد حاكم منطقة عبدة الذي قدم من بلاط مراكش مع 20 جنديا لمرافقة الوفد إلى أسفي .	
		205
1774/1/1	_ خادمان لمولاي عبد السلام قدما من سلا ومعهما إذن من السلطان بوسق الخيول المهداة للملك البرتغالي	20

الإمضاء : مانويل دا سيلفا [49].

الملحق رقم 2 : رسالة مولاي سليمان إلى القناصل الأوربيين .

الحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله

كافة القونصوات السلام على من اتبع الهدى وبعد فاعلموا ان الاربعة من خدامنا الرياس الواردين عليكم بعثناهم اليكم وامرناهم يذكرون لكم ان قدمنا على قدم سيدنا الوالد رحمه الله وسيرتنا السعيدة على سيرته فنحن مع جميع اجناس النصارى الصبنيول وغيرهم على الحالة التي كانوا عليها مع سيدنا الوالد رحمه الله فمن كان من اجناس النصارى باقيا على الحالة التي كان عليها مع سيدنا الوالد وسالكا ذلك المسلك وسبيله راى منا بعون الله ما كان يراه من والدنا في جميع اموره ومن تحول من ذلك واراد ان يسلك طريقا اخرى فالله سبحانه ناصر دينه

49_ Brandao (C) , Substidios para a Historia Diplomatica portuguesa: O tratado Luso - Marroquino de 1774, a revista Studia , volume 32 , p / 366 -369.

وشريعته ونحن بالله معتصمون وعليه متوكلون وفي عشرين من رمضان المعظم عام 1206 [الموافق 12 ماي 1792] [50].

الملحق رقم 3: رسالة مولاي سليمان إلى الرياس الخمسة .

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وءاله وصحبه

الى الرياس بن مبارك وابراهيم لبارس وعلي التركي والحنصالي والسبيع.

اما بعد فكيف بكم حتى اننا تخيرناكم من ساير خدامنا ووجهناكم لتغر طنجة لقضاء امورنا ومن جملة ذلك الكلام مع القونصوات ظنا منا على ما نعتقده من مروءتكم وطول خدمتكم مع سيدي الوالد رحمه الله ومتعني برضاه في البر والبحر وظهر لنا انكم انتم اولى واحق من غيركم في الكلام مع النصارى لانكم تعرفون مخاطبتهم وملاقتهم وكان اعتقادنا انكم لا تتشوف انفسكم للطمع فيهم ولا تقبله همتكم ولو ارادوا ان يعطوكم شيئا عن طيب انفسهم لكان الواجب عيكم ان لا تقبلوه منهم وتكون همتكم أعلا من ان تقبضوه منهم . ثم انكم بلغ بكم الحال الى ان تكونوا انتم الذين تطلبون منهم العطاء وتحضون عليهم فيه ويسمعون منكم الكلام الفاحش عليه فهذا انقص من قدركم ولا نرضه لأصغر منكم فكيف بكم والان ردوا لهم ما اعطوكم ولا تبقوه عندكم ولا تردوه بسخط يفهمونه منكم فداركوا معهم ما افسدتم بما فيه صيانة لمروءتكم حتى تنفصلوا بما يناسب مرتبتكم والسلام . عاشر شوال عام 1206 [الموافق ل 1 يونيو 1792] [51].

الملحق رقم 4: رسالة مولاي سليمان إلى القناصل الأوربيين .

"... الحمد له وحده ولا حول ولا قوة الا باللع العلي العظيم

كافة القونصوات المستوطنين ثغر طنجة، سلام على من اتبع الهدى

اما بعد فقد بلغنا كتابكم وعرفنا جميع ما فيه وما ذكرتموه على الرؤساء الذين وجهنا اليكم إعلموا أن كل من يرد عليكم من عندنا لا نجعل له سبيلا عليكم ولا نجعل له تشوفا الى أخذ شيء منكم فإن كل من نوجهه اليكم إما ان نعطيه من عندنا ما فيه كفاف

50_ ع.المنصوري ، العلاقات.. ، الجزء الأول، الوثيقة رقم: 58 ص. 428.

51_ نفسه، الوثيقة رقم: 59 ص. 428-429 .

له وهآؤلاء الرؤسآء الذين وجهنا اعطيناهم عطاء جزيلا يقطع نظرهم عنكم وعن غيركم في وجهتهم التي وجهنا لتلك الناحية وان علمنا على من يرد عليكم ويروم منكم إعطآء شيء يناله بحول الله وقوته ما يكون فيه عقاب له وانزجار وادب لغيره وأنتم يجب علينا البرور بكم من وجوه شتى منها انكم في ايالتنا وفي ضيافتنا ما دمتم في بلدنا والاحسان للاضياف مما اتفق عليه جميع الملل ومنها انكم منقطعين عن بلدانكم ومغربين عنها لاجل مصالح بلدنا وبلدانكم فنجب مراعتكم لذلك اتم المراعات ومنها انكم من عظمآء اجناسكم وكبراء بلدانكم وكل واحد ينزل منزلته ويعرف فيها قدره ولا يهضم معها حقه وانتم ما دمتم في بلدنا فإنكم في كفالة الله تعالى وكفالتنا فلا ينالكم بحول الله وقوته مكروه ولا تروا منا ان شاء الله إلا ما يسركم ويرضيكم والسلام عاشر شوال المبارك عام1206"[52].

الملحق رقم 5 : رسالة مولاي سليمان إلى قواد منطقة الريف .

"... الحمد لله وحده صلى الله على سيدنا محمد وءاله وصحبه

كافة قواد خدامنا اهل الريف سلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد فاعلموا ان الرءسآء الخمسة الذين وجهنا للقونصوات لتغر طنجة قد اخترناهم عن غيرهم من خدامنا ظنا منا انهم يحسنون مخاطبة النصارى والملاقات معهم وتكون نفوسهم وهممهم عالية عن الطمع فيهم والتشوف اليهم وبعد ان يعطوهم النصارى شيئا لا يقبلونه منهم فاذا بهم هم الذين طلبوا منهم العطاء وما اعطوه لهم لم يقنعوا به ويسمعوهم كلاما آلموهم به وكان الواجب عليكم حيث لم تكن فائدة في الرؤساء لنبهتم انتم وقلتم لهم هذا لا يناسبكم ومنعتموهم من الكلام معهم في هذا المعنى وحذرتموهم وانذرتموهم فان ذلك لا يخفى عليكم فانكم عارفون بطرق النصارى من كثرة ممارستكم معهم ودين الاسلام لا يناسب اهله إلا ان تكون يدهم هي العليا فهذا تفريط وتقصير وقع منكم ومنهم والسلام . عاشر شوال المبارك عام 1206 هـ ."[53] .

52ـ نفسه، الوثيقة رقم: 60 ص. 429-430 .

53ـ نفسه، الوثيقة رقم: 61 ص. 430 .

الملحق رقم 6 : مبيضة جواب لكاتب الأوامر الشريفة الفقيه الأجل السيد بلقاسم الزياني في 7 من المحرم 1215[31 ماي 1800]

محبنا الامجد وخلاصة ودنا الاسعد كاتب الاوامر الشريفة الفقيه الاجل سيدي بلقاسم بن احمد الزياني سلام عليك ورحمة الله ومزيد خاطر سيدنا المنصور بالله وبعد وصلني الاعز كتابك وتعرفت بجميع ما ذكرت لي فيه وفرحت كثيرا لما انت بخير ونحب دائما ان تكون بخير وما ذكرت على المكانتين فكن مطمئن البال منهما وما ذكرت على الشقتين فلا سبيل الى ذلك من هنا لان جميع ما جاء من ذلك كله في صنادقه وكذلك يصل لحضرة سيدنا كما جاء ولاكن انا نكتب عليها مع أول من يتوجه وباثر ما ترد علي نوجه بها اليك ان شاء الله من غير تاخير ولا امهال اذ ما عندي اعز من الوقوف في قضاء ما يكون من اغراضك من غير جميل لانه كلما تقف فيه معنا من ما يكون هناك من امورنا فانا لا ننساه لك ولا نضيع لك فيه حقا عند اهل كورطينا ونحن على عهدك ومحبتك القديمة والسلام[54].

الملحق رقم 7 : رسالة من بلقاسم الزياني إلى القنصل البرتغالي

الحمد لله وحده

ولا حول ولا قوة الا بالله

صاحبنا جرجي كلاصوا قونصوا البردقيز سلام على من اتبع الهدى

اما بعد فقد وصل كتابك لحضرة مولانا نصره الله وقراناه عليه وجوابه يصلك مع الحامل وكنا وجهنا لك من عندنا جواب الكتاب الذي وجهت لنا ولم تذكر لنا هل وصلك أم غيبه القايد ولم تكتب لنا من عندك هذه المرة ولا بد تعرفنا بما كان وكنا كتبنا لك على شقة من الكرية للخدام بالدار فما اجبت ولعل الكتاب لم يصلك عرفنا ولا بد والسلام في 18 محرم 1215 [11 يونيو 1800][55].

الملحق رقم 8 : جواب القنصل على الرسالة السابقة

الحمد لله وحده

وصلى الله على سيدنا محمد وءاله وسلم

وزير الحضرة العلية ومنتهى أوامرها الشريفة السنية الفقيه الاجل الماجد الافضل سيدي بلقاسم بن احمد الزياني سلام عليك ورحمة الله عن خير سيدنا ايده الله وبعد وصلني

54ـ نفسه، الوثيقة رقم: 214. ص. 532-533 .

55ـ نفسه، الوثيقة رقم: 216 ص. 533 .

الاعز كتابك وفرحت كثيرا لما انت بخير وما ذكرت على البراءة التي ذكرت لي فيها على شأن الكيرية لخدام الدار وذكرت لي انني لم اجاوبك عنها وانك بقيت مشوش الخاطر هل بلغتني او بقيت بيد القايد اعلم محبنا ليهنأ خاطرك من أجلها فقد وصلتني مع صاحبي عبد الله مطبوعا عليها كما خرجت من عندك وقرأتها وعرفت ما فيها وأجبتك عن ذلك كله مع القايد عبد السلام الواصل اليكم مع الكيرية لسيدنا نصره الله واما الكيرية التي كتبت لي عليها لخدام الدار فإنها على بالنا فكن هنيئا منها ومن غيرها ان شاء الله فانا لا ننسا لك ذلك وعلي وفاؤه كما نوفي لك جميع ما تقف فيه من امورنا عند سيدنا نصره الله ونعرفك بمحبتنا ونظهر لك ما لبسه عليك الغير في جانبنا والخير والمقصود امام ان شاء الله وما ذكرت من عدم كتبنا لك هذه المرة مع الرقاص سببه انه ذكر لنا انك سافرت من حضرة سيدنا نصره الله في قضاء بعض الاغراض المولوية لا غير وهذا ما اوجبه ونحن على عهدك والسلام في 26 من المحرم فاتح عام 1215 [21 يونيو 1800]

جورج كلاص قنص جرال البردقيز بطنجة [56]

الملحق رقم 9 : رسالة من بلقاسم الزياني إلى القنصل البرتغالي

الحمد لله وحده ولا حول ولا قوة الا بالله

صاحبنا القونصوا جرجي كلاصوا سلام على من اتبع الهدى اما بعد فقد وصلنا كتابك وعرفنا ما ذكرت لنا فيه ونؤكد عليك ان تحرص لنا في المكانة التي ذكرت لنا انها بجبل طارق وبعثت عليها ثم لم يظهر لها خبر ولا بد تكتب لنا عليها ولابد ولابد والكتاب الذي كتبت لك عليه تعزم ببعثه ونحن على ما تقدم من المغرفة والسلام في 10 صفر 1215 [2 يوليوز 1800] [57].

الملحق رقم 10 : رسالة أخرى إلى القنصل البرتغالي

الحمد لله وحده ولا حول ولا قوة الا بالله

صاحبنا القونصوا جرجي كلاصو السلام على من اتبع الهدى اما بعد فنؤكد عليم في امر المكانتين اللتين ذكرت لنا انهما بجبل طارق حيث كان اتى بهما من اتى ورجع وتركهما ولا بد تكتب لنا عليهما وكذلك الكتان الذي ذكرت لنا انه ياتي للخدم ولا بد توجهه لنا مع

56ـ نفسه، الوثيقة رقم: 217 ص. 534.

57ـ نفسه، نفس الصفحة، الوثيقة رقم: 218.

حامل الكتاب وان كان ما نقضوا لك عرفنا به ونحن على ما بيننا من المحبة والسلام في 24 صفر 1215 [17 يوليوز 1800]

يلقاسم بن احمد الزياني وفقه الله [58]

الملحق رقم 11 :رسالة من بلقاسم الزياني إلى القنصل البرتغالي

الحمد لله وحده ولا حول ولا قوة الا بالله

صاحبنا القونصوا جرجي كلاصو السلام على من اتبع الهدى اما بعد فقد وصلنا كتابك وعرفنا ما فيه وما ذكرته على المكانة التي كتبت عليها لجبل طارق نحبك ان وردت عليك تبعثها لنا وهما اثنتان لا واحدة واحدة ذهبا والأخرى فضة ولا زلنا على المعرفة والسلام في 16 ربيع الأول 1215 [7 غشت 1800]

بلقاسم بن احمد الزياني وفقه الله .[59]

الملحق رقم 12 : رسالة من بلقاسم الزياني إلى القنصل البرتغالي

الحمد لله وحده ولا حول ولا قوة الا بالله

صاحبنا القونصوا جرجي كلاصوا سلام على من اتبع الهدى اما بعد فاعلم اننا قدمنا من اقليم تادلة لحضرة مولانا نصره الله السعيدة وقد جمع الله شملنا مع الاهل وان سألت عنا فنحن بخير لله الحمد وقد توحشناك لأن هذه مدة غاب فيها عنا خبركم ولم تصلنا مكاتبكم واننا معكم على المحبة ولا بد تخبرنا عن المكانات ما كان من خبرهم وما كنا اوصيناك عليه من الكرية لكسوة الخدم هل جاء ذلك ام لا ولا تغيب عنا خبركم وسلم منا على اولادكم وبناتكم وتعلقاتكم والسلام في 22 ربيع النبوي 1216 [2 غشت 1801]

بلقاسم بن احمد الزياني وفقه الله [60]

الملحق رقم 13: رسالة من بلقاسم الزياني إلى القنصل البرتغالي

الحمد لله وحده ولا حول ولا قوة الا بالله

إلى صاحبنا القونصو جرجي كلاص سلام على من اتبع الهدى اما بعد فقد وصلنا كتابك وبلغنا المكانة والكتان كثر الله خيرك وما ذكرت على المكانة الثانية وانك دفعتها للرايس محمد ن مبارك هو الصواب واما المكانة التي ذكرت وانها لم تصلح لم نوجهها على

58ـ نفسه، الوثيقة رقم: 219 ص. 536 .

59ـ نفسه، الوثيقة رقم: 222 ص. 538 .

60ـ نفسه، الوثيقة رقم: 236 ص. 545-546 .

تلك الحالة وما كان يخصها الا اصلاح قليل لاكن وقع فيها ما وقع ولكن صاحبنا وعزيز عندنا ولا نشك في محبتك لنا ولا تغيب عنا خبرا ونحن كذلك . والسلام 16 جمادى الاولى عام 1216 [24 شتنبر 1801]

بلقاسم بن احمد الزياني وفقه الله [61].

الملحق رقم 14: نسخة من كتاب وجهناه لوزير الحضرة العلية الفقيه السيد محمد بن عثمان في 28 صفر عام 1212 [22 غشت 1797].

اما بعد فان كاتب سيدنا نصره الله السيد بلقاسم الزياني ساعة سفره من هنا قال للقائد عبد الله بن عبد المالك ارفع يد البرطقيز عن تسقيف الموضع الذي بناه فإن أمر سيدنا نصره الله جاءني على ذلك فلما قال لي القايد عبد الله ما قال له الزياني سالته هل رأيت عنده امر سيدنا هذا أو لا فقال لي إنه لم يرنيه وانما ذكر لي ذلك بلسانه فقط وأنا يا محبنا قد استحييت ان اكتب لسيدنا نصره الله كل ساعة على هذا الموضع وما ظننت ان سيدنا نصره الله رجع فيما امرني به قريبا بتسقيفه ويبدل علي امره الشريف بلا سبب وما أظنه الا من السيد بلقاسم من عند نفسه لانه اما كتب لسيدنا نصره الله أول مرة على ان ذلك البناء ضرر للبلد جاءه جواب سيدنا برفع يدنا عن بنائه بعث لصاحب المركانطي البرطقيزي وقال له اذا يعطيني المركانطي مايتين ريالا أنا نكتب لسيدنا نصره الله وياتيكم امره بالبناء فقاوله باعطائها على مشورة صاحبه ثم لما قدم المركانطي من جبل طارق كان هناك لبعض مقضياته قال له صاحبه ما طلب منه الزياني فلم يرد المركانطي ذلك ولم يقبله وقال ان هذه حاجة الراينة وتعطي عليها السخرة هذا عيب كثير ولاكن قونصونا هو الذي يكتب على هذا الامر لسيدنا نصره الله ويعرفه بحقيقته ونظر سيدنا اوسع فكتبت له ايده الله على ذلك المرة بعد المرة كما في علمك فلما انعم علينا سيدنا بتسقيفه بقيت في خاطره مايتين ريال فجعل يعكس علينا الأمر ويدخل بين الراينة وبين سيدنا نصره الله وإلا فسيدنا والحمد لله وافي كل عهد ومنجز كل وعد ولا يمنع الراينة من تسقيف موضع خرب لا بال له وقد صرفت عليه من مالها وليس هنا موضع سواه وكذلك حين كتبت لسيدنا نصره الله عن الدار التي هي سوق الزرع واجابني بأنها مشغولة فلم اعد الكتب لسيدنا نصره الله على شأنها لأنها ليست لخدمة الراينة وانما المركانطي كان يريدها لنفسه فاتفق حينئذ المركانطي مع الزياني يعطيه خمسماية ريال ليخرج له عليها الامر من عند سيدنا نصره الله وتداونا على ان يجزر فيها اللحم أولا ثم بعد ذلك يشرع في بنائها اعلم يا محبنا وأن هذا الأمر الذي اتفق عليه السيد بلقاسم مع المركانطي انا لم اوافق عليه ولا أريد جعل المجزرة في وسط القيسارية كما لا

61ـ نفسه، الوثيقة رقم: 240 ص. 547.

يخفى من ضرر الرائحة الكريهة لسوق المسلمين ولا يصلح لنا مجزرة الا ذلك الموضع الذي هو في تصرفنا هذه مدة من عهد سيدنا الكبير رحمه الله وعليه كنت اكتب لسيدنا نصره الله واراجعه عليه المرة بعد المرة حتى انعم علينا به واما الموضع الذي هو سوق الزرع فانما يريده المركانطي لنفسه فلذلك نحب من الله ومنك تقف معنا حتى يبعث لنا سيدنا نصره الله امره بتسقيف موضعنا قبل الشتاء ليلا يفسد لنا جميع ما هو عندنا به وربنا يرعاك بمنه والسلام في تاريخه .[62]

الملحق رقم 15: نسخة من كتاب وجهناه لحضرة امير المومنين مولانا سليمان نصره الله في 28 صفر عام 1212

وبعد تقبيل الارض تحت نعل القدم الطاهرة الاعلام لسيدنا ومولانا ايده الله ان خديمه القائد عبد الله بن عبد المالك منعني أيضا من تسقيف المخازن التي جاد علينا سيدنا نصره الله بتسقيفها وعدم الزيادة في علوها قائلا ان كاتب سيدنا الفقيه الزياني امره بذلك عن امر **جاءه بذلك من سيدنا نصره الله ولاكنه لم يره الامر الشريف ولم يظهره له واني بارك الله في عمر سيدنا ما ظننت ان سيدنا نصره الله يبدل علي امره الشريف الذي جاءني قريبا بالتسقيف من غير زيادة في العلو وسيدنا والحمد لله فيه كل خير ولاكن امثال هذا وأشباهه انما يقع من الذين يسعون بالفساد بين يدي سيدنا نصره الله** وبين الراينة لأنها بارك الله في عمر سيدنا ليس لها هنا الا ذلك المخازن التي صرفت في بنائهم من مالها لحفظ امور لها تحتاج اليها في خدمتها فإذا بقيت تلك المخازن بلا سقف وهذا فصل الشتاء أقبل فسد كل ما هو عندها هناك فالمطلوب من سيدنا ومولانا كلمته الوافية لاني قد كنت شرعت في تسقيف ذلك حين جاءني امر سيدنا نصره الله به ثم لما قال لي القايد المذكور ما قال رفعت يدي عنه **لانه ذكر انه عن امر مولانا ايده الله وما أظنه كذلك وانما هو من الذين يسعون في تخسيد الخواطر من الجانبين** وإلا فسيدنا والحمد لله وافي كل عهد ومنجز كل وعد فنحب من الله ومن سيدنا ومولانا الا يسمع فينا كلام الغير وان يبقينا على عملنا كما انعم علينا وربنا يبارك لنا في عمر سيدنا ويديم خاطره الكريم علينا والسلام .[63]

62ـ نفسه، الوثيقة رقم: 160 ص. 496- 497.

63ـ نفسه، الوثيقة رقم: 159ص. 495-496.

الأرشيف البرتغالي مصدرا لتاريخ الموانئ المغربية
أرشيف القنصلية البرتغالية بطنجة نموذجا[1]

اهتم البرتغاليون كثيرا بالتبادل التجاري مع المغرب، منذ الفترة القديمة. وخلال فترات التاريخ المختلفة، لم تنقطع المبادلات التجارية بين ضفتي المتوسط، كما أن الكتابات عن المغرب وإمكانياته الاقتصادية، وما يوفره من منتوجات فلاحية وصناعية صالحة للتبادل التجاري، سواء في المغرب أو من جنوب الصحراء، لم تنقطع. وفي الفترة الحديثة والمعاصرة تزايدت التقارير والروايات والشهادات عن هذا الموضوع، بارتباط مع انفتاح أوربا على العالم، ووجود المغرب حلقة وصل ضمن حلقات التبادل العالمي وضمن المواصلات الجديدة التي اتخذت من المحيط الأطلسي مجالها الواسع.

ولعل أفضل مثل عن هذا الرصيد من المادة التاريخية المتعلقة بالتبادل التجاري بين المغرب وأوربا، وما توفره المراسي المغربية من إمكانيات، هو ما نجده في مجموعة دوكاستر التي أنجزت خلال فترة الحماية، والتي لم تنل حظها بعد من الدراسة والتمحيص، حيث نجد في وثائق المجموعات التي نشرت معلومات هامة عن النشاط التجاري في المغرب، وإمكانيات المغرب الاقتصادية، بكثير من الدقة التي لا نجدها في المصادر المغربية، ومعلومات قيمة عن علاقاته مع دول فرنسا وانجلترا وهولاندا وإسبانيا والبرتغال.

ويتضمن الأرشيف الأوربي أيضا مادة غنية ومتنوعة وكثيرة، عن أحوال المغرب الاقتصادية وعن حركة موانئه رواجها، وخاصة بعد استقرار القنصليات العامة التي تقابل ما سيسمى فيما بعد بالسفارات بالمغرب، وتحرير القناصل وممثليهم في الموانئ المغربية للعديد من التقارير الدقيقة عن أحوال البلاد السياسية والاقتصادية وعلاقاتها بالدول الأخرى وما تعرفه مراسيها من رواج، وحركة، ورفعها لدولهم.

تحتاج دراسة هذه التقارير -التي يعود معظمها إلى القرن الثامن عشر واستمرت إلى القرن الماضي- إلى جهود المتخصصين، لقراءتها، وترجمتها وإعدادها للباحثين، ثم مقارنتها ببعضها البعض لتكملة النواقص التي تشوبها، من أجل وضع تاريخ اقتصادي يركز على علاقات

---

1 - نشر ضمن أعمال الأيام الوطنية الثامنة عشرة للجمعية المغربية للبحث التاريخي، المنظمة بالدار البيضاء في أكتوبر 2010: المدن المراسي في تاريخ المغرب، تنسيق عبد المالك ناصري، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، سنة 2013، صص.221-236.

المغرب الخارجية، وتسليط الضوء على الكثير من خبايا تاريخ المغرب السياسي والديبلوماسي، وهو مجال لم يحظ بالعناية المطلوبة.

وتهدف هذه المساهمة إلى تقديم فكرة عما يمكن لهذا الأرشيف أن يقدمه من معلومات ومواد للباحث المهتم بتاريخ الموانئ المغربية، انطلاقا من أرشيف دولة واحدة هي البرتغال، التي لم تكن من الدول التجارية الكبرى في القرن التاسع عشر، ولكن التعامل معها يعطينا فكرة عن جانب من العلاقات الملاحية والتجارية بين البلدين، ولعل الصورة ستكون أكثر اكتمالا لو تمكنا من التعرف على تقارير الدول الأخرى.

لقد اخترت عينة من التقارير التي وجدتها في أرشيف السفارة البرتغالية، وهو أرشيف مهمل غير منظم ولا مرتب، ومعرض للضياع، ويشمل بقايا أرشيف القنصلية البرتغالية العامة بطنجة، والتي كانت المقر الرسمي للممثل الدبلوماسي للبرتغال والذي كان يدعى القنصل العام، ثم الوزير المفوض، والذي كان يشرف على عدد من القناصل والوكلاء في أهم المدن والموانئ المغربية. وقد اعتمدت على سجل يتضمن حسابا لما عرفته بعض المراسي المغربية من تعاملات مع البرتغال، خلال الفترة الممتدة من سنة 1859إلى1867. وسأكتفي في هذه المساهمة بعرض مضامين هذا السجل المسمى جداول الاستيراد والتصدير 1859-1867. وكان هذا السجل موجودا في سفارة البرتغال سنة 1990، عندما اطلعت عليه، بعنوان فرعي: تجارة الاستيراد والتصدير بين البرتغال وامبراطورية المغرب مع بداية سنة 1859 إلى نهاية سنة 1867. ورقمه: 15B.[2] ويتعلق بموانئ طنجة والعرائش والرباط والدار البيضاء والجديدة والصويرة وأسفي.

نماذج من المعلومات المتضمنة في سجل السفارة البرتغالية:

يمكن أن نوزع المعلومات المتضمنة في جداول السجل، كما يلي:

1- حركية الملاحة بين المغرب والبرتغال ما بين 1859و 1867:

يعطينا السجل إمكانية رصد حركة السفن البرتغالية الداخلة إلى الموانئ المغربية أو الخارجة منها، بحيث يخصص سجلا لكل مرسى على حدة، ويتضمن عدد السفن وهل هي محملة بالسلع أم فارغة، وقيمة الحمولة. ويجب أن نضع في الاعتبار أن بعض السفن يمكن أن ترتاد عدة موانئ، لنقل بضائع مغربية أو أجنبية. ولذلك فالعدد يجب أن يدعم باسم

---

2 - Mappas de importaçao e exportaçao 1859 - 1867. Ref : 15 B . Commercio de importaçao e exportaçao entre Portugal e o imperio de Marrocos com principio no anno de 1859 etc...(142 p)

يوجد ضمن نفس الأرشيف سجل لم يتح لي الوقت لدراسته، من إنجاز نائب القنصل بالدار البيضاء عن صادرات ميناء الدار البيضاء، ابتداء من سنة 1875 في 206 صفحات، ويتضمن تواريخ الخروج وعدد السفن، واسم القبطان والوجهة والحمولة ، والطاقم والمواد والقيمة وغيرها.

المركب. كما أن التجارة البرتغالية تتم أحيانا بمراكب برتغالية، وأحيانا بمراكب أخرى مكتراة من جنسيات أخرى. وتبين الجداول التالية حركة الملاحة بين الدولتين في مراسي طنجة والعرائش والرباط والبيضاء والجديدة وأسفي والصويرة، وهي المراسي التي كانت دولة البرتغال ترتادها، بسبب قربها مثل طنجة والعرائش، أو بسبب أهميتها مثل الرباط والدار البيضاء أو بسبب العلاقات التاريخية التي كانت تربطها بها مثل الجديدة وأسفي والصويرة. وفيما يلي تسعة جداول تتضمن المعلومات المشار إليها بالنسبة للسنوات المذكورة:

الجدول رقم 1 : الحركة الملاحية سنة 1859

الميناء	السفن الداخلة	السفن الخارجة	قيمة الحمولة
طنجة	1	1	1174
العرائش	-	2	6300
الرباط	-	2	بدون وسق
البيضاء	3	3	7755
الجديدة	14	15	52150
أسفي	4	4	17180
الصويرة	7	5	514037

الجدول رقم 2 : الحركة الملاحية سنة 1860

الميناء	السفن الداخلة	السفن الخارجة	قيمة الحمولة
طنجة	0	1	6447
العرائش	1 فارغة	-	0
الرباط	-	-	0
البيضاء	1 فارغة	-	0
الجديدة	-	9	23300
أسفي	5 فارغة	3	5677
الصويرة	4	6	16875

الجدول رقم 3 : الحركة الملاحية سنة 1861

الميناء	السفن الداخلة	السفن الخارجة	قيمة الحمولة
طنجة	15	23	7840
العرائش	1فارغة	2	3285
الرباط	1	0	600
البيضاء	1فارغة	1	3000
الجديدة	13 فارغة	6	21600
أسفي	4 فارغة	3	8445
الصويرة	12	12	18524

الجدول رقم 4 : الحركة الملاحية سنة 1862

الميناء	السفن الداخلة	السفن الخارجة	قيمة الحمولة
طنجة	14	12	5874،19
العرائش	-	4	9358،10
الرباط	-	-	-
البيضاء	10فارغة	22	80940
الجديدة	76	97	437189
أسفي	3	16	45404،09
الصويرة	10	9	35153

الجدول رقم 5 : الحركة الملاحية سنة 1863

الميناء	السفن الداخلة	السفن الخارجة	قيمة الحمولة
طنجة	8	15	11903،10
العرائش	5	11	23720،5
الرباط	2	-	3260
البيضاء	16 فارغة	28	126048
الجديدة	28 فارغة	29	103721
أسفي	5 فارغة	18	72985
الصويرة	13	15	57942

الجدول رقم 6 : الحركة الملاحية سنة 1864

الميناء	السفن الداخلة	السفن الخارجة	قيمة الحمولة
طنجة	14	19	58363
العرائش	2	-	53251
الرباط	-	-	-
البيضاء	1فارغة	5	30890
الجديدة	18	13	41900
أسفي	10 فابرغة	12	34948
الصويرة	10	12	40706
تطوان	1	1	3800

الجدول رقم 7 : الحركة الملاحية سنة 1865

الميناء	السفن الداخلة	السفن الخارجة	قيمة الحمولة
طنجة	32	23	47499،3
العرائش	6	7	22293،75
الرباط	5	0	4570
البيضاء	9	23	69477
الجديدة	24 فارغة	22	75367
أسفي	7	12	39202،2
الصويرة	11	13	36309

الجدول رقم 8: الحركة الملاحية سنة 1866

الميناء	السفن الداخلة	السفن الخارجة	قيمة الحمولة
طنجة	38	30	18474
العرائش	3	6	13362
الرباط	8	0	4180
البيضاء	3	6	16475
الجديدة	16 فارغة	15	49080
أسفي	8 فابرغة	15	44740
الصويرة	8	10	39530

الجدول رقم 9 : الحركة الملاحية سنة 1867

الميناء	السفن الداخلة	السفن الخارجة	قيمة الحمولة
طنجة	17	32	6524،13
العرائش	2	3	2672
الرباط	4	1فارغة	-
البيضاء	2فارغة	3	14700
الجديدة	5 فارغة	6	21600
أسفي	4 فارغة	3	4899

ويتضح من هذه الجداول التسعة أن رواج هذه الموانئ تعثر، بسبب ظروف الحرب التي دارت بين المغرب وإسبانيا والتي ترتب عنها احتلال تطوان، ثم بدأ هذا النشاط يستقر ويتزايد في السنوات التالية وخاصة بعد سنة 1863، بسبب انتهاء ظروف الحرب. ويتضمن

السجل إفادات أخرى، يمكن أن تكون محل دراسات خاصة. ويتضح منه أن دولة البرتغال ركزت في مبادلاتها مع المغرب على الموانئ التقليدية مثل الجديدة والصويرة وأسفي، إضافة إلى الموانئ التي أصبح لها نشاط ملحوظ مثل طنجة والدار البيضاء. وقد تنامى دور هذا الميناء الأخير بحيث أصبح في الربع الأخير من القرن التاسع عشر في طليعة الموانئ المغربية من حيث الرواج، كما يتضح من أحد السجلات في الأرشيف البرتغالي[3]

ويظهر الجدول التالي ترتيب المراسي المتعاملة مع البرتغال في الفترة الزمنية المدروسة وهو يوضح ما سبقت الإشارة إليه، بأفضلية لمرسيي الجديدة وطنجة.

الجدول رقم 10 : ترتيب المراسي المتعاملة مع البرتغال

السنة	المرتبة الأولى	المرتبة الثانية	المرتبة الثالثة
1859	الجديدة	الصويرة	أسفي
1860	الجديدة	أسفي	الصويرة
1861	طنجة	الصويرة	الجديدة
1862	الجديدة	البيضاء	طنجة
1863	الجديدة	البيضاء	الصويرة
1864	الجديدة	طنجة	أسفي- الصويرة
1865	طنجة	الجديدة	البيضاء
1866	طنجة	الجديدة	أسفي
1867	طنجة	الجديدة	أسفي

ويمكن تلخيص معطيات الجداول السالفة في جدول عام يوضح طبيعة نشاط هذه الموانئ، وحجم الرواج بينها وبين دولة البرتغال في الجدول التالي رقم 11.

3 - Vice consule de Portugal: Mappas de exportaçao de Casabranca . princi piado: 1875 .1864 1865 - (206 Paginas).

الجدول رقم 11: مجموع المعطيات المتعلقة بالتبادل بين الموانئ المغربية ودولة البرتغال.

السنة	السفن الداخلة	الفارغة	قيمة الحمولة	السفن الخارجة	الفارغة	قيمة الحمولة
1859	29	0	18877	32	0	80319
1860	11	7	7698	19	0	44601
1861	47	19	5827	47	0	57467
1862	113	10	50861،9	160	0	563056،48
1863	77	49	27476،10	116	0	372076،5
1864	56	24	21925	78	0	236985
1865	94	24	32420،25	100	0	265668
1866	84	24	32895	82	0	162946
1867	30	15	16016،13	70	1	99814

2- أنواع السلع الرائجة بالمراسي المغربية ووزنها وقيمتها:

تتضمن السجلات البرتغالية أيضا معلومات مفصلة عن أنواع السلع المتبادلة بين المغرب والبرتغال، وقد يكون بعضها موجها لجهات أخرى، أو فيما بين المراسي المغربية. ويكفي أن نستعرض معطيات جدولين يعودان لسنتي البداية والنهاية لهذه الفترة، (1859و1867) كنموذج ومؤشر لنوعية المواد المتبادلة بين البلدين، لنتبين منها بالتفصيل بعض الواردات مثل: الشاي والقهوة والسكر والقسطل والبطاطس والأثواب والسلع المصنعة والخردوات الحديدية والجلد والإجاص والخروب والسردين والملح وألواح الخشب وهي تجارة عريقة كانت تتم بين المغرب وجزر ماديرا التي كانت مصادرنا تسميها بجزيرة الخشب، ومنها أيضا النبيذ، بينما نجد ضمن لائحة الصادرات البشتة وهي حبوب تغذية العصافير، والفول والذرة والقمح والدقيق والماشية والجلود والتمر والجوز واللوز، والشمع والصمغ العربي والقنب والأرز والكبريت والزرنيخ الأحمر والبيبات وهي نوع من البراميل.

وتتنوع المكاييل والموازين، حسب نوع السلع وطبيعتها، حيث نجد الجرار والأكياس والحزم والبيبات والصناديق والدزينات والقنطار والفانيقة والمد. والعملة الرئيسية في التعامل هي البسيطة الإسبانية، وكل هذه المعطيات تظهر من الجدولين التاليين رقم 12 و 13.

الجدول رقم 12: السلع الرائجة بالمراسي المغربية سنة 1859

الميناء	السلعة	الوجهة	الكمية	القيمة (بالبسيطة)
طنجة	الملح	واردات	9 أمداد	24
	Bixas	صادرات	25 صندوقا	1000
	البشتة: تغذية العصافير	"	14كيسا	150
العرائش	الفول	"	4500 فانيقة	6900
الرباط	-	-	-	-
البيضاء	سلع مختلفة	واردات	---	570
	الذرة	صادرات	5450 فانيقة	5935
	القمح	"	800 فانيقة	1200
الجديدة	سلع حيوية	واردات	-	10450
	الذرة	صادرات	30800 فانيقة	32100
	الفول	"	7100 فانيقة	9600
أسفي	الذرة	"	16120 فانيقة	16120
	البشتة	"	3 أكياس	25
	الثيران	"	1	35
	؟	"	50 قنطارا	1000
الصويرة	أثواب	واردات	5صناديق	150
	الشاي	"	80 صندوقا	2074
	السكر	"	59 برميلا	850
	القسطل	"	153 كيسا	333
	نحاس قديم	"	9 براميل	750
	جرار الخمر/النبيذ	"	60 برميلا	2733
	القهوة	"	32 كيسا	616
	ألواح خشبية	"	40 دزينة	240
	الحلي	"	1صندوق	50
	البطاطس	"	16 كيس	40
	جلد البقر	صادرات	186 حزمة	2930
	التمر	"	32 برميلا	253
	البشتة	"	5 أكياس	25
	الزرنيخ الأحمر	"	10 صناديق	183
	القنب	"	1 حزمة	11
	الأرز	"	56 كيسا	250
	جلد البقر	"	14 حزمة	75
	الصمغ العربي	"	20 برميلا	204

	الشمع	"	4 أكياس	320
	الجوز	"	5 أكياس	202
	اللوز	"	38 كيسا	800
	الجلد المدبوغ	"	54 حزمة	936

الجدول رقم 13 : السلع الرائجة بالمراسي المغربية سنة 1867

الميناء	السلعة	الوجهة	الكمية	القيمة (بالبسيطة)
طنجة	السكر	واردات	25 كيسا	225
	القهوة	"	30 كيسا	664
	الجلد	"	21حزمة	130
	القمح	"	50 ربعا	45
	الزيت	"	4 بيبات	400
	الملح	"	7200 كلغ	80
	الإجاص	"	130 قنطار	260
	سلع مختلفة	"	-	645
	Alcolas	صادرات	3 قطع	40
	البشتة	"	453 كيسا	800
	Bixas	"	86 صندوقا	464
	الجلود	"	62،75 قنطارا	660
	الجلد والكسكس	"	8 قناطير و كيس	85
	الكبريت	"	60 قنطارا	60
	الدقيق	"	100 كيس	1000
	أشياء مصنعة	"	حزم	80
	بيبات فارغة	"	3	3
	القمح	"	80 فانيقة	150
	Jantaras	"	12 رطلا	3
العرائش	الخروب	واردات	17 قنطارا	14
	القمح	"	5 قناطير	10
	السردين	"	9 براميل	15
	ألواح	"	25 دزينة	75
	الملح	"	50 فانيقة	15
	الفول	صادرات	1305 فانيقة	2479
	adnelas	"	1500 فانيقة	40
	بيبات مفككة	"	30	16
	بيبات كاملة	"	10	8

الرباط	الخروب	واردات	380 قنطار	570
	خردوات الحديد	"	750قنطار	1500
	الإجاص	"	430قنطار	645
	السردين	"	10 براميل	50
البيضاء	الذرة	صادرات	8757فانيقة	14700
الجديدة	الفول	"	-	-
	الحبوب	"	85 فانيقة	187
	بذور الذرة	"	-	2000
	الذرة	"	1584	2725

يتضح مما سبق ما لأرشيف السفارة البرتغالية من أهمية في التعرف على أحوال المغرب الاقتصادية وعلاقاته التجارية بالدول الأوربية، وما عرفته موانئه من رواج، يعكس أحوال البلاد العامة السياسية والاقتصادية، ويتأثر ويتفاعل معها. ولعل الاهتمام بهذا الأرشيف وبأرشيف الدول الأخرى، يمكن الباحثين من تعميق البحث في هذا المجال، وتغطية النقص الحاصل في المصادر المغربية التي قلما تطرقت بالتفصيل إلى هذه الجوانب التقنية الهامة، وسد الفراغات الكثيرة التي تشوبها.

ملاحق:

1- **رسالة من محمد بركّاش إلى القنصل العام البرتغالي جوزي دانييل كلاصو**، مؤرخة ب6 قعدة سنة 1279 التي توافق سنة 1863، تبين الطابع الودي الذي كان يطبع العلاقات بين البلدين، وترخيص المخزن المغربي بوسق رؤوس الأبقار لصالح الجيش البرتغالي، على الرغم من الظروف الفلاحية الصعبة وحاجة المغاربة إليها، مراعاة للعلاقات الطيبة بينهما.

الصورة رقم 1: رسالة بركّاش إلى القنصل البرتغالي سنة 1863

الحمد لله وحده

محبنا الكبالير العاقل جوزي قونص الجنرال البرتغيز مسيو اهرسف دنيل كلاص لازال الشر عنك نطلب الله
تكون بخير وعافية وبعد فقد تكلمت معنا وكتبت لنا في شان احتياج عسكركم الى اللحم من اجل الاعياد الواقعة
في البقر ببلدكم وما عرفت فيه من الغلا وطلبت منا ان نطلب سيدنا اعزه الله ان ينعم على جنسكم المحب بتسريح
وسق ثلاثمائة راس ثور في كل سنة ومدة الشهر المذكور ثلاث سنين عسى الله ان يدفع هذه الشدة ويبدلها
بالرخا والطاقة في ذلك مثل ما يرجعه الغيث حسبما في كتابك وذكرت ان دولة جنسكم اكدت عليك في رفع هذا
الطلب على ايدينا وبطالعة العلم الشريف بزيادة ما لها سلف بدولكم ومن اسلاف سيدنا من المحبة والاتصال
فقد طالعنا علم سيدنا اعزه الله بذلك وشرحنا له القضية فاجاب ايده الله ونصره ان البقر
في ايالته السعيدة في هذه السنين قليل جدا والرعية محتاجة اليه ومثل العدد المطلوب كثير جدا ولكن
حيث كان مثل الجنس من الاجناس المعتبرين عنده ايده الله وعند اسلافه المقدسين وطلب منه ذلك على وجه
الخير فها هو ايده الله ساعدكم بشطره وهو نصف العدد المطلوب وهو خمس عشرة مائة على اداء الطاقة
مثل ما يرجعه الخليفة بشرط ان لا تكونوا تشتروا ذلك في وقت الحرث لان الرعية في ذلك الوقت تكون
في غاية الاحتياج اليه وعلى المحبة والسلام في 6 قعدة عام 1279

خديم المقام العالي بالله
محمد بركاش لطف الله به

نص الرسالة:

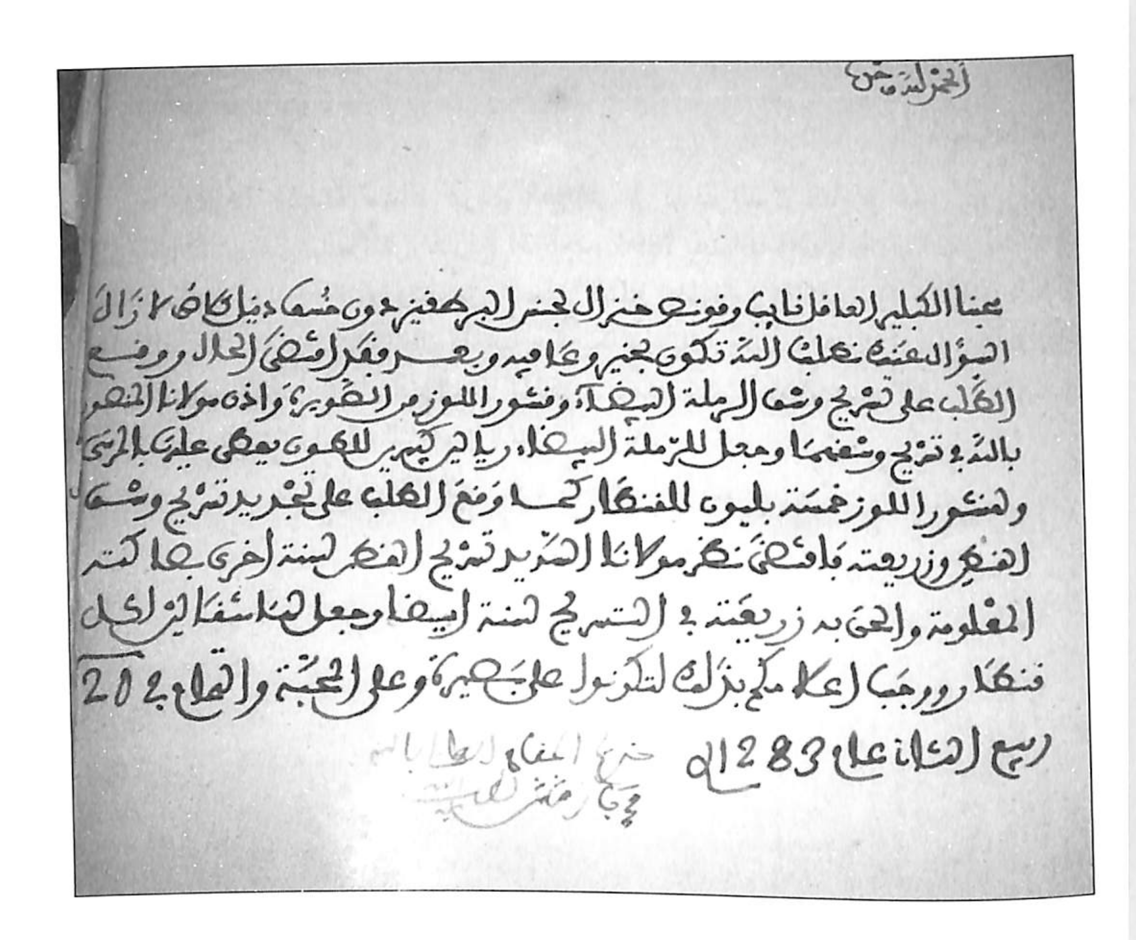
الحمد لله وحده

محبنا الكبالير العاقل قونص خنرال جنس البرطقيز موسيوا جوزيف دنيل كلاصلا زال السؤال عنك نطلب الله أن تكون بخير وعافية وبعد فقد كنت تكلمت معناوكتبت لنا في شان احتياج عسكركم إلى اللحم لاجل الافات الواقعة في البقر في بلدكم وما حدث فيه من الغلاء وطلبت منا أن نطلب من سيدنا أعزه الله أن ينعم على جنسكم المحب بتسريح وسق ثلاثة آلاف ثور كل سنة ومدة التسريح المذكور ثلاث سنين عسى الله أن يدفع هذه الشدة ويبدلها بالرخا والصاكة في ذلك مثل ما يدفعه الغير حسبما في كتابك وذكرت أن دولة جنسكم أكدت عليك في رفع هذا الطلب على أيدينا وبطالعة العلم الشريف بمرادها لما سلف بين دولكم وبين أسلاف سيدنا من المحبة والاتصال فقد طالعنا علم سيدناأعزه الله بذلك وشرحنا له القضية فأجاب أيده الله ونصره أن البقر في إيالته السعيدة في هذه السنين قليل جدا والرعية محتاجة إليه وهذا العدد المطلوب كثير جدا ولاكن حيث كان هذا الجنس من الأجناس المعبرين عنده أيده الله وعند أسلافه المقدسين وطلب منه ذلك على وجه الخير فهاهو أيده الله ساعدكم بتسريح وسق نصف العدد المطلوب وهو خمس عشرة مائة على أداء الصاكة مثل ما يفعله الانجليز بشرط أن لا تكونوا تشتروا ذلك في وقت الحرث لأن الرعية في ذلك الوقت تكون في غاية الاحتياج إليها وعلى المحبة والسلام في6 قعدة عام 1279 هـ

خديم المقام العالي بالله محمد بارقش لطف الله به

2- **رسالة ثانية من بارقش إلى كلاص** في موضوع التسريح بوسق بعض المواد الطبيعية والفلاحية، مؤرخة بسنة 1867 .

الصورة رقم 2: رسالة من برگاش إلى القنصل البرتغالي سنة 1867



الحمد لله وحده

محبنا الكبلير العاقل نايب وقونص خنرال لجنس البرطقيز دون خسف دنيل كلاص لا زال
السؤال عنك نطلب الله أن تكون بخير وعافية وبعد فقد اقتضى الحال ووقع
الطلب على تسريح وسق الرملة البيضاء وقشور اللوز من الصويرة وأذن مولانا المنصور
بالله في تسريح وسقهما وجعل للرملة البيضاء ريال كبير للقنطار يعطى عليه بالمرسى
ولقشور اللوز خمسة بليون للقنطار كما وقع الطلب على تسريح وسق
العكر وزريعته فاقتضى نظر مولانا الشريف تسريح العكر لسنة أخرى على كيفيته
المعلومة والحق به زريعته في التسريح لسنة أيضا وجعل لها ...
فكان من الواجب إعلامكم بذلك لتكونوا على بصيرة وعلى المحبة والسلام في 20
ربيع الثاني عام 1283

نص الرسالة:

الحمد لله وحده

محبنا الكبلير العاقل نايب وقونص خنرال لجنس البرطقيز دون خسف دنيل كلاص لا زال السؤال عنك نطلب الله أن تكون بخير وعافية وبعد فقد اقتضى الحال ووقع الطلب على تسريح وسق الرملة البيضاء وقشور[1] اللوز من الصويرة وأذن مولانا المنصوربالله في تسريح

---

[1] - يمكن أن تقرأ أيضا منثور اللوز.

وسقهما وجعل للرملة البيضاء ريالين كبيرين للطون يعطى عليها بالمرسى، ولقشور اللوز خمسة بليون للقنطار كما وقع الطلب على تجديد تسريح وسق القطن وزريعته فاقتضى نظر مولانا السديد تسريح القطن لسنة أخرى بصاكته المعلومة وألحق به زريعته في التسريح لسنة أيضا وجعل لها مثقالين لكل قنطار ووجب إعلامكم بذلك لتكونوا على بصيرة وعلى المحبة والتمام في 20 ربيع الثاني عام 1283

خديم المقام العالي بالله محمد بارقش لطف الله به

3- **لائحة مفصلة لنشاط مرسى العرائش في نهاية القرن التاسع عشر**، من إنجاز نائب القنصل البرتغالي بالعرائش، بتاريخ 31 دجنبر 1896 بعنوان: وضعية الواردات على ميناء العرائش خلال سنة 1896، وتتضمن أسماء السلع والموازين والمقاييس، وأسماء الدول المتعاملة مع الميناء وهي البرتغال وألمانيا وبلجيكا وإسبانيا وفرنسا وانجلترا، مع مقدار كل سلعة وقيمتها، ومجموع واردات الدول المذكورة. ومنها نتبين أهمية هذه التقارير واللوائح التي استمرت إلى غاية العقد الثاني من القرن العشرين.

4- الصورة رقم 3: لائحة شاملة عن نشاط مرسى العرائش في سنة 1896

Vice Consulado de Portugal en Larache

Estado de Importacion en el puerto de Larache durante el año 1896

Articulos	Pesos Medidas Nº	De Portugal		De Alemania		De Belgica		De España		De Francia		De Inglaterra		Total	
		Cantidades	Valores Pesetas	Cantidades	Valores Pesetas	Cantidades	Valores Pesetas	Cantidades	Valores Pesetas	Cantidades	Valores Pesetas	Cantidades	Valores Pesetas	Cantidades	Valores
			1.575		122.675		155300		5325		1638.765		[illegible]		[illegible]

Larache el 31 de Diciembre de 18[illegible]
El Vice Consul

دعم المغرب للمقاومة الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي من خلال الأرشيف الدبلوماسي البرتغالي[1]

تقديم:

لا يستقيم البحث التاريخي حين يتم توجيهه لخدمة أغراض سياسية، أو توظيفه لطمس الحقائق التي تضايق الحكام، أو لترسيخ مسلمات لا تقوم على أساس، لربح مكاسب آنية على حساب رصيد كبير من العلاقات الحسنة وحسن الجوار، وعلى حساب الشعوب التي تشكل في الأصل شعبا واحدا، وفرضت عليها القوى الاستعمارية أن تتجزأ إلى شعوب في حدود سياسية جديدة، مع احتفاظها بمقومات الوحدة من أصول وتاريخ ولغة ودين وتقاليد وعادات وعلاقات قبلية وأسرية، كما هو الشأن بين البلدان المغاربية، وخاصة بين المغرب والجزائر.

لقد عانى تاريخ العلاقات المغربية الجزائرية من الكثير من الشوائب، وسوء الفهم الذي غذاه بعض المؤرخين بتأويلات تجانب السياق التاريخي، وتسقط بعض الأفكار التي لا سند لها على هذه العلاقات، ومن ذلك، على سبيل المثال، اتهام المغرب بالـ"خيانة" والمساهمة في القضاء على ثورة الأمير عبد القادر، والتنكر للدور الكبير الذي قام به المغاربة لدعم الجزائر في حربها من أجل التحرر من ربقة الاستعمار الفرنسي. وغالبا ما يلجأ هؤلاء المؤرخون إلى قراءة بعض الوثائق خارج سياقاتها، والبحث عن التأويلات التي يعتقدون أنها تعطي مصداقية لاستنتاجاتهم.

والمؤسف في الأمر، أن هذا النوع من الكتابات التاريخية، يرسخ في أذهان أجيال من المغاربيين على أنه حقيقة مسلمة، ويغذي شحنة العداء التي يعتقد بعض الساسة أنها تخدم المصالح القطرية الضيقة، وهي في الحقيقة تحفر أخاديد عميقة في صرح من العلاقات المتينة التي تمتد لآلاف السنين.

نحن في حاجة إلى قراءات متأنية لتاريخنا، وتَبَنّي المشترَك منه، بدون تعصب أو تحيز، وبدون اعتبار لظرفية ما بعد الاستعمار الذي حول شعوب المنطقة إلى دول بحدود لا تتناسب مع تاريخها المشترك، وعناصرِ وحدتها وانسجامها على مر التاريخ. ولعل أفضل طريقة يمكن نهجها هي نبذُ الإسقاطات الحالية، والنظرُ إلى الماضي بتجرد العالم، وبمسافة

1- نشر في الكتاب الجماعي: مجالات الجوار المغربية، استحضار لماض تواصلي عريق. اشغال الأيام الوطنية الثانية والعشرين للجمعية المغربية للبحث التاريخي، تنسيق حميد تيتاو، 2016، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، وجدة، صص.187-216.

موضوعية، والتركيز على ما هو واضح وصريح، من النصوص الموثوقة والوثائق المحايدة، وخاصة تلك التي تعود إلى نفس الفترة المعاصرة للأحداث، بدون لعب دور القاضي الذي يصدر أحكام الإدانة والبراءة، معتمدا على واقع بَعْدي لا علاقة له بواقع الحال خلال سنوات العقد الثالث والرابع من القرن التاسع عشر.

ومن أجل هذا الهدف، تسعى هذه المساهمة إلى تسليط بعض الأضواء على انعكاسات الاحتلال الفرنسي للجزائر على المغرب، ومحاولات الدعم التي قدمها المغاربة لأشقائهم الجزائريين منذ بداية الاحتلال، إلى أن انتهى الأمر بانتكاسة معركة إيسلي، واضطرار المغاربة إلى التخلي عن هذا الدعم. وسنحاول - ما أمكن- الاقتصار على ما تقدمه وثائق القنصلية البرتغالية العامة بطنجة خلال هذه الفترة، وما عكسته من أصداء وردود فعل وتطورات أعقبت هذا الاحتلال، وتسببت في عدد من الأزمات والمشاكل بين المخزن المغربي والحكومة الفرنسية ممثلة في قنصلها العام بطنجة.

وقبل الشروع في استعراض معطيات هذا الأرشيف البرتغالي، أرى لزاما علي أن أعرف به، وبأهميته التي تفسر حدود مصداقيته.

أولا- أرشيف القنصلية البرتغالية العامة بطنجة:

يتعلق الأمر بمجموعة من الرسائل والتقارير والأخبار التي كان القنصل العام البرتغالي [المقابل للسفير في وقتنا الحالي]، يبعثها إلى وزارة الخارجية البرتغالية، بشكل دوري، وبتسلسل كرونولوجي، وتوجد حاليا موزعة على عدد من المكتبات البرتغالية، أهمها مكتبة أكاديمية العلوم بلشبونة، التي تتوفر على مجموعة من هذه الرسائل، تحت رقم 1020، وتتناول الفترة الممتدة من 1771 إلى 1845، بينما توجد مجموعة أخرى بمكتبة طوري دو طمبو، موزعة على ثلاثة صناديق خشبية، يهمنا منها هنا الصندوقان الثاني الذي يحمل رقم MNE300، ويغطي الفترة الممتدة ما بين سنة 1822 و 1832، والصندوق الثالث، الذي يحمل رقم MNE301، ويغطي الفترة ما بين سنة 1833 وسنة 1844[2].

تعود مصداقية هذه الوثائق إلى مجموعة من الأسباب، يمكن إيجازها في الآتي:

- **الآنية**: فقد حررت في نفس اللحظة التي توصل فيها القنصل العام البرتغالي بالأخبار، من خلال مزوديه بالمعلومات داخل المخزن المغربي أو من بين المستخدمين في السفارات، مما

2- أنظر من أجل المزيد من التفصيل، عثمان المنصوري، العلاقات المغربية البرتغالية (1790-1844)، مطبعة فضالة، 2005، ج1، ص. 14-15. وتجدر الإشارة هنا إلى أن وثائق أخرى عن فترة ما بعد سنة 1844، توجد في مكتبات الأرشيف البرتغالي، وخاصة في أرشيف سفارة البرتغال بالرباط، وتمتد الفترة التي تتطرق إليها إلى مطلع القرن العشرين.

يعني أننا نطلع على المعلومات كما توصل بها القنصل ووزير خارجيته، بدون تحوير أو تعديل

- **الحياد:** فالقنصل البرتغالي، لا مصلحة له في تحوير الأخبار أو إخفاء المعلومات عن دولته، أو تزييفها، وليس طرفا في المشاكل التي نشبت بين المخزن الفرنسي والقوات الفرنسية في الجزائر، ولا في علاقات المغرب بالأمير عبد القادر، وهو يراسل دولته، بدون أن يكون مضطرا إلى استعمال المجاملة الدبلوماسية التي يعتمدها في رسائله للمخزن المغربي.

- **الخبرة:** فقد كان القنصل العام البرتغالي سليل أسرة اشتغلت بالدبلوماسية في طنجة منذ سبعينيات القرن الثامن عشر، وتوارثت هذا المنصب، وهي بالتالي على دراية كبيرة بأحوال المغرب والمنطقة المغاربية، ونسجت علاقات قوية مع رجالات المخزن، ومع التمثيليات الأوربية الأخرى بطنجة، التي اتخذتها هذه الأسرة مقرا لها لأزيد من قرن ونصف، وهي العلاقات التي استثمرتها بشكل جيد للحصول على كل ما يجد من أخبار في المغرب وفي الوسط الدبلوماسي بطنجة.

ولذلك سنكتفي في هذا الاسهام بتتبع الأخبار والإشارات التي وردت في هذه المراسلات بشأن الاحتلال الفرنسي للجزائر، والمواقف المغربية التي تباينت حسب التطورات التي عرفتها الأحداث، ووضعها في سياقها التاريخي، والتعليق عليها عندما يقتضي الأمر.

ثانيا- مواقف المغرب من الاحتلال الفرنسي للجزائر:

1- توتر العلاقات بين المغرب وفرنسا بسبب قضية تلمسان:

كان من البديهي أن يحدث الاحتلال الفرنسي بتاريخ 5 يوليوز 1830م، رجة كبيرة في كل التراب الجزائري، ونوعا من القلق لدى السكان المتخوفين من حكم النصارى، الذي يتعارض مع قناعاتهم الدينية، ولذلك شرعوا في البحث عن الأمن والحماية لدى دول الجوار، اعتمادا منهم على الواجب المنوط بالحكام المسلمين الذين يتعين عليهم حماية الإسلام والمسلمين. ولذلك توجه وفد من مدينة تلمسان إلى مكناس، لمبايعة السلطان المغربي مولاي عبد الرحمان، كما هو متداول في المصادر التاريخية المغربية، وخاصة في الاستقصا. وسبق ذلك إرسال رسائل إلى السلطان نفسه، ونقاش بين العلماء المغاربة حول قبول هذه البيعة، التي ستدفع السلطان حتما إلى المواجهة مع الفرنسيين، أو رفضها. وقد تناولت مجموعة من

الدراسات المتخصصة هذا الموضوع بما يكفي[3]، ولذلك سنقتصر على الاستشهاد من الوثائق البرتغالية ببعض الفقرات التي تطرقت إلى هذا المشكل الذي استمر قائما من أواسط شهر أكتوبر 1830م، تاريخ وصول الوفد التلمساني إلى فاس، إلى بداية غشت من سنة 1832م، وكان محل خلاف وتوتر بين المغرب وفرنسا، التي لم تسلم للمغرب بحقه في بسط سلطته على تلمسان، ولم تعترف ببيعة سكانها للسلطان المغربي، واعتبرت أن منطقة تلمسان جزء من المجال الترابي الذي ورثته بواسطة الاحتلال.

أ- بيعة أهل تلمسان للسلطان مولاي عبد الرحمان وتبعاتها:

وردت أول إشارة إلى هذه البيعة بتاريخ 5 نونبر 1830م، ولما تمض على الاحتلال الفرنسي سوى أربعة أشهر، في رسالة من القنصل "جورج كلاصو" (Jorge Colaço) إلى وزير الخارجية البرتغالي السيد "فيكونت سانطارم" [شنترين] (Visconde de Santarem)، جاء فيها:

> **«وصل إلى بلاط مكناس وفد مرسل من منطقة تلمسان الموجودة في التراب الجزائري، في مهمة لدى السلطان لإعلان البيعة من طرف سكان تلمسان للسلطان المغربي، وتبعا لذلك تم إرسال الأمير مولاي علي مع مائتي فارس لمرافقة الوفد. وقد وصل الخبر إلى هنا، واحتج عليه القنصل الفرنسي لدى باشا طنجة يوم 29 من الشهر الماضي»[4].**

ظل هذا المشكل محل احتجاج وسجال بين المغرب وفرنسا لما يقرب من سنتين، ورفع القنصل البرتغالي مجموعة من التقارير والرسائل إلى دولته، نتبين منها أبعاد المشكل وتداعياته على العلاقات بين البلدين. ومنها رسالة مؤرخة بـ 6 يناير 1831، جاء فيها:

> **«يعارض قنصل فرنسا هنا قبول السلطان لبيعة تلمسان. وقد أخبره الباشا أن المسلمين يحق لهم مبايعة سلطان منهم، وأن هذا لا يؤثر بحال على العلاقات الحسنة مع فرنسا. في نفس الوقت أمر السلطان بإجراء الكثير من الاستعدادات وأرسل إلى تلمسان -حسب ما يقال- الذخيرة الحربية وبعض الفرق العسكرية.**
>
> **ويوم 21 من الشهر الماضي، رست بطنجة كورفيطا حربية فرنسية قادمة من الجزائر ووهران. وبعد أن أنهت الكرنطينة أنزلت يوم 27 الكولونيل**

3- ينظر من أجل المزيد من التفاصيل، أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج9، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1956، ص ص.26-32. عكاشة برحاب، شمال المغرب الشرقي قبل الاحتلال الفرنسي، 1873-1907، منشورات جامعة الحسن الثاني، سلسلة أطروحات ورسائل،3، المحمدية، 1989، ص. 95-97.

4- عثمان المنصوري، العلاقات المغربية البرتغالية، ج2، المراسلة 17 من طنجة، ص. 448.

(Auverey) قائد القوات بإفريقيا، وطلب مقابلة السلطان حالا، لكن الباشا رفض، في انتظار أن يأتيه أمر مستعجل من السلطان. وقد كتب كل من القنصل والكولونيل إلى السلطان، وكذلك الباشا، ثم غادرت الكورفيطا الميناء يوم 29 باتجاه قادس، وعادت يوم 4 من هذا الشهر، ثم أقلت الكولونيل إلى الجزائر. ويقال إن الباشا توصل برسالة تقول إنه إذا لم تكن مع الكولونيل رسالة من ملك فرنسا فليذهب إلى حال سبيله إن شاء.

أثناء إقامة الكورفيطا بالميناء، كانت تسجل تصاميم عن المدينة وخرائط جغرافية، ومنها كان الفرنسيون يسبرون بدقة أعماق الميناء كله وارتفاعات التحصينات»[5].

وتبدو من الفقرة الأخيرة من هذه الرسالة نوايا فرنسا العدوانية المبيتة، من خلال قيامها بجمع الكثير من المعلومات عن المدينة، كما نتبين إصرار المغاربة على الاحتفاظ بتلمسان، وتعزيزها بالأسلحة والذخيرة لمواجهة كل الاحتمالات، وخاصة المواجهة مع فرنسا. وهو ما عبرت عنه رسالة أخرى بتاريخ 17 مارس 1831، جاء فيها:

«احتفل المغاربة بالأمس بدخول شهر رمضان، وهناك استعدادات مغربية عسكرية هدفها تلمسان، وقد أصدر السلطان أوامر بتعزيز الحراسة واليقظة والاستعداد لرد أي هجوم من طرف الفرنسيين، وأصدر أوامر إلى الباشا بمعارضة أي شيء يأتي من القنصل الفرنسي، والسماح له بالذهاب إذا أراد، مما يعني أن الأمر سيؤول إلى القطيعة إذا تشبثت فرنسا بموقفها حول تلمسان»[6].

ب- تعسف الجيش المغربي بتلمسان يقود إلى أزمة خطيرة بفاس.

لا شك أن قبول السلطان مولاي عبد الرحمان لبيعة أهل تلمسان، حمل معه مسؤولية كبيرة، كان السلطان على وعي بها، وهي حماية الجزائريين والعناية بأحوالهم، في إطار التضامن والأخوة في الدين، ومراعاة الظروف الصعبة التي يمرون بها، وقد عبر السلطان عن ذلك في رسالة إلى باشا تطوان بخصوص الجزائريين بصفة عامة، ومما جاء فيها:

«إن أهل الجزائر ناس غرباء أخرجهم العدو الكافر من أرضهم ووطنهم. والتجأوا إلى إيالتنا، واستظلوا بظل عنايتنا، فينبغي أن نؤنس وحشتهم، ونعاملهم بما يناسب غربتهم، لأنهم إخواننا في الدين. وقد أمرنا خديمنا

5- نفسه، مراسلة رقم 1 من طنجة، سنة 1831، ص. 451.

6- نفسه، مراسلة رقم 8، سنة 1831، ص. 453.

الطيب البياز أن يسقط عنهم الكلف والوظائف كلها قلّت أو جلّت، رعاية لذلك، وتطوان تبع فاس، فلا تترك من يكلفهم بشيء قل أو جل. وأحسن جوارهم، وعاملهم بما يناسب حالهم، ويظهر أثر العناية والرعاية لهم، تطييبا لنفوسهم وجبرا لخواطرهم»[7].

وما ينطبق على تطوان وفاس ينطبق على تلمسان التي دخلت في طاعة السلطان، إلا أن السلطة المغربية من جيش وموظفين أساءت السيرة حسب ما يبدو من المصادر المغربية نفسها، فأمر السلطان بعودة الجيش، وأمر بمعاقبة قادته المسؤولين عن التعسف الذي لحق السكان، مما أدى إلى انتفاضة الجيش وحدوث فتنة كادت أن تطيح بالسلطان، ولم يقض عليها إلا بصعوبة[8]. وقد وصلت أصداء هذا الموضوع إلى القنصل البرتغالي في طنجة، حيث أرسل يخبر بلده ببعض التفاصيل التي وصلت إلى علمه عنها، كما يلي:

«اشتكى التلمسانيون من تعسف الجيش المغربي -الذي قام بتجاوزات وأعمال نهب- وهم الذين كانوا يرغبون في تجنب العسف الفرنسي، ونتيجة لذلك أمر السلطان بسحب الجيش وعودة قائده ابن عمه الأمير مولاي علي ليبقى بجانبه بفاس، وعاقب المتسببين في التعسف على سكان تلمسان، وسجن أهم قواد فرق العبيد والأودابة، مما أدى إلى ثورة، وكاد الوزير ابن علي يقتل فيها أمام السلطان. لكن الأخير، أعاد الكرة وأمسك بزمام الأمر وقضى على رؤوس الفتنة، وبعث بالخبر إلى كل المدن لإعلان الأفراح، وقد وصل الخبر إلى طنجة أمس الأحد»[9].

ت- تأثير مشكل تلمسان على العلاقات بين المغرب وفرنسا:

يتضح من رسائل القنصل إلى دولته، أن مشكل تلمسان ظل جاثما على العلاقات بين المغرب وفرنسا، لما يزيد عن سنة أخرى، وأنه كان محل مفاوضات وشكايات وضغوط شديدة على المخزن المغربي، الذي تشبث بقوة بحقه في حماية التلمسانيين، طبعا لما تفرضه روابط الأخوة وتعاليم الدين الإسلامي. وقد توالت السفارات الفرنسية التي كانت مصحوبة أحيانا بسفن عسكرية أو استطلاعية، فيما يشبه التلويح باستعمال القوة العسكرية، مع أن المخزن

7- نقلا عن إدريس بوهليلة، **الجزائريون في تطوان خلال القرن 13هـ/ 19م، مساهمة في التاريخ الاجتماعي المغربي**، مطبعة الهداية، تطوان، 2012، من تقديم محمد الشريف، ص. 6.

8- تحدث القنصل البرتغالي عن ثورة جيش الوداية، في شهر يونيو 1831، والأخطار التي أحدقت بالسلطان إلى أن تمكن من السيطرة على الوضع، في رسالة بتاريخ 8 يوليوز، أنظر، عثمان المنصوري، **العلاقات المغربية البرتغالية**، ج2، المراسلة رقم 14، ص. 454-455.

9- نفسه، رسالة جورج كلاصو إلى وزير الخارجية فيكونت سانطارم، المراسلة رقم 10، من طنجة، بتاريخ 18 أبريل 1831، ص. 453. ينظر أيضا، الناصري، **الاستقصا**، ج 9، ص. 32-37.

المغربي كان واعيا بقوة الفرنسيين، وما يشكلونه من خطر على البلاد، بعد أن استقروا بالجوار وبدأت مطامعهم تتجه إلى الحدود المغربية وما وراءها. ويكفي أن نستعرض فقرات من رسائل القنصل البرتغالي في هذا الموضوع، لتتضح لنا ملامح هذه المنافسة الشرسة غير المتكافئة، ومدى التضحيات التي بذلها المخزن المغربي، للحفاظ على تلمسان والالتزام بعقد البيعة الذي يربطه بأهلها، نقتبسها من الرسائل السبع التالية:

- «يوم 18 من الشهر الحالي، رست بميناء طنجة بريك وغوليطة فرنسيتان، بينما ظلت سفينة أخرى بعيدة عن المرسى. وقد قدمت هذه السفن من بريست للمطالبة بترضية القنصل الفرنسي في مسألة احتلال المغرب لتلمسان، وتعيينه حاكما مغربيا هناك هو ابن العامري، الذي يقال إنه قام بمحاولات للتوغل في التراب الجزائري ضد وهران. ويقال إن فرنسا تطالب أيضا ببعض الأسرى الذين أسرهم قراصنة جزائريون وسلموهم بتطوان والعرائش في شتنبر 1828.

بعثت السفينتان رسالة إلى القنصل والباشا بمجرد رسوهما، وطالبتا بأن يقوم السلطان بشجب تصرفات الباشا بلعامري وعزله عن تلمسان. وكان السلطان بدوره قد قدم في بداية الشهر عدة مطالب من بينها الترضية بشأن التاجرين المغربيين اللذين قام الفرنسيون بإعدامهما في وهران، ومصادرة أموالهما وبضائعهما، بدعوى أنهما يعملان لصالح بلعامري. وبعد ذلك غادرت السفينتان طنجة أمس الأمس في اتجاه البحر المتوسط»[10].

- «وصول جواب السلطان للقنصل الفرنسي، ومجمل الجواب أن السلطان حينما بسط نفوذه على تلمسان، فلأنه لا يمكنه تجاهل نداء [إخوة] عرب مسلمين، وأن هذا لا يعني دخوله في منافسة مع الفرنسيين حول المناطق المأخوذة من الترك الجزائريين، وأن ابن العامري إذا قام بأي محاولة لغزو التراب الجزائري فإن ذلك لم يتم بترخيص منه، ولهذا سيعاقب على ذلك، وعن الأسرى الفرنسيين الذين كانوا في تطوان والعرائش فقد سلمهم منذ ذلك الوقت لحكومة الجزائر حيث يوجدون الآن. وبخصوص التاجرين المغربيين اللذين أعدما بوهران وسلبت أموالهما، فيرى أنه كان من الواجب تسليمهما للمغرب، فالمغرب لا يمكنه مثلا أن يقوم بعمل مماثل فيما لو وجد به رعايا فرنسيون أغنياء، وما كان ليبحث عن سبب لتبرير الاستيلاء على أموالهم، لذلك يطالب بترضية في هذه المسألة حتى لا تتكرر في المستقبل»[11].

- «يوم 24 من الشهر الجاري، رست كورفيطة عسكرية فرنسية بميناء طنجة، وقد قدمت من طولون وعلى متنها المبعوث الفرنسي إلى السلطان

10- نفسه، رسالة من طنجة بتاريخ 26 نونبر 1831، المراسلة رقم 24، ص. 458.

11- نفسه، رسالة من طنجة بتاريخ 5 دجنبر 1831، المراسلة رقم 26، ص. 459.

المغربي الكونت (De Morney) ونزل إلى البر صباح يوم 25 يناير، واستقبل
من سلطات المدينة بالاحتفاء المعتاد، وقدم معه ترجمان رسمي للعربية،
ورسام، ويظهر أن هدف هذه الزيارة الاتفاق نهائيا على موضوع تلمسان
وغيرها من النقط التي فيها خلاف بين البلدين »[12].

- «توجه مبعوث فرنسا بالأمس إلى بلاط مكناس، بحراسة 100 فارس. وقد
تلقى حكام كل المناطق التي سيمر منها أوامر ليخرجوا لتحيته في الطريق، مع
كل الفرق العسكرية الموجودة تحت إمرتهم، حسب البروتوكول المعتاد.
يقال إن الهدية التي حملها معه إلى السلطان تتكون من آنية فضية لإعداد
الشاي، وبعض البنادق، والمسدسات، وأثواب مطرزة وقطع النسيج.
يظهر أن السلطان ما زال لحد الآن متشبثا بتلمسان ولا يريد الرجوع عنها،
لأنه يقال إنه أرسل مؤخرا فرقا عسكرية جديدة إليها»[13].

«عاد كونت مورني من زيارته للسلطان يوم 12 من الشهر الجاري، ومعه
لبؤة ونمر وثور وحشي ونعامتان وغزالتان وأربعة جياد، هدية من السلطان
إلى ملك فرنسا. وأهدى فرسا وسرجا إلى الكونت، وفرسين إلى المترجم والرسام.
وحول الموضوع الساخن [تلمسان] يقال إن المحادثات تكررت وأن فرنسا
تطالب السلطان بتركها، وأن المشكل سيتعقد عندما تصل الجيوش الفرنسية
وتتخذ مواقعها أمام تلمسان.
هناك تخوف من أن يقوم الحاكم ابن العامري بالتوسع خارج تلمسان،
وكان ذلك موضوع مباحثات المبعوث الفرنسي، إضافة إلى موضوع احتلال
تلمسان. وقد وعد السلطان -ربما- بإنهاء الاحتلال، وكذلك إطلاق سراح
الأسرى الفرنسيين الذين وضعهم الجزائريون بموانئ العرائش وتطوان. كما أن
على الفرنسيين إرجاع أموال المغربيين اللذين أعدما في وهران. ثم هنالك
مشكل تعويض سفينة فرنسية اضطرها حراس السواحل المغربية إلى اللجوء
إلى منطقة أنجرة، وهناك تم سلب كل ما فيها من سلع وأموال.
سيبقى الكونت قليلا ليتأكد من تحقيق الوعود، ولتلقي الأوامر فيما يخص
مسيرة العرب المستقلين إلى الجزائر»[14].

«عاد بلعامري حاكم تلمسان إلى فاس، ومنها ذهب صحبة الوزير الحاج
الطالب بنجلون إلى الرباط للقاء السلطان.

12- نفسه، رسالة من طنجة بتاريخ 28 يناير 1832، المراسلة رقم 2، ص. 460-461.
13- نفسه، رسالة من طنجة بتاريخ 6 مارس 1832، المراسلة رقم 5، ص. 461.
14- نفسه، رسالة من طنجة بتاريخ 26 أبريل 1832، المراسلة رقم 7، ص. 462.

وغادر مبعوث فرنسا ميناء طنجة إلى قادس يوم 10 من الشهر الماضي، ومنها انتقل برا إلى جبل طارق، ثم عاد إلى هنا يوم 4 من هذا الشهر، واليوم رحل إلى طولون»[15].

- «عاد موظف قنصلي بالأمس من العرائش، بعد إحضار الأسرى الفرنسيين، بمقتضى اتفاق بين فرنسا والمغرب. وقد يذهب في نفس المهمة إلى تطوان يوم 9 من الشهر الجاري»[16].

تعطي الوثائق السبع أعلاه الخطوط العريضة لتطورات مشكل تلمسان، ويتضح منها أن المغاربة بادروا منذ بداية الاحتلال الفرنسي إلى دعم الجزائريين، سواء باستقبال اللاجئين الذين هربوا خوفا على دينهم من العدو "الكافر"، وفضلوا الإقامة في ديار الإسلام، أو بمساندة المناطق التي كانت في حاجة إلى حماية، وطالبت السلطان المغربي الأقرب إليها بالقيام بدوره كحام للمسلمين، وبايعته. وهو الأمر الذي اعترضت عليه فرنسا التي اعتبرت نفسها وريثة للحكم السابق، وللمناطق التي كانت خاضعة له. وخلال حوالي السنتين، عانى المغرب من ضغوط فرنسية قوية، وصلت إلى حد المجابهة، ولم يتخل عن واجبه في الدفاع عن الجزائريين ضد الفرنسيين، حيث وصل بل العامري إلى وهران وحاصرها، وخاض مجموعة من الحروب ضد الفرنسيين بتنسيق مع السكان[17]. وكل هذا مع وعي من المخزن المغربي بالمخاطر التي يمكن أن يتعرض لها بسبب موقفه هذا، وبسبب التفاوت الكبير بينه وبين القوة الفرنسية المعززة ضمنا بالقوى الأوربية المتربصة بالمغرب. ومن البديهي أن المغرب حين أحس بميزان القوى يميل كثيرا لصالح الفرنسيين، بعد أن وطدوا أقدامهم في الجزائر، وانطلقوا منها لتثبيت نفوذهم شرقا وغربا، وحين وصلوا إلى تلمسان، اضطر بعد مفاوضات طويلة إلى أن يرضخ مؤقتا للأمر الواقع. والمعلومات التي نجدها عند القنصل، متداولة لدى المؤرخين المغاربيين، والفرنسيين، وموجودة في أرشيف القنصلية الفرنسية بطنجة، وبتفصيل أكبر، إلا أن ما يميز المجموعة البرتغالية هو الحياد والمصداقية، ويستطيع المهتمون بتفاصيل هذا الموضوع أن يشفوا الغليل بالاطلاع على الدراسة التي أنجزها إبراهيم ياسين عن الوجود المغربي في تلمسان خلال سنتي 1830 و 1832[18].

15- نفسه، رسالة من طنجة بتاريخ 9 يونيو 1832، المراسلة رقم 11، ص. 463.

16- نفسه، رسالة من طنجة بتاريخ 3 غشت 1832، المراسلة رقم 13، ص. 464.

17- إبراهيم ياسين، **سلطة مغربية في غرب الجزائر، دراسة تاريخية : 1830-1832**، مطابع الرباط نت، 2015، ص. 115-120. انظر أيضا، إسماعيل حمت، **الحكومة المغربية واحتلال الجزائر**، تقديم علي تابليت، ترجمة زكي مبارك ومحمد لخواجة، دار أبي رقراق، 2010.

18- إبراهيم ياسين، **سلطة مغربية في غرب الجزائر**، مرجع سابق.

2- الدعم المغربي لثورة الأمير عبد القادر:

كان هذا الموضوع أيضا مثار تأويلات عديدة، وصل الحد ببعضها إلى اتهام المغرب بالتآمر والخيانة والعمل على إجهاض هذه الثورة، بدون وضع الأمور في سياقاتها التاريخية وظرفيتها الدولية، ومراعاة إكراهات الضغوط الأوربية على المغرب، وهشاشة بنياته الاقتصادية والعسكرية.

يمكن أن نسجل هنا ومن خلال الوثائق البرتغالية أن المغرب سارع إلى دعم الأمير عبد القادر منذ سنة 1836، تاريخ أول رسالة تتحدث عنه في مراسلات القنصل البرتغالي، واستمر هذا الدعم لما يربو عن تسع سنوات. وتحمل المغاربة من أجل ذلك ضغوطا شديدة، ووصل الأمر في كثير من الأحيان إلى حافة المجابهة العسكرية، وارتفاع مستوى التأهب والاستعداد تحسبا لأي هجوم فرنسي من البحر، مع وقوع اشتباكات على الحدود الشرقية، وتحمل المغاربة لردود فعل الفرنسيين على هجومات الأمير عليهم ومطاردتهم له داخل التراب المغربي الذي كان يحتمي فيه من ضغط المطاردة الفرنسية. أما عن توقف الدعم المغربي للأمير، فإن الوثائق تكشف عن العنف الرهيب الذي تعرض له المغرب، من الأسطول الفرنسي، قبل معركة إيسلي، بحيث يمكن التساؤل هل كان بإمكانه آنذاك أن يستمر في موقف الدعم والمساندة، ويفضي بالبلاد إلى مصير مشابه للقطر الجزائري؟

أ- أكثر من عقد من الدعم المتواصل:

بعد أن حسم الفرنسيون مشكل تلمسان لصالحهم، انطلقت ثورة الأمير عبد القادر لمقاومة الاحتلال الفرنسي في الجزائر، وعلى عكس ما هو شائع، فإن دعم المغاربة للأمير ظهر منذ البداية، أي منذ سنة 1832، التي تؤشر على بدايتها، وكان ذلك استمرارا بشكل جديد للدعم الذي سبق للمغاربة أن قدموه للحفاظ على تلمسان. إلا أن أصداء هذا الدعم لم تصل إلى أرشيف القنصلية البرتغالية إلا سنة 1836، حيث نجد أول إشارة إلى الأمير، بسبب احتجاج فرنسا على الدعم الذي كان المغاربة يقدمونه له، في وقت كان يجاهر فيه ببيعة السلطان وتبعيته له، في إطار ما تمليه تعاليم الدين من تضامن بين المسلمين ضد العدو "الكافر". وقد ازدادت حدة المشكل سنة 1842 بلجوء الأمير إلى المغرب، واستغلال مجاله للفرار من مطاردة الفرنسيين، وتنظيم صفوفه وإعداد حملاته، مما تسبب في حوادث واشتباكات على الحدود، بين الفرنسيين وأنصارهم من القبائل الجزائرية من جهة، وبين الأمير والقبائل الموالية له من جهة أخرى. ويمكن أن نلمس تطور هذا المشكل، وتأثيره على العلاقات بين المغرب وفرنسا، ومدى تشبث المغاربة بنصرة الأمير، من خلال مقتطفات من المراسلات التي بعثها القنصل البرتغالي

إلى بلده، وخاصة خلال سنوات 1836 و1840 ثم 1842، وهي السنوات التي طفا فيها المشكل واستلزم بعض التحركات السياسية والدبلوماسية من لدن الطرفين.

أول الإشارات نجدها في رسالة بعثها القنصل البرتغالي جورج كلاصو إلى وزير خارجية بلده آنذاك "ماركيز لولي" (Marquis de Loulé)، جاء فيها:

«يوم 30 من الشهر الماضي، رست بطنجة ثلاث سفن فرنسية قادمة من بريست وتركت لقنصلها هنا مراسلة رسمية. ثم جرت بعد ذلك مفاوضات مع باشا المدينة. وقد أبدى الفرنسيون أسفهم وأعادوا شكواهم من كون القوات الفرنسية التي حاربت محي الدين وجدت في تلمسان بعض الفرق العسكرية الحاملة لرايات مغربية، كانت تساعد عدو فرنسا هذا.

لكن الباشا أخبرهم أن هؤلاء المغاربة لا يخضعون لسلطة السلطان، وهم عبارة عن جماعة من المتشردين والدهماء والخارجين على النظام، الذين لم يبايعوه، وأن غرضه الحفاظ على علاقات حسنة مع فرنسا. وبعد ظهر اليوم عادت السفينة إلى طولون »[19].

واضح من الرسالة أن شكاية الفرنسيين لم تكن الأولى، كما أن المخزن المغربي تنصل من المسؤولية لتفادي الاصطدام بالفرنسيين، وأكد لهم أن لا علاقة له بهؤلاء الذين يدعمون محي الدين، وهو ما ستفنده وثائق أخرى.

بعد شهرين، وصل إلى المغرب وفد رسمي، لتدارس المشكل مع السلطان المغربي، مما يعني أن حجمه ازداد اتساعا، ويظهر أن المخزن المغربي استطاع احتواء هذه الأزمة، وأن السفارة الفرنسية تمكنت من إزالة التوتر الذي ساد العلاقات بين البلدين، دون أن تتمكن من القضاء على التوجس والحذر اللذين سيطرا على الجانب المغربي. جاء في الرسالة الأولى الموجهة إلى وزير خارجية البرتغال "كونت فيلا ريال" (Conde de Vila Real):

«يوم 5 من هذا الشهر، رست بطنجة السفينة الفرنسية (Scipiao) بقيادة (Villeneuve) قادمة من طولون ومعها الفرقاطة المسماة (Erminia) بقيادة وصوف (Wassof) وعلى متنها بارون دولا رو الذي نزل منها في صباح اليوم التالي في الساعة الحادية عشرة. وقد استقبل بالحفاوة المعهودة في هذه المناسبات.

19- عثمان المنصوري، العلاقات المغربية البرتغالية، ج2، المراسلة رقم 9، طنجة بتاريخ 4 ماي، 1836، ص. 484.

جاء البارون في مهمة من ملك فرنسا تتعلق بما يقدمه بعض المغاربة من مساعدات للأمير عبد القادر الجزائري. ويظهر أن هذه المهمة ستنتهي وديا. وقد رافقه في المهمة الترجمان دولا بورط»[20].

وقد عاد السفير الفرنسي مجبور الخاطر من مكناس، لكن فقرة من رسالة القنصل بينت أن المخزن المغربي شرع في الاستعدادات وتفقد تجهيزاته العسكرية مباشرة بعد مغادرة المبعوث الفرنسي !

«عاد مبعوث فرنسا من مكناس، يوم 14 من هذا الشهر، وقد حل المشاكل العالقة بين الدولتين بود وسلام. وقد أهداه السلطان فرسين وآخرين للأمير ابن ملك فرنسا. وبالأمس ركب سفينته التي غادرت الميناء اليوم إلى طولون. وصلت أوامر السلطان بتسليح سفنه العسكرية الموجودة بنهر العرائش، وكذلك اللانشات الخمس التي صنعت منذ سنوات في ميناء طنجة، والتي لم تخرج مطلقا في البحر. ولا يعرف حاليا ضد من اتخذت هذه الإجراءات»[21].

لا يظهر أن المشكل انتهى، ولكن حدته خفت، بحيث سننتظر ثلاث سنوات ونصف تقريبا ليطفو من جديد على سطح العلاقات المغربية الفرنسية، وذلك ابتداء من فبراير 1840، حيث ساد لدى المغاربة نوع من الحذر من ردود فعل فرنسية محتملة:

«يظهر أن هناك خلافا بين حكومة فرنسا وسلطان المغرب بسبب المساعدات التي يقدمها السلطان للأمير عبد القادر محي الدين، وهناك ترتيبات دفاعية قائمة بالنسبة للمدفعية تحسبا لكل رد فعل فرنسي، وكذلك الشأن بالرباط»[22].

وقد توصل القنصل الفرنسي برسالة جوابية من السلطان، في نفس الشهر، لطمأنته والتأكيد على أن الذين يدعمون الأمير لا يخضعون لسلطته، ولا يفعلون ذلك بناء على أوامره، ولم يغفل القنصل البرتغالي عن الإشارة إلى وجود أسطول فرنسي قبالة طنجة، في محاولة للضغط على الطرف المغربي، ولعل ذلك هو الذي يفسر الترتيبات الدفاعية المومأ إليها في النص السابق أعلاه:

20- نفسه، رسالة من طنجة بتاريخ 8 يوليوز 1836، المراسلة رقم 12، ص. 484.

21- نفسه، رسالة من طنجة بتاريخ 18 غشت 1836، المراسلة رقم 15، ص. 488.

22- نفسه، رسالة من طنجة بتاريخ 6 فبراير 1840، المراسلة رقم 4، ص. 513.

«وصلت رسالة من سلطان المغرب إلى قنصل فرنسا يعلن فيها عن رغبته في الحفاظ على السلم مع فرنسا، وعلى العلاقات الحسنة والانسجام. ويؤكد على أنه لا يساعد عبد القادر وأن الرعاع من رعاياه الذين يعملون تحت رايته لا يعملون برضى السلطان.

في الانتظار يوجد أسطول فرنسي بالميناء يدعي قائده أنه جاء فقط لأهداف سلمية، لكنه لحد الآن لا تعرف نتيجة المفاوضات»[23].

ويظهر من مراسلات القنصل البرتغالي، أن المشاكل بين الطرفين، لا تزيد إلا تفاقما، في اطراد مع ارتفاع حدة المواجهات بين الأمير وقوات الاحتلال الفرنسي، وتزايد الدعم الذي يتلقاه من المغاربة. وكان السلطان المغربي يتأرجح بين تفادي الاصطدام مع القوة الفرنسية التي تشكل خطرا على استقلال البلاد، وبين واجبه في دعم الأشقاء المسلمين في جهادهم ضد المحتل "الكافر". وكان الطرف الفرنسي يدفع المخزن إلى اتخاذ مبادرات واضحة لمد جيوشه بالمساعدات المادية بدون مراعاة لما يشكل ذلك من ضرر بالسلطان الذي لا يستطيع الإخلال بالتزاماته الدينية إزاء إخوانه المسلمين، وبلغ الضغط الفرنسي أوجه حين طلبت الحكومة الفرنسية من المغرب تزويده بالثيران لتزويد الحامية الفرنسية في وهران بحاجياتها من اللحوم، وبالخيول لتعزيز قدراتها العسكرية:

«سعت الحكومة الفرنسية إلى الحصول على عدد من الثيران لتزود مدينة وهران باللحم. وقد قدمت لهذا الغرض خمس سفن إسبانية إلى ميناء طنجة لنقلها بعد شرائها. وقدرت قيمة الحقوق ب10 بسيطات لكل رأس، لكن وصل أمر سلطاني يمنع تصديرها، واضطرت السفن إلى العودة فارغة.

بعد ذلك ذهب القنصل الفرنسي إلى السلطان، ووضح له الخسائر الكبيرة التي مني بها بسبب المنع، فأمر السلطان أن يتم نقل الأبقار المذكورة في مدة 40 يوما مع بقاء المنع على جميع الصادرات من ذلك النوع. ولعل قراره هذا لإبعاد الشبهة عنه، لأن ذلك اللحم موجه إلى الفرق العسكرية الفرنسية التي تحارب المسلمين الجزائريين.

طلب القنصل الفرنسي رخصة من السلطان لتصدير الخيول، وكان جواب السلطان هو دفع 1000 بسيطة كحق جمركي عن كل حصان، مما يعني عمليا فشل مسعاه»[24].

23- نفسه، رسالة من طنجة بتاريخ 27 فبراير 1840، المراسلة رقم 5، ص. 513.

24- نفسه، رسالة من جورج كلاصو إلى "ماغالياينش" (Magalhães) وزير الخارجية من طنجة بتاريخ 30 أبريل 1841، المراسلة رقم 7، ص. 523.

مما يعني أن السلطان عمل على عرقلة صفقة تزويد وهران بالثيران، مما أدى في الأخير إلى صرف النظر عنها، كما أنه بالغ في الرسوم المطلوبة عن تصدير الخيول، مما يعني عمليا الرفض، تحرجا من تقديم الدعم للعدو "الكافر" ضد إخوانه المسلمين.

ب- لجوء الأمير إلى التراب المغربي وتداعياته:

اضطر الأمير إلى نقل مجال مناوراته إلى داخل التراب المغربي، ابتداء من سنة 1842، مما أدى إلى احتدام الخلاف بين المغرب وفرنسا، وتطوره إلى مواجهات دبلوماسية وعسكرية، أدخلت المغرب في سلسلة من الأحداث المتراكمة التي انتهت بالصدام العسكري وهزيمة إيسلي، وهو ما أثارته عدة مراسلات للقنصل البرتغالي إلى دولته، ومنها مراسلة من "ريموندو كلاصو" (Raymundo Colaço) إلى "دوق ترسييرا" (Duque da Terceira)، جاء فيها:

«ومؤخرا وصل إلى طنجة إعلان من السلطان ليقرأ في المساجد على العموم، وفيه آيات قرآنية، ويحض فيه شعبه ويحفزه لكي يبقى في كامل التعبئة واليقظة ومستعدا لصد أي هجوم أو غزو حتى لا يؤخذ على حين غرة، لأنه حسب التقاليد والاعتقادات الاسلامية فإن بني الأصفر [الفرنسيين] سيهاجمون هذا البلد، ويصلون حتى فاس حيث ستتم هزيمتهم.

في نفس الوقت وصلت أوامر بتحصين وتقوية الحاميات العسكرية وإمدادها بالذخائر الحربية، في كل نقط هذا الساحل، وشرق وغرب ميناء طنجة.

تظهر باستمرار سفن عسكرية فرنسية، كما أن المراسلات تكثفت من القنصل الفرنسي إلى السلطان، وينصب موضوعها على المساعدات التي يتلقاها جنود الأمير عبد القادر من التراب المغربي، وهي مساعدات تلح الدولة المغربية على أنها ليست بأمر منها ولا برضاها»[25].

ولا بأس أن نتوقف قليلا عند هذه الرسالة، التي تبين القلق الشديد الذي انتاب المغاربة من احتمال قيام الفرنسيين بهجوم على الساحل، وهم يستحضرون بدون شك مناسبات سابقة، مثل احتلال نابليون لمصر، ووصوله إلى إسبانيا، في عهد مولاي سليمان، وتخوف المغاربة آنذاك من عبوره إلى المغرب على قنطرة من الخشب ! واستعداد المغاربة لمواجهة خطر بني الأصفر [فرنسا] المحدق بالبلاد، وقراءة خطب الجمعة التي تشحذ هممهم

25- نفسه، المراسلة رقم 8، من ريموندو كلاصو إلى دوق ترسييرا وزير الخارجية من طنجة بتاريخ 15 أبريل 1842، ص. 535.

الناس للجهاد، ومنع الفرنسيين من احتلال البلاد والوصول إلى فاس، كما هو شائع لدى الناس، وكما تحقق فعلا في سنة 1912[26].

بعد شهرين من الرسالة السابقة، ازدادت العلاقات توترا بسبب إصرار السلطان على مد الأمير عبد القادر بالمساعدات المادية والعسكرية، وتضايقه من تطاول القنصل الفرنسي، وربما من استعراض فرنسا لعضلاتها العسكرية بإرسالها لبعض السفن التي أصبحت تواكب تحركاتها الدبلوماسية، أو تراقب حركة الميناء باستمرار، كما يتضح من مقتطفات الرسائل التالية:

«وصل مؤخرا جواب السلطان الذي انتظره القنصل كثيرا. وحسب بعض المصادر المؤكدة، يظهر أنه تضمن عبارات شديدة اللهجة.

تأكد أيضا، في نفس الوقت، خروج قوافل من فاس، وبها ذخائر الحرب والأحمال الثقيلة إلى فرق الأمير عبد القادر، مما يعني أن السلطان لم يخضع لرغبات وطلبات الحكومة الفرنسية.

عادت السفينتان اللتان سبق أن توجهتا إلى جبل طارق إلى الظهور أمام الميناء، ثم توجهتا نحو المحيط، وظلتا راسيتين أمام مدخل ميناء العرائش، التي يوجد فيها حاليا الباشا حاكم طنجة، ومن هناك توجهتا إلى ميناء الصويرة. وفي ميناء طنجة توجد بشكل دائم سفينة عسكرية فرنسية، أضيفت إليها اليوم بريك وباخرة»[27]

وقد توصل الطرفان إلى اتفاق لحل الخلاف، في ظل تردد بعض السفن العسكرية الفرنسية على طنجة، وبعض الموانئ المغربية الأخرى وخاصة ميناء الصويرة المهم، وذلك لشغل المغرب عن التركيز في المشكل الشرقي، بل إن فرنسا حاولت، كما يتبين من الرسالة التالية، شغل السلطان بثورة في الجنوب، إلا أن جهودها واتصالاتها بالشيخ بيروك لم تفلح في ذلك:

«ما زالت السفن الفرنسية المذكورة في المراسلة السابقة راسية بالميناء، والقطعتان الأخيرتان [بريك وباخرة] تذهبان إلى جبل طارق وتعودان منه بين الفينة والأخرى.

يظهر أن المغرب وفرنسا في طريقهما إلى التوصل إلى حل نهائي للخلاف القائم بينهما، وإعادة الاتفاق إذا لم يقع ما من شأنه أن يعكر الجو بينهما.

26- للمزيد من التفصيل حول الموضوع يرجى الرجوع إلى، عثمان المنصوري، «صدى الحملة النابليونية في المغرب»، **أبحاث مؤتمر العلاقات المصرية المغربية عبر التاريخ**، فبراير 2002، ج1، مطبعة جامعة حلوان، ص. 205-227. محمد بن عبد السلام الضعيف، **تاريخ الدولة السعيدة**، تحقيق أحمد العماري، الرباط، 1986، ص. 342-344.

27- عثمان المنصوري، **العلاقات المغربية البرتغالية**، ج2، المراسلة رقم 9، من ريموندو كلاصو إلى دوق ترسيرا، طنجة بتاريخ 18 يونيو، 1842، ص. 536.

وقد أعطى السلطان أوامره في فاس بمنع أي تبادل أو أية علاقة بين رعاياه والأمير عبد القادر، وأكد على ضرورة تعيين الحدود الشرقية لحل المشكل.
اتجهت السفن الفرنسية -التي كانت راسية بالصويرة- سرا إلى سوس (واد نون)، لتقيم هناك تحالفا مع الشيخ بيروك. وقد أبدى الفرنسيون استعدادهم لمده بالمساعدات. وعادت السفن، لكن الشيخ -حسب ما قيل- أخبر السلطان بكل شيء»[28].

لم ينحصر المشكل مع فرنسا في دعم الأمير، ولكنه اتسع بسبب تجاوز الجيش الفرنسي التراب المغربي، ودخوله في مواجهات مع المغاربة من مدنيين وعسكريين داخل الحدود المغربية المتفق عليها، مما أدى إلى ردود فعل تنامت لتنيخ بكلكلها على العلاقات من جديد، وتجر المغرب شيئا فشيئا إلى المواجهة العسكرية:

«حسب أخبار من داخل المغرب، يقولون إن بعض الجنود الفرنسيين من حامية تلمسان توغلوا داخل حدود المغرب الشرقية في وجدة، فهاجمهم المغاربة وقتلوا منهم ضابطا، ثم إن الفرنسيين كروا على المغاربة وألحقوا بهم خسائر كبيرة، وأسروا بعضهم. ولا شك أن هذا الحادث سيخلق مشاكل جديدة بين الدولتين»[29].

ت- في الطريق إلى الاصطدام العسكري سنة 1844:

ساءت العلاقات المغربية الفرنسية، كما هو معلوم، في منحى تصاعدي، بسبب نفس المشكل المعلن وهو دعم المغاربة للأمير الجزائري، الذي أصبح مكشوفا مع توالي السنين، ولم يعد السلطان يتنصل منه، وكان يبرره بأن نجدة المسلمين واجب في عنقه لا يمكنه التخلي عنه. أما المضمر في هذه العلاقات فهو أطماع فرنسا ومجموعة من الدول الأوربية في المغرب، وتحينها الفرص لفرض هيمنتها الاقتصادية والسياسية، والحصول على مصالح وامتيازات، تمهد لوضع يدها عليه.

سنتبين في المقتطفات التالية من مراسلات القنصل البرتغالي إلى دولته، كيف تطورت الأوضاع سنة 1844، لتنتهي بهجوم الأسطول الفرنسي على طنجة، ثم الصويرة. فبعد أن أخبر دولته في 27 مارس 1844، بأن المشكل بين فرنسا والمغرب وصل إلى الطريق المسدود بدون

28- نفسه، رسالة من ريموندو كلاصو إلى دوق ترسيرا من طنجة في 25 يوليوز 1842، المراسلة رقم 16، ص. 539.
29- نفسه، رسالة من ريموندو كلاصو إلى وزير الخارجية الجديد "جوزي جواكين غومش دو كاشترو" (José Joaquim Gomes de Castro)، من طنجة في 10 ماي 1843، المراسلة رقم 9، ص. 545.

وجود حل في الأفق، وأن القنصل الفرنسي كثف من زياراته للباشا وللسلطان في الآونة الأخيرة[30]، عاد في شهر أبريل للحديث عن جو التعبئة والاستعداد في المغرب، وبعض مظاهر التوتر الناتجة عن المشكل:

«أرسل القنصل الفرنسي رسالة إلى السلطان، وبعد ذلك خرجت البريك الفرنسية من طنجة. سيطلب الفرنسيون من السلطان تعيين قنصل فرنسي بفاس وآخر بوجدة، لكن السلطان استظهر عضلاته بجمع فرق الجيش، والقيام بعروض عسكرية. ومؤخرا وصل إلى الباشا، الموجود بالعرائش، مكتوب قرئ في اجتماعات متعددة يدعو الناس إلى الاستعداد والبقاء في حالة تأهب وفيه آيات قرآنية وأحاديث نبوية وأوامر بالدفاع والحذر»[31].

وفي خضم هذا الصراع الدبلوماسي، لم يخف بعض المسؤولين المغاربة حماسهم وإعجابهم بالأمير عبد القادر، ففي لقاء الباشا مع نائب القنصل الإسباني، **«أبدى إعجابه بمقاومة عبد القادر قائلا: إنه رجل واحد فما بالك بأمة كاملة. وقد رد عليه النائب بأن استمراره في المقاومة ناتج عن دعم المغاربة له، لكنه أجاب بأن الدعم توقف منذ أن أخذ السلطان يخشى على عرشه من هؤلاء المرابطين»**[32].

وحمل شهر يونيو أحداثا جديدة أكثر خطورة، بسبب الاصطدام في الحدود بين قوات مغربية وأخرى فرنسية، مما دفع المغاربة إلى تعزيز قواتهم في المنطقة، والفرنسيين إلى الاحتجاج والتهديد بالرد بقوة وإرسال السفن العسكرية والضغط على المخزن، وتوظيف الدبلوماسية الفرنسية والأوربية وخاصة منها الانجليزية:

«ويوم 7 من هذا الشهر، رست باخرة عسكرية فرنسية بطنجة، قادمة من وهران. وسبب مجيئها هو الاصطدام الذي وقع في الحدود بين المغاربة والفرنسيين، حيث توجه من التراب المغربي عبيد السلطان مع فرقة مكونة من الأعراب المغاربة. كان جيش العبيد يتكون من 200 من الحرس السلطاني، وعدد من الرماة، ودخلوا إلى الخطوط الفرنسية، لكنهم اكتشفوا من طرف حامية تلمسان، وطلب الحاكم الفرنسي لهذه النقطة النجدة من وهران ومن الجنرال قائد الجزائر الذي بعث له نجدة من فرق المدفعية. وقد بدأ الأعراب

30- نفسه، رسالة من ريموندو كلاصو إلى دو كاشترو، من طنجة، المراسلة 7، ص. 552.

31- نفسه، رسالة من ريموندو كلاصو إلى دو كاشترو، من طنجة، بتاريخ 19 أبريل 1844، المراسلة 8، ص. 553.

32- نفسه، رسالة من ريموندو كلاصو إلى دو كاشترو، من طنجة، بتاريخ 6 ماي 1844، المراسلة 10، ص. 554. وعن إعجاب المغاربة بمقاومة الأمير عبد القادر، يمكن الرجوع إلى أحمد الناصري، الاستقصا، ص ص. 56-58، حيث عبر عن إعجابه ببطولته وشجاعة جنوده، وبرر ذلك بأن المآل الذي انتهت إليه ثورته لا يمنع من الإشادة ببطولته.

بالهجوم يوم 31 من الشهر الماضي بكل بسالة، لكن القوة الفرنسية تمكنت من صدهم، وأرغمتهم على التراجع مرة أخرى إلى التراب المغربي، مخلفين في ساحة المعركة 200 قتيل منهم 100 من العبيد، ولم يخسر الفرنسيون سوى 16 جريحا.
وقد وجه الجنرال الفرنسي، الذي تعهد بمتابعة الأعداء داخل التراب المغربي، إنذارا بأنه لو أطلقت رصاصة واحدة ضد الفرنسيين في التراب الجزائري فإنه سيعتبرها بمثابة إعلان للحرب»[33].

«ويوم 23 رست بطنجة باخرة فرنسية تدعى (Pluton)، قدمت من لوهافر وبها الأمير فيليب دو جوانفيل، وفي نفس اليوم خرجت إلى وهران ثم طولون.
[...] وخرجت من فاس - بدون تستر- مساعدات عسكرية باتجاه الحدود الجزائرية، وقد وقع غليان وحماس ديني بسبب الانتصار الذي يدعي الأعراب إحرازه على الجيش الفرنسي»[34].

وتمهيدا لأي تدخل محتمل، سعت فرنسا إلى شرح موقفها للدول الأوربية المنافسة لها في المغرب وخاصة انجلترا، مبدية أنها لا مطامع لها في المغرب، وأيضا لدفع انجلترا إلى الحياد، حتى لا يستقوي بها المغرب في صراعه مع فرنسا:

«تلقت الحكومة الانجليزية شروحا رسمية -على أعلى مستوى - من طرف حكومة فرنسا، تؤكد عدم رغبتها في غزو المغرب، وأنها إنما ترغب في أن لا يتم إقلاق راحتها في الجزائر انطلاقا منه. ويظهر أن انجلترا تهدف - من وراء حماسها في المبادرة بإرسال موفديها إلى السلطان- إلى منع القطيعة النهائية بين فرنسا والمغرب، كما فعلت في المرة السابقة. إلا أن نجاحها في مسعاها رهين بعدم تطور الخلاف إلى درجة أخطر من المرة السابقة.
جوهر المشكل الآن هو: هل سيستجيب السلطان لمساعي انجلترا النشيطة أم لا. لقد عبر القنصل صراحة عن عدم رغبته في اتخاذ موقف لصالح أي من الطرفين. ثم هل يستطيع السلطان أن يقف أمام التيار المتعصب الذي يدعو إلى الحرب المقدسة ضد الكفار، خصوصا بعد دخول الفرنسيين إلى وجدة، وانسحابهم بعد أخذهم مئتي تركي كانوا مسجونين بها.
يوم 4 من هذا الشهر، وصل جواب السلطان إلى القنصل الفرنسي، ينكر أن يكون المغاربة قد بدأوا بالاعتداء، ويقول إن الفرنسيين هم الذين استفزوهم

33- عثمان المنصوري، العلاقات المغربية البرتغالية، ج2، من ريموند كلاصو إلى دو كاشترو، طنجة في 14 يونيو 1844، المراسلة 12، ص. 555.

34- نفسه، رسالة من ريموندو كلاصو إلى دو كاشترو، من طنجة، بتاريخ 25 يونيو 1844، المراسلة 13، ص. 556.

/ وهم يتحملون مسؤولية كل شيء. ولو بقوا في مواضعهم القديمة ما وقع شيء. لكنهم بنوا تحصينات قوية على الحدود، مما أثار سخط المغاربة.
يتضمن الإنذار الفرنسي أربع نقط:

1- أن يعاقب السلطان رؤساء الفرق الذين يتخطون الحدود إلى التراب الجزائري.
2- وضع خط حدود للمراقبة، لمنع إزالة العلامات الحدودية.
3- عقد اتفاقية لاحترام ذلك.
4- عدم مساعدة الأمير عبد القادر بأي شكل كان.

ينتظر الأمير جوانفيل بطنجة مع أسطوله. وبالأمس خرجت باخرة فرنسية من ميناء طنجة وبها مفتش المهندسين مكلفا من هذا الأمير بمعاينة كل نقط الشاطئ المغربي وسبر أغواره من العرائش إلى الصويرة.
أما المغاربة، فيقومون – من جانبهم- بكل الاستعدادات الدفاعية، وهناك استنفار عام، خلف قلقا كبيرا عند الجميع»[35].

ويتضح من المراسلة أعلاه تشبث كل طرف بمواقفه، ووصول الأمر إلى حد إملاء الشروط والإنذار المصحوب بتحركات للأسطول الفرنسي قبالة مدينة طنجة، في إطار التمهيد للهجوم على المدينة، الذي بات واضحا أن فرنسا تعد له من خلال وصول سفن استطلاعية، ودراسة للمرسى، واشتداد لهجة المفاوضين الفرنسيين، التي قابلها من الجانب المغربي تصلب وتمسك بحقه في التضامن مع الجزائريين، وإرسال الجنود والمؤن لهذا الغرض، وتحسبا لأي هجوم فرنسي على الحدود المغربية:

«رست بميناء طنجة الباخرة الفرنسية بلوطون قادمة من جبل طارق وعلى متنها الأمير جوانفيل، الذي التحق حالا بالفرقاطة الاسبانية شيفي، وعاد بعد ذلك إلى الباخرة، واستقبل قنصل فرنسا العام، وكان له معه حديث طويل. وفي عشية نفس اليوم عاد إلى جبل طارق.
[...] ليلة 12 من هذا الشهر، خرجت من طنجة باخرة فرنسية متوجهة إلى العرائش، ومعها المترجم العربي الخاص بالأمير المذكور، وبرفقته موثق العقود بالقنصلية الفرنسية. وقد ذهبا للتفاوض مع الباشا وعادا في نفس اليوم. ويظهر أن فرنسا تعمل كل ما في وسعها لتجنب القطيعة وتحاشي قيام حرب شرسة على الحدود بين مقاتلي فرنسا والمغرب»[36].

35- نفسه، رسالة من ريموندو كلاصو إلى دو كاشترو، من طنجة، بتاريخ 8 يوليوز 1844، المراسلة 14، ص.557- 558.
36- نفسه، رسالة من ريموندو كلاصو إلى دو كاشترو، من طنجة، بتاريخ 14 يوليوز 1844، المراسلة 15، ص. 558-559.

ويظهر أن قرار ضرب الأسطول لطنجة قد اتخذ في الأسبوع الأخير لشهر يوليوز، حيث شرع قائده الأمير "جوانفيل" (Joinville) في اتخاذ الترتيبات، ومنها إجلاء الرعايا الأوربيين من المدينة، ومن بينهم القنصل الفرنسي نفسه، مما أدى إلى حالة من القلق لدى السكان، واضطراب أحوال المدينة:

«ظهر الأسطول الفرنسي بقيادة الأمير جوانفيل لملاحظة ومراقبة ما يجري، ثم عاد إلى قادس بدون أن يرسو بالميناء. وبعد بضعة أيام قدمت من وهران باخرة فرنسية بحثا عن الأمير، وعندما لم تجده اتجهت إلى قادس، وعاد الأمير حالا للظهور بطنجة، وأجرى اتصالا مع قنصله العام بالسفينة، ومعه موثق العقود الأول والثاني المترجمان. والملحق بنفس القنصلية، ثم نودي من هناك على زوجاتهم بحجة المساهمة في حفل ديني. ثم عاد الموثق الأول المسمى بيرشر ومعه أمر إلى كل الفرنسيين بالركوب في السفن الفرنسية وتنكيس العلم الفرنسي، ورحل هو أيضا بعد أن طلب من قنصل نابولي رعاية مصالح الفرنسيين بالمغرب. وقد خلفت هذه الإجراءات قلقا كبيرا في المدينة كلها، ووضعت اليهود والمسيحيين المقيمين في طنجة في حالة استنفار قصوى، خوفا من دخول قبائل الجبل التي لا تحترم لا ملكية ولا حياة أحد. كما أن الحامية في طنجة ستجد صعوبة في الحفاظ على الأمن، حيث تتوفر كل الشروط لقيام فوضى عارمة، مصحوبة بفظائع وحشية أكثر قوة، وبتزايد عدم التسامح والتطرف الذي لم تعرفه المدينة قبلا.

اصطدمت محاولة نائب القنصل لجمع الرعايا الفرنسيين بمعارضة خليفة الباشا، وقد أمر الأمير جوانفيل قنصل نابولي بالتدخل لديه وإعلامه أنه في حالة عدم تسليم الرعايا الفرنسيين فإنه سيمسح المدينة حالا ويدمرها بالقنابل. لكن القنصل أجابه بأنه في هذه الحالة يتعين عليه التضحية أيضا بالرعايا الذين لم يركبوا بعد في السفن، بالنظر إلى حالة الحقد التي يوجد عليها المغاربة الآن. ولذلك أبدى الأمير مرونة في موقفه واقتنع بأن المحافظة على حياة قلة من الناس لها نفس قيمة الحفاظ على عدد أكبر. وبعد تدخل ومفاوضات طويلة من قنصل نابولي ونائب قنصل انجلترا، قرر الأمير إعطاء مهلة أخرى حددها في 48 ساعة، حتى يمكن لقنصل نابولي إعلام الباشا بطلب الأمير ويعطيه الموافقة التي رفضها الخليفة بحجة أنه ليس من اختصاصه ذلك. وقد وزع قنصل فرنسا دورية باسم أميره إلى باقي القناصل يعد باحترامهم واحترام رعاياهم بطنجة.

خرج قنصل نابولي إلى العرائش في باخرة عسكرية دنماركية، على أمل تهدئة الجو المتوتر وطمأنة الناس. وقد أخبره الباشا أن ولي العهد محمدا تلقى أمرا من أبيه بالذهاب إلى الحدود لمعاقبة المغاربة الذين يحدثون الشغب هناك، وأن السلطان ما زال على السلم مع كافة الدول، وأنه أمره بأن يقوم بكل ما من شأنه أن يطمئن المسيحيين المقيمين ببلاده.

عاد قنصل نابولي اليوم وجمع كل القناصل، وأخبرهم أنه لقي الباشا في حالة ذهول ورعب حقيقيين، وأنه كان لطيفا جدا إزاء مطالبه. وفيما يخص ركوب الفرنسيين وكل المسيحيين، سمح له بذلك بدون أن يلح في طلبه، لكنه ذكر له مع ذلك أن تسامحه وتساهله في هذه المسألة قد يكلفه رأسه في الغالب.

دعا القنصل زملاءه إل ركوب السفن مع عائلاتهم ورعاياهم بسبب تهديد الأمير. توجد المدينة في حالة اضطرام، ولا يوجد وقت لإضاعته، خاصة أن السلطات لا يمكنها تقديم حماية حقيقية بسبب عدد حاميتها القليل. وظل الرعب مخيما ساعتين بعد السماع بقيام بعض القبائل بالاستيلاء على الأسلحة والذخيرة، وأن بعض أفرادها على أبواب المدينة قدموا من كل الجهات، وأن قسما منهم يوجد في المكان الذي سيركب منه المسيحيون في السفن بهدف منعهم من ذلك.

اختلط كل شيء، والفوضى عارمة. ولحد الآن لم تحدث أحداث عنف لا بين المغاربة ولا ضد اليهود. قيل إن حادثتي قتل أو ثلاثة وقعت بين المغاربة، ولحد الآن لا يعرف إلى أين ستتطور الأمور»[37].

كان القنصل البرتغالي العام وأسرته ضمن آخر المغادرين للمدينة، «وسط بربر مسلحين وهائجين في قمة الغليان»[38].

«ذهب قنصل نابولي إلى الأمير جوانفيل في قادس، وأخبره بالتطورات وبالأخطار التي ما زالت محدقة بالقنصل البريطاني الموجود في مهمة لدى السلطان، ومن بقي من الرعايا المسيحيين. ولا يعرف لحد الآن أي شيء عن المعارك في الحدود بين الطرفين الفرنسي والمغربي، ولا عن رد السلطان على المهلة/ الإنذار.

يوم 24، أعلن القنصل أنه لم يصل لحد الآن أي رد على النقط الأربع وأن السلطان تحالف مع عبد القادر، كما يدعوه إلى ذلك دينه»[39].

37- نفسه، رسالة من ريموندو كلاصو إلى دو كاشترو، من طنجة، في 25 يوليوز 1844، المراسلة 16، ص. 559- 561.

38- نفسه، رسالة من ريموندو كلاصو إلى دو كاشترو، من الجزيرة، بتاريخ 27 يوليوز 1844، المراسلة 17، ص. 561.

39- نفسه، المراسلة نفسها، ص. 561-562.

وصل الطرفان إلى الباب المسدود، وتشبث المغاربة إلى آخر اللحظات بدعمهم للأمير الجزائري، ولم يبق لتنفيذ الهجوم على طنجة سوى اللمسات الأخيرة:

«أرجأ الأمير جوانفيل بداية الهجوم إلى يوم الغد 2 غشت، حيث تنتهي المهلة الثالثة (10أيام) وتروج في جبل طارق أنباء متضاربة وغامضة لا يمكن لعقل قبولها. ومن جهة ثانية، تأكد للقنصل البرتغالي ما علمه من طنجة من أشخاص مطلعين لهم إلمام كبير بالأخبار هناك، وكذلك من طرف صديق كبير أهل للثقة، ويوجد في طنجة على ظهر بريك فرنسية بصفته موثقا بقنصلية نابولي، أنه كان هناك اجتماع للسلطات بالمدينة، لكي يطلبوا من الأمير جوانفيل تمديد المهلة ثمانية أيام أخرى، وتوسط في ذلك السيد دو مارتينو من قنصلية نابولي، لكن الأمير رفض ذلك. ونتج عن ذلك أن المغاربة يهربون من المدينة، وأنهم يقولون إنهم لم تصدر لهم أوامر من السلطان للقيام بالحرب»[40].

ث- ضرب الأسطول الفرنسي لطنجة ونتائجه:

في يوم 6 غشت، تعرضت طنجة لقصف مكثف من الأسطول الفرنسي بقيادة الأمير جوانفيل، الذي لم يكتف بذلك بل تابع استعراض قوته بالساحل الأطلنتي، وضرب مدينة الصويرة، ولعل ذلك كان لتشتيت تركيز المغاربة، تمهيدا للمعركة البرية التي جرت بعد ذلك في إيسلي، والتي انتهت كما هو معلوم بهزيمة الجيش المغربي المدعوم بجيش الأمير عبد القادر والمدعم له. ونجد في مراسلات القنصل البرتغالي العام إلى دولته هذا الوصف المفصل لأطوار الهجوم الفرنسي على طنجة، أرسله إليه أخوه الأصغر الذي بقي في طنجة، والذي عاين الحادثة، كما نجد في رسائل أخرى تفاصيل مهمة عن نتائج هذا الهجوم الفرنسي، ومخلفاته على طنجة والصويرة وبعض المدن المغربية، وتأثيره على المغرب ككل.

«بالأمس، يوم 6 غشت، ضرب الأسطول الفرنسي بقيادة الأمير جوانفيل مدينة طنجة. كان الهجوم مفاجئا إلى حد ما، خاصة أن القنصل الانجليزي - على ما يقال - عاد من عند السلطان يحمل بوادر حل سلمي للأزمة.
ليلة 5 غشت، لوحظت عدة تحركات واتصالات بين قطع الأسطول الفرنسي.
ويوم 6 غشت صباحا، ظهرت كل السفن الفرنسية وعددها تسعة، وخرجت كل السفن الأخرى بعيدا عن مدى طلقات مدفعيتها.

40- نفسه، رسالة من ريموندو كلاصو إلى دو كاشترو، من الجزيرة، بتاريخ 1 غشت 1844، المراسلة 18، ص. 562.

اتخذت السفن المهاجمة مواضعها كما يلي: السفن الشراعية اتجهت جانبا، واتخذت موقعها أمام المدينة على نصف مدى طلقات المدافع. وبعد هذه العملية وقفت سفن الأسطول الأخرى في خط. احتلت ثلاث سفن الجناح الأيمن من الخط، وفي الوسط الفرقاطة المسماة (Belle Poute) أمام الباب المسماة باب دار الدباغ، ووقفت بريكتان بالجناح الأيسر. وهكذا امتد الخط من شرق رصيف الميناء إلى عمق الخليج، على مسافة قريبة من دور طنجة القديمة.

بدأ إطلاق النار في الساعة الثامنة والنصف صباحا، وقد أصيبت السفينة الأولى التي بدأت بإطلاق النار، حيث تلقت ردا كثيفا ونشيطا من مدفعية القلعة. لكنها سرعان ما توقفت بالتتابع، واستمرت القلعة التابعة للمنار في إرسال بعض الطلقات، وكذلك الناحية الثانية للخليج بنقطة مالاباطا، ومدفعية ألكاندو (Algando) ومريسة لاجور، الموجودة بين هذه الأخيرة وطنجة القديمة. وحوالي الساعة الثانية ظهرا تقريبا، انتهت المعركة تماما.

وبعد منتصف النهار بقليل، ظهرت في المضيق من جهة جبل طارق بريك فرنسية قادمة من لشبونة - على ما يقال - ورأت الأسطول الفرنسي المتجمع، وعند دخولها أطلقت النار على حصن بوعماير الواقع شمال شرق المدينة، والذي تم تدميره بعد ذلك بقليل من طرف سفينة قدمت لهذا الغرض. ثم هناك باخرتان دخلتا وسط الميناء وأرسلتا على المدينة خمس أو ست قذائف.

السفينة الوحيدة التي لم تشارك في القتال هي الباخرة التي كان يوجد فيها القنصل العام.

بعد القصف، بقيت تحصينات المدينة والميناء في حالة جد سيئة، بل إنها تخربت ودمرت تماما، ما عدا المسجد الرئيسي. وتضررت بشكل أقل من ذلك المباني والدور. وكانت دور القناصل أقل تضررا، وظلت أعلام دولهم ترفرف عليها.

لم يعرف شيء عن خسائر المغاربة، وحسب الفرنسيين لم يتعد العدد ثلاثين بين قتيل وجريح. وعاد الأسطول إلى قادس للاستراحة، ومنها سيتوجه إلى الصويرة لضرب قلعتها.

السفن الأجنبية التي كانت موجودة هي :

- انجلترا: سفينة وفرقاطتان وباخرتان
- إسبانيا: فرقاطة وكورفيطة وبريك وباخرة وغليوطتان
- أمريكا فرقاطة
- كولومبيا : فرقاطة
- السويد : كورفيطة
- سردينيا : كورفيطة»[41].

41- نفسه، رسالة من ريموندو كلاصو إلى دو كاشترو، من الجزيرة، بتاريخ 7 غشت 1844، المراسلة 19، ص. 562-563.

ومن الغريب أن قنصل انجلترا العام "هاي" (Drummond Hay)، وصل على متن باخرة عسكرية انجليزية إلى ميناء طنجة بعد نصف ساعة من انتهاء الهجوم الفرنسي، قادما من الصويرة التي ذهب إليها في مهمة لدى السلطان المغربي تتعلق بالمشكل بين فرنسا والمغرب، بعد أن توصل إلى نتائج إيجابية لصالح الفرنسيين والإسبان، ووافق السلطان على الشروط وبأحسن العبارات[42] ! لذلك ذهبت جهوده سدى، وترتبت عن الهجوم أحداث ونتائج وردود فعل، تتبعها القنصل البرتغالي ودونها في مراسلاته إلى دولته، بتسلسل واختصار، كما يبدو من مقتطفات الرسائل التالية:

«وصل الأمير مولاي سليمان ابن السلطان عبد الرحمان الذي كان حاكما لتارودانت، وتفقد بعض الأمكنة، مثل السيتيو والشرف والعدير الكبير (الذي يعني المرعى الكبير)، والسواني البعيد بحوالي أربعة أميال من طنجة ومعه 2 أو 3 آلاف فارس ممن تحت إمرته.

المدينة حاليا مليئة بالمدفعية والفرسان والأسلحة. ورجال القبائل الموجودة داخل المدينة وبضواحيها، والذين اشتغلوا بالقتل والنهب عادوا إلى مناطقهم.

يوم 13 غشت، قرئت رسالة السلطان بالمسجد، وفيها أعلن للشعب أنه في حالة سلم مع جميع الشعوب، ودعاه إلى التعامل الحسن مع ممثلي الدول الأجنبية. وقد أعطى أمره بضرب السفن الفرنسية التي تقترب من الشواطئ، لأن الفرنسيين هم الذين بدأوا بالعدوان، وأشاد بأهل طنجة وبموقفهم خلال المعركة مع فرنسا. [...] صدرت أوامر بفتح المتاجر، وعودة السكان إلى نشاطهم العادي»[43].

«أمر السلطان بضرب كل سفينة فرنسية تقترب من الشاطئ. أصبح من الصعب الحصول على أخبار من الداخل بسبب الصمت المضروب من طرف السلطان على الأخبار السيئة. والمدينة الآن في حالة هدوء كامل. ويقوم المغاربة بإصلاح المباني المحطمة بحذر، كما أعادوا نصب عدد من المدافع من جديد، وقد أطلقت نيرانها من أجل التجربة عدة مرات.

نشر مقال في (A Chronica N° 2066)، حول الصويرة يوم 19 غشت من جبل طارق يحكي أن المدينة تعرضت يوم 15 غشت لخسائر كبيرة من طرف أسطول الأمير جوانفيل، وأن الفرنسيين استولوا على الجزيرة التي كان ميناء المدينة يدافع عنها. ومرت باخرة فرنسية حملت 128 من سكان الصويرة إلى طولون.

42- نفسه، رسالة من ريموندو كلاصو إلى دو كاشترو، من الجزيرة، بتاريخ 8 غشت 1844، المراسلة 20، ص. 564.

43- نفسه، رسالة من ريموندو كلاصو إلى دو كاشترو، من طنجة، بتاريخ 15 غشت 1844، المراسلة 23، ص. 565-566.

وصل إلى طريفة الدوق (Cluksberoy) السكرتير الأول بسفارة فرنسا بمدريد الذي جاء إلى المغرب مبعوثا من دولته للتفاوض مع السلطان.

وصلت أنباء من وهران تفيد أن المارشال بيجو التقى في معركة مع ابن السلطان وعبد القادر، وأن الفرنسيين هزموا المغاربة، وحققوا انتصارا كاملا عليهم»[44].

«يشاع إن ثورة وقعت بفاس، بدون وصول أية تفاصيل عنها.

يخيم الهدوء في طنجة، وقد تم إصلاح المدفعية ودار الديوان، أما المولى سليمان الإبن، فما زال في محلته»[45].

«يوم 5 من هذا الشهر، تلقى الباشا بوسلهام أوامر سلطانية بأن يعقد صلحا بأية شروط كانت مع فرنسا، نظرا لأنه لا يستطيع إرسال سفراء مغاربة إلى تركيا ولندن وبتسبورغ بهدف الدفاع عن مصالح المغرب ودفعهم إلى التدخل لصالحه.

بعث قنصل نابولي إلى ممثل فرنسا في المفاوضات المقيم بقادس السيد دو نيو موضحا له مطالب السلطان ورغبته في أن تبعث فرنسا - بدون إضاعة وقت- شخصا يمكن الاتفاق معه. وقد ذهب قنصل نابولي بالرسالة وعاد مع مترجم الأمير جوانفيل المدعو (M.Warvier) والسيد فلورات الموظف بقنصلية فرنسا. وبمجرد وصولهما استقبلا من قبل المغاربة، واتجها إلى القصبة للتفاوض مع الباشا. وكان الاتصال فقط للاتفاق على مبادئ الصلح إلى أن يحضر المخولون بالتوقيع عليه. وتم الاتفاق على أن يقوم ممثل مغربي بالانتقال إلى سفينة الأمير، ويطلب منه الصلح باسم السلطان.

وقع الاتفاق في سفينة الأمير، وذهبت السفن الفرنسية إلى الصويرة لنقل الجنود الفرنسيين، ويقال إن الفرنسيين بالغوا في الشروط لدرجة أنهم طلبوا تعويضهم عن مصاريف حملتهم العسكرية هاته»[46].

«ما زال الاتفاق مع فرنسا ينتظر توقيع السلطان، وقد غادر السفير الانجليزي مدينة طنجة، بينما ينتظر القنصل عودة الباشا لمعرفة المصير النهائي للاتفاق»[47].

«يسود بمدينة طنجة أمن تام، وما زال لم يعرف أي شيء عن المسروقات خلال المعركة. وعلاقات المسلمين مع المسيحيين يسودها بعض التحفظ، وهم يقومون بإصلاح ما خربته المدافع، وهناك عدد من المنشآت أصبحت أحسن مما كانت عليه قبل ضربها بالمدفعية.

44- نفسه، رسالة من ريموندو كلاصو إلى دو كاشترو، من طنجة، بتاريخ 23 غشت 1844، المراسلة 24، ص. 566

45- نفسه، رسالة من ريموندو كلاصو إلى دو كاشترو، من طنجة، بتاريخ 3 شتنبر 1844، المراسلة 25، ص. 567

46- نفسه، رسالة من ريموندو كلاصو إلى دو كاشترو، من طنجة، بتاريخ 12شتنبر 1844، المراسلة 26، ص. 567-568.

47- نفسه، رسالة من ريموندو كلاصو إلى دو كاشترو، من طنجة، بتاريخ 19 شتنبر 1844، المراسلة 28، ص. 568.

هناك أخبار عن الفوضى في الموانئ الموجودة من الرباط إلى مراكش. أسفي نهبت تماما من طرف قبائل عبدة ودكالة، وغيرها من القبائل المجاورة، بدون احترام أي شخص. ويقال بأن السلطان بصدد القيام بعدد من الإجراءات للقضاء على الفوضى.

أما الصويرة فقد نهبت تماما، لدرجة أنه - حسب تعبير المغاربة أنفسهم- لا تجد فيها ما تشعل به ولو سيجارة»[48].

خاتمة:

حاولنا من خلال هذا الإسهام أن نوجه اهتمام الباحثين إلى ما تتضمنه أرشيفات القنصليات الأوربية، ومن بينها القنصلية البرتغالية العامة بطنجة، من مادة غنية، لم تلق حظها من عنايتهم، وتتضمن الكثير من التفاصيل عن الأحداث التي عرفها المغرب، وعن علاقاته بالدول الأوربية، وبالأساس تسلط الضوء على بعض الجوانب المتعلقة بعلاقاته مع القطر الجزائري إبان الاحتلال الفرنسي.

هناك معلومات موجودة في المصادر المغربية والفرنسية، والدراسات المغاربية، ولكنها تتعرض أحيانا للتشكيك في مصداقيتها، وخاصة ما تعلق منها بدعم المغاربة لأشقائهم الجزائريين. وفائدة هذه الوثائق أنها تعطينا أحداثا من مراقبين محايدين، بنسبة كبيرة، وتترك لنا حرية الاستنتاج والتأويل.

لقد تبين لنا من النصوص المترجمة التي عرضناها بين ثنايا هذه المساهمة، أن المغرب لم يقف مكتوف الأيدي أمام الاحتلال الفرنسي للجزائر، وأنه بادر منذ الوهلة الأولى إلى القيام بدوره، سواء باستقبال اللاجئين الجزائريين الذين قدموا إليه فرارا بدينهم واستوطنوا بعض مدنه، أو بتلبية طلب التلمسانيين، وقبول بيعتهم، ومحاولة التصدي لعدو أقوى منه، في ظروف لا تزداد إلا صعوبة. وحين اضطر إلى الانسحاب أمام قوة الفرنسيين من تلمسان، شرع فورا في دعم ثورة الأمير عبد القادر الجزائري، وأن هذا الدعم رافق ثورته من بدايتها إلى سنة 1844، سواء بشكل رسمي علني أو بصفة سرية، متحديا ما كانت فرنسا تلوح به من تهديدات. وقد أدى به هذا التحدي إلى دفع ثمن غال هو تعرض مدنه المهمة: طنجة والصويرة لدمار شديد من لدن الأسطول الفرنسي، وتعرض جيشه لهزيمة كبيرة في إيسلي، التي لا تجسد الهزيمة فقط، ولكنها تجسد ذلك التضامن الذي جمع الجيش المغربي مع جيش الأمير ضد المحتل الفرنسي، والذي لم يقيض له أن يستمر، ليس لأن المخزن المغربي اختار

48- نفسه، رسالة من ريموندو كلاصو إلى دو كاشترو، من طنجة، بتاريخ 2 أكتوبر 1844، المراسلة 29، ص. 569.

التنكر لثورة الأمير، ولواجب التضامن، ولكن لأن الظروف الناتجة عن المعركة وضرب الموانئ المغربية، وتضعضع الأحوال في البلاد، وضعت المخزن في خيار صعب، الاستمرار في التحدي مع ما يتبعه من أخطار ومنها فقدان استقلال البلاد، أو الحفاظ على ما يمكن الحفاظ عليه، والالتزام بعدم مساعدة الأمير عبد القادر، ولعل المخزن المغربي وضع في الاعتبار حالات دول أخرى ذاقت نفس الكأس، مثل مصر خلال حملة نابليون، والجزائر بعد الاحتلال الفرنسي.

لقد استفاد الأمير سنوات طويلة من الدعم المغربي، واتخذ التراب المغربي ملجأ وملاذا حين حاصرته فرنسا، ولم يجد العون حتى من داخل الجزائر، ولكنه رفض أن ينصاع لقرار المغرب بوقف حركاته من داخل المغرب، الذي لم يكن قادرا على تحمل تبعاتها، ولا على تعريض استقلال البلاد للخطر الفرنسي، لذلك اضطر السلطان المغربي إلى مواجهته، ومحاصرة نشاطاته داخل البلاد، مما أدى إلى إضعاف ثورته واستسلامه للفرنسيين. وواضح أن المغرب بعد إيسلي لم يعد هو نفسه قبلها، فقد توالت عليه المشاكل، وخاصة بعد حرب تطوان التي زادت من تفاقم الأوضاع، وانفتاح الباب أمام الأطماع الأجنبية كما هو معلوم، وأصبح الاحتلال مسألة وقت وتوافق بين القوى المتربصة بالبلاد.

يوميات أول سفارة برتغالية إلى المغرب
على عهد السلطان مولاي سليمان
للراهب جوزي دي سانطو أنطونيو مورا[1]

تقديم وتعريب

لم يحظ موضوع العلاقات المغربية البرتغالية بما يكفي من الاهتمام لدى الباحثين في تاريخ المغرب المعاصر، لأن اهتمامهم انصب أكثر على الدول التي أصبح لها بعد القرن 19 موقع متميز ومؤثر في تاريخ المغرب مثل فرنسا وانجلترا وإسبانيا. ولاعتقاد أغلبهم بأن هذه العلاقات لم تكن من الأهمية بالدرجة التي تبرر مثل هذا الاهتمام.

وبغض النظر عن صحة أو خطإ هذا الاعتقاد، فإن الذي سيمكننا من تقدير مدى أهمية هذه العلاقات هو الشروع فعلا في دراسة الوثائق العديدة الموجودة في المكتبات المغربية والبرتغالية والمتعلقة بالعلاقات بين البلدين في الحقبة المعاصرة.

وفي هذا الإطار يسرني أن أقدم مساهمة متواضعة تتجلى في تقديم وترجمة إحدى الوثائق الغنية بالمعلومات المتعلقة بعهد السلطان مولاي سليمان، وبالعلاقات بين المغرب والبرتغال على عهده. ويتعلق الأمر باليوميات التي كتبها أحد أعضاء الوفد البرتغالي الذي أرسلته دولة البرتغال في سفارة إلى السلطان مولاي سليمان من يوم الجمعة 6 يناير 1797 تاريخ انطلاق الرحلة من لشبونة إلى غاية عودته إليها يوم 21 أبريل تاريخ رجوعه إلى نفس المدينة.

تقديم الوثيقة:

توجد هذه الوثيقة في مكتبة طوري دي طومبو بلشبونة، وهي ضمن مراسلات القنصل البرتغالي إلى وزير خارجيته الموجودة تحت رقم: CX MNE 301 ، مراسلات سنة 1797. وهي عبارة عن تقرير باللغة البرتغالية، صيغ على شكل يوميات، تتناول تفاصيل الرحلة المذكورة، وقد حرص كاتبها على إيراد الرسائل بنصها العربي مرفوقة بترجمة لها إلى البرتغالية، وكذلك الشأن بالنسبة لأسماء بعض المواقع.

وصاحب هذه المذكرات هو الراهب جوزي دي سانطو أنطونيو مورا[2] الذي كان مكلفا من قبل دولته ليقوم بدور المترجم الرسمي للسفارة. وقد تم الاختيار عليه نظرا لمعرفته

---

1 - نشر في مجلة أمل، العدد الخامس، السنة 1994، صص. 37-67.

2- Fr. Joze de Santo Antonio Moura

باللغة العربية، ولدرايته بأحوال المغرب الذي يظهر من المذكرات نفسها أنه سبق له أن قضى به بعض الوقت، وله به العديد من المعارف والأصدقاء[3].

وقد أوكلت رئاسة هذه السفارة إلى القنصل البرتغالي بالمغرب جورج بدرو كولاصو،[4] ويتضح من اليوميات أن الهدف من هذه السفارة هو تهنئة السلطان المغربي وتقديم الهدية البرتغالية له، وكذلك السعي لديه للحصول على بعض الامتيازات التجارية، خصوصا وأن دولة البرتغال في هذه الآونة كانت تعاني من نقص في المواد الغذائية والدواب بسبب انشغالاتها العسكرية.

ملاحظات واستنتاجات:

هناك عدد من المواضيع التي تتناولها هذه اليوميات مباشرة أو بشكل عرضي، كما أن قراءتها تسمح لنا بالخروج بالكثير من الاستنتاجات والملاحظات، وسنحاول التطرق إلى أهمها حسب النقط التالية:

1) تبادل الهدايا والسفارات:

يمكن أن نعتبر أن الهدية السلطانية هي المهمة الرئيسية لهذه السفارة، التي هي أول سفارة - حسب علمنا - من البرتغال إلى السلطان مولاي سليمان. وقد جرت العادة أن تبعث دولة البرتغال وفدا للتهنئة مرفوقا بهدية عظيمة عند تولية السلاطين المغاربة أو بمناسبة التفاوض من أجل إبرام اتفاقيات خاصة مع المغرب أو تعديلها[5].

ويحتاج موضوع الهدية بمفرده إلى بحث مستقل، نظرا لما يطرحه من تساؤلات متعلقة بأهمية الهدية والدور الذي تلعبه في العلاقات بين الدول الأوربية والمغرب. والمعروف تاريخيا أن تبادل الهدايا لم يكن مقتصرا على هذه الفترة فقط، بل إن السلاطين المغاربة تلقوا هدايا كثيرة وفي مناسبات متعددة في عهد مختلف الدول التي حكمت المغرب، وعلى سبيل

---

3 - هو راهب فرانسيسكاني برتغالي، عاش ما بين 1770، 1840. سبقت له زيارة المغرب قبل هذه السفارة، وشغل عدة وظائف، فقد كان وزيرا، وموظفا بالخارجية البرتغالية، ومترجما رسميا، وأستاذا للغة العربية، وعضوا بالأكاديمية الملكية للعلوم بلشبونة. وترجم عدة كتب من العربية إلى البرتغالية، من بينها: تاريخ الملوك المسلمين للدول الأربع الأولى وقسم من الدولة الخامسة، الذين حكموا بموريطانيا، الذي ألفه أبو محمد السابح الغرناطي الأصل ونشر سنة 1828. كما ترجم رحلة ابن بطوطة، وصدرت في جزئين، الأول سنة 1840، والثاني بعد وفاته سنة 1855. ولازالت العديد من أعماله مخطوطة بأكاديمية العلوم بلشبونة. توجد ترجمته في: Grande Enciclopedia Portuguesa e Braseleira (XVI) p. 19

4 - جورج بدرو كولاصو: خلف أباه في منصب القنصلية سنة 1783، ثم عين قنصلا عاما مباشرة بعد هذه السفارة، وظل في منصبه إلى سنة 1816.

5- سبق للبرتغال أن أرسلت سفارات إلى المغرب ومعها هدايا إلى السلطان سيدي محمد بن عبد الله في سنوات 73، 74، 77، 1780، وإلى مولاي اليزيد سنة 1790.

المثال يمكن الإشارة بسرعة إلى الهدية البرتغالية التي وصلت إلى المغرب في أعقاب معركة وادي المخازن، التي يمكن اعتبارها أول هدية رسمية برتغالية إلى المغرب[6].

وللهدية دلالتها، فهي إما تعبر عن الصداقة القائمة بين دولتين، وإما تكون وسيلة لاكتساب هذه الصداقة أو تدعيمها، ولذلك نجدها في أغلب الأحيان مصحوبة بمطالب أو مدعمة لمفاوضات، تنتج عنها اتفاقات لصالح الدولة التي قدمتها.

ومن خلال الأرشيف البرتغالي نجد أن هذه الهدية تقدم على الأقل في ثلاث مناسبات:

1) مناسبة تولية السلاطين الجدد.
2) مناسبة زيارة السلطان لطنجة.
3) الأعياد الدينية الكبرى (الأضحى والفطر والمولد).

بدون أن ننسى الهدايا التي يتلقاها أعضاء الوفود والأمراء عند زيارتهم للبلدين، أو بمناسبة إجراء المفاوضات وعقد الاتفاقيات. وعلى قدر حجم وقيمة الهدية، تتحدد أهمية العلاقات بين البلدين، لأنها الهدية الثمينة ذات القيمة المرتفعة، تدل على اعتناء الدولة التي قدمتها، ورغبتها الأكيدة في تمتين العلاقات، والعكس بالعكس. كما أنها تفتح الطريق للحصول على امتيازات من خلال المفاوضات التي تصاحب الهدية عادة.

من هذا المنطلق يمكننا أن نتساءل عن الهدية البرتغالية التي تتكلم عنها اليوميات، وعن أهميتها وعن الدور الذي لعبته بالنسبة للعلاقات بين البلدين.

على الرغم من أن الهدية هي الموضوع الرئيسي للسفارة البرتغالية فإن اليوميات لا تتكلم عن مضمون ومحتوى الهدية، ولا تفصل في مقادير ونوعيات الأشياء المهداة، ما عدا هدية الوزير ابن عثمان، وكل ما نعلمه عنها هو أن عدد البغال التي تحملها هو 50 بغلة. ولا ندري هل هذا العدد خاص فقط بهدايا السلطان أم أنه يشمل أيضا هدايا الأمراء والوزراء ورجال المخزن. لكن من حسن حظنا أننا عثرنا على تقرير آخر لنفس الراهب صاحب اليوميات[7] يفصل فيه بدقة نوع الهدايا ومقاديرها، ومنه يتبين لنا ما يلي:

6- نجد تفاصيل هذه الهدية عند الفشتالي في مناهل الصفا، صفحة 50، وعند اليفراني في نزهة الحادي صفحة 82.

7 - تقرير خاص إلى وزارة الخارجية البرتغالية، موجود في ملف مستقل، مكتبة طوري دي طومبو، تحت رقم: MNE. CX : 301.

عدد الصناديق المكونة للهدية.

السلطان	55 صندوقا
مولاي الطيب	15 صندوقا
مولاي عبد المالك	3 صناديق
باشا طنجة	4 صناديق

وبذلك يكون مجموع الصناديق 92، بدون حساب هدية الوزير ابن عثمان، والهدايا الأخرى التي وزعها القنصل عند وصوله إلى فاس، مما يوصل عدد الصناديق إلى ما يناهز المائة. وعلى هذا الأساس فإن عدد خمسين بغلة الذي تذكره اليوميات، يجد تبريره إذا اعتبرنا أن كل بغلة تحمل صندوقين، أو أنها تحمل صناديق السلطان فقط.

محتوى الهدية: يفصل التقرير المذكور محتويات الهدية في الجدول الآتي :

لائحة تفصيلية بالهدايا المقدمة إلى السلطان مولاي سليمان

رقم الصندوق	المحتوى
1	8 قطع من ثوب "نوبريسا" (Nobresa)، عريض المنكب، لون الورد، مزركش الألوان، طولها 181 ذراعا. 7 قطع من لون الؤلؤة، طولها 152 ذراعا. قطعة واحدة من شريط مذهب، طولها 20 ذراعا ونصف. 48 أونصة من خيوط الذهب، و24 من خيوط الفضة.
2	9 قطع من ثوب "الكَوركَورة" من ألوان مختلفة، طولها 223 ذراعا. قطعة من الدمشقي الأبيض والمذهب، طولها 26 ذراعا.
3	قطعة من الدمشقي قرمزية بطول 52 ذراعا. قطعة من نوع "الكَوركَورة" خضراء مزركشة، طولها 30 ذراعا ونصف. قطعة "نوبريسا" بيضاء طولها 50 ذراعا وربع. 1 من الساتان لون الورد، طوله 24 ذراعا وربع. 1 أخرى بطول 34 ذراعا. 1 "كوركورة" قرمزية طولها 25 ذراعا. 1 توبريسا "زرقاء" طولها 25 ذراعا. 1 أخرى بلون الورد طولها 25 ذراعا. 1 ثوب دمشقي مذهب، بطول 25 ذراعا. 2 قطعتان من أشرطة الفضة.
4	1 قطعة من الدمشقي بطول 62 ذراعا. 5 قطع من "الكَركَورة" بطول 173 ذراعا. 3 قطع من "النوبريسا" بطول 82 ذراعا.

	3 أخرى بنفس الطول. 1 قطعة من الستان بطول 25 ذراعا. 2 من شرائط الذهب.
5	1 قطعة من "الكَركَورة" ليمونية مزركشة، بطول 28 ذراعا. 1 من "النوبريسا" 50 ذراعا. 5 قطع من الساتان، بطول 183 ذراعا. 14 قطعة من ثوب "الكمبريالة". 4 من ثوب الموسلين.
6	15 قطعة من "النوبريسا" عريضة بطول 300 ذراعا. 1 قطعة من الساتان، لون اللؤلؤ والذهب، بطول 25 ذراعا. 1 قطعة من الساتان بيضاء، بطول 25 ذراعا. 3 قطع من ثوب مخملي مخطط بطول 95 ذراعا.
7	15 قطعة ثوب من نوعيات مختلفة
8	30 قطعة من أثواب مذهبة ومخططة
9	2 قطعتان من ثوب رهيق يدعى (Sangibes). 4 قطع من نوع "نانسوك". 16 قطعة مذهبة. 2 قطعتان من ثوب رهيف.
10	4 قطع من ثوب انجليزي رهيف من ألوان مختلفة طولها 96 ذراعا.
11	4 قطع أخرى رهيفة جدا، بطول 86 ذراعا.
13-12	32 قطعة من أثواب إيرلندية.
14	4 من الأواني، و4 من أواني السكر، و48 من الملاعق الفضية، وآنية للشاي "براد".
15	30 قطعة من ثوب (Bretanhas).
17-16	80 رطلا من الشاي من نوع (Perola) في 160 زجاجة.
19-18	80 رطلا من الشاي من (Hysson) في 160 زجاجة.
21-20	256 رطلا من الشوكولاطة.
24-23-22	24 قارورة من الكريسطال، ثم 12 من الأواني للعصير.
26-25	فواكه جافة.
28-27	قوارير وجرار من الخزف والفخار.
30-29	60 قالبا من السكر.
33-32-31	15 جرة من الصنع الياباني بسدادات من الفضة.
34	7 أطباق يابانية، و4 دزينات من الأواني لشرب العصير. وجهاز كامل من الأواني لشرب الشاي.
من 35 إلى 55	60 مجموعة من الأواني الخزفية الثمينة.

وقد فصلنا في استعراض محتويات الهدية السلطانية، نظرا لأهميتها من جهة، ولأن المصادر المغربية قلما تسعفنا بهذا النوع من التفصيلات. أما بالنسبة لباقي الهدايا، فهي تتضمن نفس الأنواع، وخاصة الأثواب والأواني الثمينة، والسكر والقهوة والشاي والشوكولاطة والفواكه الجافة: إلا أن المقادير تقل كما وكيفا حسب مكانة الشخص المقصود بالهدية كما يتجلى من عدد الصناديق أعلاه.

ومن خلال استعراضنا لحجم ونوع الهدايا البرتغالية، تتضح لنا أهميتها، وبالتالي رغبة البرتغال في الحصول على نتائج إيجابية من هذه السفارة[8].

ويمكن أن نتبين أهمية الهدية أيضا من الصدى الطيب والاستحسان الذي لقيته من المهدى إليهم، فالأمير مولاي الطيب بادر بمجرد وصول الهدية إلى مراسلة القنصل، مبديا رضاه عنها، وتقديره للقنصل البرتغالي ولدولته، واستعداده لتذليل كل العقبات من أجل حصول البرتغال على ما تأمله من المفاوضات.

وبالنسبة للمطالب البرتغالية، فيمكن إجمالها في رغبة البرتغال في الحصول على بعض الامتيازات المتعلقة بالتبادل التجاري، ومن بينها تخصيص مرسى العرائش لوسق الحبوب إلى البرتغال، والترخيص لهم بالوسق أيضا من مرسى أسفي وتيط، والعناية بالرعايا البرتغاليين، والحرص على سلامتهم، وتزويد السفن الحربية البرتغالية بحاجياتها الغذائية "الفريشك"، والسماح بوسق الحبوب والبغال والأبقار، مقابل "صاكة" خفيفة، إضافة إلى حل مشكل سابق متعلق بأحد المراكب التي أسرتها البحرية المغربية.

وقد استجاب السلطان لأغلب هذه المطالب كما يتبين من اليوميات، لكنه أراد أن يستثمر هذا التقارب مع البرتغال ليحصل على البارود، وقد تحفظ القنصل في البداية ثم قرر فيما بعد السعي للحصول على هذا الطلب.

إن أهمية الهدية لا تشرح وحدها استجابة السلطان لجل المطالب البرتغالية، ولذلك لابد من البحث أيضا في الظروف التي كان البلدان يعيشانها، فالمولى سليمان كان في بداية عهده، وأمامه عدد من المناطق التي لم تخضع تماما لسلطانه، وتشير اليوميات مثلا إلى ثورة عبد المالك، التي تزامنت مع زيارة الوفد البرتغالي وإلى منع الاتجار مع أسفي وتيط لوقوعهما تحت نفوذ الثائرين على السلطان. أما البرتغال فكانت في هذه الأثناء في حالة حرب مع

8- إذا نظرنا إلى الحجم مثلا، نجد أن عدد الصناديق في هذه الهدية وصل إلى 55 صندوقا. وبالمقارنة مع الهدايا السابقة، التي يتحدث عنها التقرير في الهامش أعلاه، نجد أن عدد صناديق الهدية المقدمة إلى مولاي اليزيد سنة 1790 بلغ 48 صندوقا. أما في عهد سيدي محمد بن عبد الله قبله، فإن عدد الصناديق في السفارات الأربع المذكورة في الهامش 4، تتراوح بين 10 و19 صندوقا.

فرنسا، وقد بدأت هذه الحرب منذ سنة 1793، وزادت من حاجة البرتغال إلى الحبوب والبغال، والمواد الغذائية.

وبسبب هذه الحاجة المشتركة من كل طرف للآخر، فإن تقاربا حدث بين الدولتين، كان من نتائجه أن البرتغاليين تمكنوا من وسق كميات كبيرة من الحبوب والبغال والمواشي، كما أن المخزن المغربي توصل بحاجياته من البارود رغم احتياج البرتغال إليه بسبب ظروف الحرب[9].

2) المراسيم المتبعة في تبليغ الهدية:

تطلعنا اليوميات على عدد من التفاصيل المتعلقة بتركيبة الوفد المرافق للسفارة والإجراءات البروتوكولية التي تتم بهذه المناسبة، ونستطيع بناء على ما جاء فيها أن نقول إن الإجراءات كانت تتم كما يلي:

عند وصول السفينة يخصص لها استقبال رسمي بحضور قناصل الدول الأخرى وباشا المدينة. وبعد أن يستقر الوفد لدى قنصل بلده، وتوضع الهدية في المخازن، يبعث الباشا والقنصل، كل من جهته، برسائل إلى السلطان والوزير الأول، والمعنيين من أمراء وغيرهم، لإخبارهم بوصوله، ويطلب الإذن له بإيصال الهدية. ولا يمكنه أن يتحرك إلا بعد وصول الإذن من السلطان الذي يحدد له تاريخ الانطلاق بالهدية والمكان الذي تتجه إليه، والمرافقين له من الموظفين والجنود.

وبالنسبة لهذه السفارة البرتغالية، فبعد وصول الإذن، تم تعيين الجنود المكلفين بالحراسة (10 من الفرسان)، وعدد البهائم اللازمة لنقل الهدية(50 بغلة)، وحدد السلطان مبلغا من المال للإنفاق على الوفد في الطريق. أما الانطلاقة فقد تحددت من مكان معين بظاهر المدينة، وشيعها الباشا والقناصل إلى أن غادرتها.

عند وصول الوفد إلى ضواحي فاس وجد في استقباله حاجب السلطان وأخ الوزير الأول وبعض الجنود الذين رافقوه إلى مقر إقامته، وأعلموا السلطان والوزير الأول بحضوره. وفي اليوم الموالي تم إخبار الوفد بالاستعداد لملاقاة السلطان وتقديم الهدية في نهار الغد.

وقد كان الاستقبال في جو احتفالي، يصفه صاحب المذكرات بدقة، حيث استقبلهم السلطان في ساحة المشور بعد صلاة الجمعة، راكبا فرسه وبمعيته كبار الأمراء والجنود وموظفي المخزن، في نظام وترتيب حسب المراكز والأهمية. وفي هذا اللقاء العام لم تناقش

9- وسق البرتغاليون سنة 1797، 500 فانيغا من القمح من مرسى العرائش وحده، وكذلك البغال واللحم المملح، حيث بلغ ما ذبح في سنة واحدة 400 بقرة. أما البرتغال فقد بعثت أزيد من 93 قنطارا من البارود إلى المغرب. انظر مراسلات القنصل البرتغالي بطنجة طوري دي طومبو، رقم MNE. CX 299.

تفاصيل المطالب البرتغالية، وإنما طلب القنصل لقاء خاصا بالسلطان لتوضيح هذه المطالب، وسلم له محفظتين تتضمنان مفاتيح الصناديق المكونة للهدية، ولائحة بمحتوياتها.

وقبل هذا اللقاء الخاص تم الاجتماع بالوزير الأول للتمهيد له، ومناقشة المطالب البرتغالية. ثم بعد ذلك تصف المذكرات بروتوكول اللقاء الثاني مع السلطان، وما راج في هذا الاجتماع الذي قدم فيه القنصل خاتما ثمينا للسلطان كان ضمن الهدية ولكن القنصل أرجأ تقديمه لهذه المناسبة - ولعله كان يؤمل أن يكون لذلك وقع خاص مساعد للحصول على المطالب - وتبادل الجانبان بعد ذلك عبارات المودة والتقدير.

بعد هذا الاستقبال، كان هناك لقاء أخير مع الوزير ابن عثمان الذي أكد للقنصل أنه لا يمكنه الحصول على أكثر مما حصل عليه، واستأذن هذا في العودة إلى طنجة، وبدأت رحلة العودة. وقد أهدى السلطان للقنصل جوادا وحمولة من التمر، كما أهدى بغلة للمترجم. ودام مقام الوفد في ضيافة السلطان بفاس أسبوعين كاملين.

3) **المواصلات:**

تساعد اليوميات في التعرف بعض الشيء على ظروف المواصلات في المغرب لهذا العهد، فالوفد الرسمي البرتغالي سلك طريقا معينة من طنجة إلى فاس، نستطيع أن نتتبعها إنطلاقا من الوصف الذي قدمه صاحب المذكرات، مع المدة الزمنية التي يستغرقها الانطلاق من نقطة إلى أخرى. وقد استغرقت الرحلة في الذهاب عشرة أيام كاملة، وكذلك الحال عند الإياب. تضاف إليها مدة الإقامة بفاس وهي 15 يوما، لتكون المدة الإجمالية التي استغرقتها الرحلة إلى فاس 35 يوما. ويجب أن نضع في الاعتبار أن الوفد الرسمي يتوفر على إمكانيات لا تتوفر للمسافرين العاديين من تجار وغيرهم، مثل الدواب لنقل الأحمال والأمتعة، والجنود للحراسة، والخيام والزاد، ومع ذلك فقد تعرض للسرقة عدة مرات. وقد كان عبور الأنهار يأخذ وقتا يتراوح ما بين ساعتين ونصف وأربع ساعات، حسب وسائل العبور المتوفرة، وحالة الأنهار. ومن خلال هذه المعطيات نستنتج بالأساس أن المواصلات لم تكن قادرة على تسهيل عمل التجار ولا المخزن بالنظر لطول المدة التي يستغرقها الانتقال من طنجة إلى فاس، في طريق يفترض أنها رئيسية، وسهلة. ويمكن لنا أن نتصور حالة الطرق الأخرى، وظروف السفر فيها، بالنسبة للمسافرين العاديين، وانعكاسات هذه الوضعية على الأمن والتبادل الداخلي. لأن انتقال التجار والجنود يكون مشابها للظروف التي سافر فيها الوفد البرتغالي. وتزداد الأمور صعوبة حينما تزداد أحوال الجو سوء بسبب الأمطار والأوحال وامتلاء الأنهار.

لقد استغرقت السفارة البرتغالية منذ انطلاقها من لشبونة إلى عودتها إلى نفس المدينة أزيد من ثلاثة أشهر، وهي مدة طويلة نسبيا، وكان للمواصلات دور واضح في إطالة هذه المدة.

4) مواضيع أخرى:

توحي قراءة هذه المذكرات بالعديد من التساؤلات الأخرى، ومن بينها: التساؤل عن تركيبة الوفد البرتغالي. وإذا كانت لا تتحدث سوى عن القنصل والمترجم، فإننا نجد في أحد التقارير توضيحا لهذه النقطة[10]، حيث يذكر أن وفد سنة 1798 كان يضم إلى جانب القنصل والمترجم كاهنا وضابطا وعددا من موسيقيي القصر الملكي البرتغالي[11] ومتعهدا للخيام وطباخا ومقتصدا مكلفا بلوازم المشروبات والحفاظ على الأثاث، بالإضافة إلى المساعدين من يهود ومسلمين، وخدم القنصل والكاتب.

وقد خصص لهم الملك البرتغالي مبلغا يوميا: 400 ريال للقنصل، و200 ريال لكل واحد من الباقين. وجرت العادة أن يحمل الوفد معه حاجته من لحم الخنزير، والسكر والقهوة والشاي والشوكولاطة، والباقي يقدمه له المغاربة.

ومن المسائل المثيرة للاهتمام، وجود راهب برتغالي يتقن اللغة العربية قراءة وكتابة، وفي اليوميات إشارة إلى وجود راهب آخر جاء لتعلم اللغة العربية. مما يدل على اهتمام البرتغاليين بتعلم اللغة العربية، وهو اهتمام قديم نجده لدى الإيبيريين منذ القرن 16، لدى الراهب دي كونتريراس بفاس، ولدى نيقولا كليناردا[12]، وسيتواصل خلال القرن التاسع عشر، بزيارة مستشرق آخر هو دي باربوزا[13].

10- التقرير المذكور في الهامش رقم 6.

11- يظهر أنهم جاؤوا بناء على طلب من السلطان المغربي، الذي طلب أيضا من القنصل استقدام بستاني من البرتغال لخدمته. ورغم أن التقرير يتحدث عن سفارة 1798، فإننا نرجح أن تركيبته لا تختلف كثيرا عن تركيبة الوفد الذي قدم سنة 1797.

12 - عن الراهب دي كونتربراس أنظر: Robert Ricard. Les deux voyages du P. Contreras ... Hesperis, 1934, pp. 39-44.

وانظر أيضا: Le Tourneau (R). Notes sur les lettres latines ... Hesperis. Pp. 45-63

13- راهب برتغالي بعثته دولته للتعمق في دراسة اللغة العربية، ومكث بطنجة مدة طويلة وعاصر حادثة الهجوم الفرنسي على طنجة سنة 1844.

Diario da Viagem que eu Fr. Joze de S.to Antonio Moura fiz por ordem de S. Mag.e neste Anno de 1797 de Lisboa para Tanger, acompanhando o prezente q. a ma. Senhora mandava ao Imperador de Marrocos, e Principes seus Irmãos, e para servir de Interprete ao Consul Portuguez Jorge Pedro Collaço na entrega delle, e mais pertenças da nossa Corte, e do acontecido na jornada que dahi fizemos até Fez, onde o actual Imperador Moley Soleiman se achava.

Sexta feira 6 de Janeiro.

As nove da manhã embarquei em a Fragata de S. Magestade a Ulisses, Capitão da mesma Luis da Mota Feo.

Sabado 7 do d.o

A falta de Vento foi cauza de não se por a Fragata á vela.

Domingo 8 do d.o

As sete da manhã sahimos pela Barra fora, e seguimos felizmente a nossa viagem para Tanger.

Quarta feira 11 do d.o

Das duas para as trez da tarde deo fundo a Fragata em a Bahia de Tanger, e apezar do máo tempo fui logo para terra com o Official da parte, levando comigo os Despachos do nosso Ministerio para o Consul de S. Mag.e Jorge Pedro Collaço, a q.m os entreguei immediatamente.

Quinta feira 12 do d.o

Veio logo de manhã para terra hum Religiozo q. [illegible] Fr. Manoel da Silva Rebello para se [illegible] em Caza do [illegible] na [illegible] Consul, a qual elle recebeo voluntariamente. Na mesma manhã [illegible] de receber as [illegible] antigos conhecidos os Consules d'Espanha, Venezia, Suecia, e Olanda.

الصفحة الأولى من مخطوط اليوميات

نص اليوميات

يوميات الرحلة التي قمت بها أنا جوزي دي سانطو أنطونيو مورا بأمر من صاحبة الجلالة[1] في هذه السنة 1797 من لشبونة إلى طنجة، مرفوقا بالهدية التي أرسلتها نفس السيدة إلى سلطان المغرب وإلى الأمراء إخوته[2]، بصفتي مترجما للقنصل البرتغالي جورج بدور كلاصو لخدمته، وخدمة بلاطنا، وما وقع في الرحلة التي قمنا بها من هناك إلى فاس حيث يوجد السلطان الحالي مولاي سليمان.

الجمعة 6 يناير: على الساعة التاسعة صباحا، ركبت في فرقاطة[3] جلالة الملكة المسماة (Aulisses) وقبطانها لويش دا موطا فيو[4].

السبت 7 يناير: بسبب عدم توفر الرياح المساعدة لم تقلع الفرقاطة.

الأحد 8 يناير: على الساعة السابعة صباحا، خرجنا عن طريق الرصيف الخارجي وبدأنا سفرنا الميمون إلى طنجة.

الأربعاء 11 يناير: من الثانية إلى الثالثة ظهرا، رست الفرقاطة بمرسى طنجة، ورغم سوء الأحوال الجوية، نزلتُ بسرعة إلى البر مع الوفد الرسمي، حاملا معي الرسائل من وزارتنا إلى قنصل جلالة الملك جورج بدرو كولاصو وسلمتها له فورا.

الخميس 12 يناير: وصل في الصباح الباكر إلى البر رجل دين، أحضره معه الراهب مانويل دا سيلفا ربيلو[5] لكي يتعمق في دراسة اللغة العربية. واستقر بمنزل القنصل الذي استضافه بدون تردد. وفي نفس الصباح كان لي شرف تلقي زيارات معارفي الأقدم هنا، قناصل اسبانيا والبندقية والسويد وهولاندا.

الجمعة 13يناير:أنزلت الهدايا من الموكب، ووجهت إلى أحد مخازن القنصل.

السبت 14 يناير: بأمر من قنصل جلالة الملكة كتبت الرسائل الآتية:

نسخة الرسالة المكتوبة إلى السلطان سليمان[6].

1- الملكة البرتغالية المقصودة هي ماريا الأولى، ولدت سنة 1734، وتولت سنة 1777، بعد وفاة الدون جوزي، وتوفيت سنة 1816.

2- يستعمل صاحب اليوميات كلمة الامبراطور التي ارتأينا تعريبها بلفظ السلطان.

3- تعريب لكلمة Fregate

4 -Luis da Mota Feo

5 -Fr. Manoel da Silva Rebelo

6- توجد المراسلات بنصها العربي، ثم مترجمة إلى اللغة البرتغالية، وبخط يد المترجم.

باسم الله الرحمان الرحيم.

نعرض على عالي مقام سيدنا أنها وصلت لهذه المرسى سفينة برطقيزية من اجبونة بهدية وكتاب كرطينا[7] لسيدنا وقد كتب لي الوزير كتابا يأمرني بأمر البرنسيبي[8] مولاي بالتوجيه لحضرة سيدنا العالية مع الهدية والكتاب لسيدنا وهذا ما وجب على الإعلام به لسيدنا طالبا من فضله الكريم أن يأمرني بالتوجيه لحضرته الشريفة ومعي كاتب هذا الكتاب وهو الفرايلي[9] الوارد علي بأمر الكرطي ليتوجه معي ترجمان لحضرة سيدنا وربنا يبارك لنا في عمر سيدنا آمين والسلام. كتب في 14 رجب عام 1211.

نسخة الرسالة المكتوبة إلى مولاي الطيب أخ السلطان:

الاعلام به لسيدنا أنها وردت على هذه المرسى سفينة برطقيزية من أجبونة بهدية وكتاب لسيدنا وفي صحبتها هدية وكتاب إليكم وقد أمرني الوزير بأمر البرنسيبي أن نتوجه مع الهدية لحضرة سيدنا بعد التلقاء معكم لتقفوا معنا فيما نريده من سيدنا المنصور ظاهرا من البرنسيبي أنكم أعزكم الله هنا لاكن حيث أنتم بالعرايش ووصلنا الخبر أنهم خارجين منها ويخفى علينا الموضع الذي تمشون إليه وجب علينا الكتب إليكم ونعلمكم بأننا قد كتبنا لسيدنا وأعلمناه بما نعلمكم به طالبون منه الأمر بالتوجيه لحضرته العالية فلأجله نطلب من فضلكم أن تعلمونا بالموضع الذي نلاقيكم فيه لأننا نريد النظر لوجهكم الكريم وإن كنتم في العرايش أو مع سيدنا فذاك وإلا يصعب علينا التوجيه إليكم لأن أمر أخيكم المنصور هو الأول كما لا يغيب عن عزيز مقامكم وإن لم تكونوا في أحد من المواضع المذكورة نطلب من فضلكم أن تعلمونا بالعمل مع الهدية والكتاب إليكم إما أن نبعثها إليكم إما نتركها هنا وربنا ينعم علينا بطول عمركم. آمين والسلام.
انتهى في 14 من شهر رجب عام 1211.

نسخة الرسالة المكتوبة إلى مولاي عبد السلام أخ السلطان:

وبعد فليعلم سيدنا أنها وصلت لهنا سفينة برطقيزية من أجبونة بهدية كتاب البرينسبي لسيدنا المنصور وفي صحبتها هدية وكتاب إليكم ووصلني أيضا كتاب الوزير يأمرني بأمر البرينسبي أن نتوجه لحضرة سيدنا العالية مع تلك الهدية وقد كتبت لسيدنا نعلمه بما نعلمك به طالبا منه الأمر بالتوجيه إلى حضرته العالية وها إن أمرني سيدنا بالتوجيه لفاس أو مكناس فإني نصحب معي هديتكم والكتاب إليكم وألا نطلب من فضلكم أن تعلموني بالعمل مع هديتكم إما أن نبعثها إليكم إما أن

7- تعريب لكلمة Corte وتعني الحكومة أو البلاط.
8- البرينسيبي: الأمير، والمقصود هنا هو الأمير دون جراو الذي أمسك بزمام الحكم سنة 1792، وخلع الدونا ماريا الأولى سنة 1799.
9- الفرايلي: الراهب.

نتركها هنا إلى أن تبعث أحد من أصحابكم ليتوجه بها لحضرتكم والسلام كتب في 14 رجب عام 1211.

نسخة الرسالة المكتوبة إلى ابن عثمان وزير السلطان الأول:

الأرضى المرتضى والأعز ما لدينا الفقيه الأجل السيد محمد بن عثمان كاتب أعظم أوامر سيدنا الشريفة. بعد السلام عليكم نعرض على سيادتكم الكريمة أننا كتبنا لسيدنا المنصور كتابا نعلمه بوصول سفينة برطقيزية من أجبونة بهدية وكتاب لسيدنا وقد أمرني الوزير بأمر البرينسبي مولاي أن نتوجه بها إلى حضرة سيدنا ومعي الفرايلي كاتب هذا الكتاب القادم علينا وقد طلبنا منه أيده الله ذلك فلأجله نطلب من فضلكم أن تقفوا معنا في هذا الغرض عند سيدنا إلى أن يبعث لنا أمره الشريف بالتوجيه لحضرته العالية بالله وأما كاتب هذا الكتاب يسلم عليكم كثير السلام ويطلب الله دوام عافيتكم ونحن ان تعرض لكم غرض هنا أو في بلادنا اعلمونا به نقضيه لكم والسلام. كتب في 14 رجب عام 1211. عن إذن قونصو البرطقيز جرج كلاص.

الأحد 22 يناير: بما أن الأمير مولاي الطيب كان قد خرج من العرائش إلى الرباط على رأس مجموعة من الجنود، عندما وصلت رسالتنا إلى هناك، لذلك لم نتوصل بجوابه إلا اليوم. وهذا جوابه:

باسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم إلى خديم جانبنا الأعز بالله قونصو البرطقيز بطنجة المحروسة أما بعد فكتابك ورد على شريف مقامنا تعرفنا فيه بوصول المركب الذي فيه هدية مولانا المنصور بالله أعز الله جانبه وكتاب البرينسبي إليه كما تعرفنا أيضا أنه وصل في المركب المذكور صحبة ما ذكرنا من هدية مولانا وأخينا وكتاب البرنسبي إليه هدية جانبنا الأسمى كتاب البرينسبي إلينا في الوقوف مع هديتكم والمشاورة عليها عن سيدنا وأخينا فقد تعرفنا كل ذلك وانتهى خبره لكريم علمنا والذي يكون عليه عملكم ونأمركم به أن تتركوا تلك الهدية على ما هي عليه تحت أيديكم حتى نتلاقى بمولانا وسيدنا السلطان نصره الله ونعرفه بأمر وصولها ونشاوره على المحل الذي تلحقه فيه ونكتب لكم بشريف أمره ونبين المحل الذي تأتي الهدية إليه فإذ ذاك تقدمون بها على يقين وبصيرة وإذا وصلكم الأمر بالقدوم على مولانا فادفعوا هدية جانبنا المحفوظ لكاتبنا السيد محمد هناك واتركوها بذمته واصحبوا معكم كتاب البرينسبي إلينا وعلى ما رسمنا لكم العمل وبتاريخ العشرين من رجب الفرد الحرام من عام 1211 ومنه أيضا أننا نقف معكم بحول الله عند مولانا في جميع أغراضكم وما تطلبونه حتى يتم ذلك على ما تحبون وتريدون إن شاء الله وبه تم في التاريخ المذكور.

الاثنين 6 فبراير: اليوم، وصل البريد حاملا الأجوبة على الرسائل التي كتبت يوم 14 يناير إلى السلطان والأمير مولاي عبد السلام وابن عثمان الوزير الأول. وقد تأخر الرد كل هذه المدة لأن الرسائل حين وصلت إلى العاصمة مكناس كان السلطان قد غادرها على رأس جيشه في اتجاه مدينة سلا، وبما أنه كان يتعين أيضا إيصال رسالة الأمير عبد السلام في فاس حيث إقامته، فقد توجه البريد إلى هناك، ثم عاد مواصلا طريقه إلى أن لحق بالسلطان بالقرب من سلا، وعاد بمجرد ما بلغ الرسائل وتلقى الأجوبة التي كانت طيبة. واحدة منها إلى حاكم هذه المدينة لتقديم كل ما هو ضروري لمرافقة الهدية والجنود لحراستنا كما يرى في الرسالة. وعاد إلى فاس لتلقي جواب الأمير مولاي عبد السلام الذي زيادة على إعطائه الجواب كلف بعض خدمه بجلب هديته لاعتقاده بأننا لا يمكننا المرور بفاس أثناء نقلنا لهدية السلطان.

نسخة جواب السلطان على رسالتنا:

باسم الله الرحمن الرحيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، إلى قونصو البرطقيز بطنجة، أما بعد، ورد علينا كتابك تخبرنا فيه بورود الأمر عليك من دولتك بالقدوم على حضرتنا العلية بالله أنت والفرايلي والهدية وتستأذننا في القدوم فنأمرك أن تقدم علينا كما طلبت وها نحن أمرنا وصيفنا السيد محمد السلاوي يقضي لك كل ما تحتاجه ويوجه معك الخيل والسلام في 24 رجب عام 1211.

نسخة الرسالة المبعوثة إلى حاكم هذه المدينة:

الحمد لله وحده

وصيفنا السيد محمد السلاوي سلام عليك ورحمة الله وبركاته، وبعد، فنامرك أن توجه إلى حضرتنا العلية بالله فونصو البرطقيز والهدية التي أتته من سلطانه إلينا واكترِ له من البهايم ما يكفيه وابعث معه عشرة من الخيل يرافقونه في الطريق ويحرسونه واعطِ كبير الخيل ما يصرف على القونصو المذكور في الطريق والله يعينك والسلام. في رابع وعشرين رجب عام 1211.



نسخة جواب ابن عثمان:

بسم الله الرحمن الرحيم

صاحبنا القونصو جرج كلاص البرطقيز أما بعد فقد وصلنا كتابك مع كتاب سيدنا نصره الله تطلب فيه الإذن في القدوم على حضرة سيدنا مع صاحبك الفرايلي والهدية الواردة عليك لسيدنا أيده الله من الكرطي واعلمنا سيدنا نصره الله بمرادك وها أنا بعثت لك الأمر بالقدوم ولقياد البلد ببعثك وتجهيزك وبعث الخيل معك وقد وقفت في كتابك على سلام الكاتب ففرحت كثيرا لكونه على خير وعافية وحامل الكتب بلغ إلينا المكاتب وقد بقي بيننا وبين الوصول إلى سلا أربع ساعة[10] والسلام. في 24 رجب عام 1221. محمد بن عثمان لطف الله به.

نسخة من جواب الأمير مولاي عبد السلام:

الحمد لله وحده

صاحبنا ومحبنا النصراني جرج كلاصق ونصو البرطقيز أما بعد، فقد بلغنا كتابك وفهمناه وما ذكرت على الهدية التي وردت من الأجبونة ها نحن بعثنا إليك صاحبنا الحاج كروم أدفعها إليه يأتي إلينا بها والسيد محمد السلاوي يكتري إليه البهايم تحملها إلى هنا ونحن نخلص الكراء والسلطان نصره الله توجه بالسلامة والعافية لناحية رباط الفتح فتح الله عليه وظفره بمراده، آمين وأعانه على جمع كلمة المسلمين والسلام في أواخر رجب الفرد عام 1211.

عن إذن مولانا عبد السلام ابن أمير المومنين

الخميس 9 فبراير: اليوم وكذلك في اليومين السابقين أطلقت المدفعية بهذه المدينة مرات متعددة احتفاء بالنصر الذي أحرزه سليمان ضد مولاي عبد المالك، الذي بايعته منطقة الشاوية. وأسعدنا أيضا وصول رسالة اليوم من الأمير مولاي الطيب ومعها أمر بالذهاب إلى مكناس. بمجرد تسلمنا لهذه الرسالة قررنا أن لا نسلم هدية مولاي عبد السلام إلى خادمه، وأن نأخذها معنا إلى مكناس وبذلك لا نضطر إلى تقديم هدية جديدة إليه عند التقائنا به في هذه المدينة، وبدون هذا التصرف لا يمكننا بأية حال تجنب تقديم هدية جديدة إليه، كما هي العادة عند هؤلاء الناس.

10- يقصد ربع ساعة.

نسخة من رسالة الأمير مولاي الطيب:

إلى خديمنا قونصو البرطقيز بطنجة المحروسة بالله أما بعد فمولانا وأخونا المنصور بالله أعز الله جانبه قد أمر بإتيان هديتكم إلى حضرته العليا بالله بمكناس فخذ بالجد والعزم في تهيئة السفر بتلك الهدية مع من عينته دولتكم لمصاحبتها إلى المقام الأعز بالله.

وكاتبنا السيد محمد وفقه الله قد أمرناه بتسيير البغال لحمل هديتكم المذكورة وبالوقوف معكم في أمرها وتوجهها ففواضه [ففاوضه] في ذلك وادافع له هدية جانبنا المحفوظ مع كتاب دولتك إلينا إن لم تكن دفعتها قبل كما أمرناك وقدمنا لك وعلى ما رسمنا العمل والتمام بتاسع شعبان من عام 1211.

الاثنين 13 فبراير: سلمت هدية ورسالة صاحب السمو الأمير سيدنا الموجهة لمولاي الطيب إلى حاكم هذه المدينة كما أمر في الرسالة السابقة، والتي رد عليها القنصل بالشكل التالي:

بسم الله الرحمن الرحيم،

نعرض على عالي مقام سيدنا أنه وصلنا كتاب سيدنا الشريف مع حامله خديم سيدنا القايد أحمد المتيوي يأمرنا فيه سيدنا بالتوجيه لحضرة سيدنا المنصور بالله بالجد والعزم فليعلم سيدنا أننا حيث وصلنا الخبر برجوع سيدنا للعرايش أردنا التوجيه عليها بقصد التلقاء مع سيدنا بها لندفع لسيدنا كتاب البرينسبي مولاي ونعلم سيدنا بمراده أعزه الله كالأمر الوارد علينا منه وبعد المفوضة مع سيدنا في أمره نتوجه إلى حضرة سيدنا المنصور لاكن حيث أمرنا سيدنا بالتوجيه لحضرة سيدنا أيده الله بالعزم نعم فإن العبد عند أمر سيده وما نطلب من فضل سيدنا إلا أن يكتب لأخيه المنصور بالمطلوب من عالي مقامه أن ينعم علينا بمراد برينسبنا وأما ما أمرنا سيدنا بأننا ندفع لكاتب سيدنا السيد محمد هدية جانبه فقد أمكناه منها وفي صحبة هذا يصل لسيدنا كتاب البرنسيبي والزمام مما تحوي تلك الهدية نطلب الله أن تكون على خاطر سيدنا وربنا يبارك لنا في عمر سيدنا، آمين والسلام. في 15 شعبان عام 1211.

عن إذن قونصو البرطقيز جرج كلاص

السبت 18 فبراير: بمجرد أن توصل الأمير مولاي الطيب بهدية ورسالة صاحب السمو، وعرف مضمونها، وكذلك الكلام الطيب الجميل الذي صاغه القنصل في رسالته السابقة أرسل حالا جنديا فارسا بالرسالة التالية:

بسم الله الرحمن الرحيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. قونصو البرطقيز جرج كلاص، أما بعد، فقد وصلنا كتابك مع كتاب البرينسبي والهدية فقبلناها واستحسناها كثر الله خيركم وأما ما عرفتنا به من أن البرينسبي أمرك بالملاقة معنا قبل الوصول لمقام سيدنا وأخينا المنصور بالله لتنهي لكريم علمنا ما كلفكم به من

الأمور التي في غرضه وتتفاوض معنا في ذلك فبذلك كتب لنا البرينسبي في كتابه المبعوث على يديك وخبرنا بما أمركم به من القدوم على حضرة مولانا نصره الله بعد ملاقتنا السعيدة لنتعرف بجميع ما في مرادكم ونقف معكم في قضاء ذلك عند أخينا أيده الله وأعز أمره وعلى ذلك نامرك بالقدوم على شريف محلنا ومن عندنا تتوجهون لمقام سيدنا الأسمى ويكون جوازكم من هنا فإن الطريق واحدة وإن وصلك أمرنا هذا بالطريق أو بثغر طنجة لابد لك أن تقدم على مقامنا السعيد لتتكلم معنا في غرضكم وأموركم التي أتيتم بقصدها فحينئذ نكتب لك لأخينا وسيدنا المنصور بالله ونقف معكم في كل الأمور حتى يقضى غرضكم على أحسن حال وأكمله بحول الله فإنكم أولى بالوقوف عن غيركم وعلى هذا عملك إن شاء الله والسلام. في تاسع عشر شعبان المبارك عام 1211.

الاثنين 20 فبراير: أخيرا اليوم بعد الظهر أعدت هدية السلطان وأخيه مولاي عبد السلام على متن خمسين بغلة، ومعها كل ما هو ضروري لهذه الرحلة الشاقة، انطلاقا من المحل المسمى المصلى، حيث أقيمت الخيام. وحالا وصل الجنود المعينون لمرافقتنا وكذلك القائد الذي طلبه القنصل ليكون على رأسهم، على الرغم من رغبة حاكم هذه المدينة تعيين نفس القائد لدى قنصل اسبانيا، الشيء الذي عملنا بقوة على أن لا يتم، وإضافة إلى ذلك فإن القنصل الذي كان مدركا لنوايا الحاكم، أجاب بأن القائد الذي طلبناه هو الذي سيرافقنا، وأننا لن نخرج مع أي قائد سواه، إلى حين التوصل بجواب السلطان الذي سبق أن كتب لنا عن نفس القائد، ولذلك لا حاجة إلى إرسال أي كان إلى المدينة لكتابة رسالة أخرى للسلطان في هذا الشأن. هذا الجواب الأكيد جعل الحاكم يوافق على القائد الذي طلبه القنصل.

الثلاثاء 21 فبراير: على الساعة السابعة والنصف صباحا خرجنا من طنجة مرفوقين بعدد من القناصل والأصدقاء. ووصلنا إلى محل المعسكر، حيث التقينا بحاكم هذه المدينة، وبمجرد ما انتهينا من توديعه بدأنا رحلتنا وسط جو جميل، وفي الساعة الثالثة ظهرا وصلنا إلى نهر يسمى الخُلج، وفيه تعرضت لخطر كبير عند عبوره، إلا أنه من حسن حظي أن القائد مرشدَنا، ركب على بغلة قوية وتمكن من إنقاذي، وفي الساعة الخامسة خيمنا بمحل يسمى أولاد السبطة، في قبيلة غربية.

الأربعاء 22 فبراير: من الساعة السادسة إلى السادسة والنصف جمعنا الخيام، وتابعنا الطريق في جو جميل عبر أراضي القبيلة الآنفة الذكر، ثم عبر أراضي قبيلة عمر طيرثة، وفي منتصف النهار نزلنا بجوار غابة، تعرف لدى الأوربيين بغابة العرائش، وفيها ارتحنا إلى الثانية ظهرا، وهو الوقت الذي ركبنا فيه، وقطعنا الغابة المذكورة في ساعتين، وبعدها وصلنا إلى مكان كبير يدعى الخميس، يوجد تحت نفس الغابة في الساعة الرابعة، وفيه خيمنا.

الخميس 23 فبراير: على الساعة السابعة واصلنا رحلتنا، وبعد مرور دقيقتين بدت لنا العرائش. وفي الساعة الثامنة والنصف وصلنا إلى نهر نفس المدينة، حيث وجدنا في انتظارنا نائب القنصل الإنجليزي، والتاجر البرتغالي جوزي أنسلمو دي ماسيدو[11] وقد ركبت أنا والقنصل مع هذا الأخير على متن قارب كان في انتظارنا هناك، ونزلنا منه في الشاطئ، ومنه أخذنا إلى منزله، حيث ضايفنا ضيافة ممتازة، بينما بقي نائب القنصل الإنجليزي مع كاتب القنصل بالجهة الأخرى من النهر، إلى أن تم نقل كل الأمتعة إلى هذه الجهة من النهر، الشيء الذي تم في الحادية عشر صباحا. وبعد الظهر استدعينا للمثول أمام الأمير مولاي الطيب، الذي سألنا، بعد أن قدمنا له التحية الواجبة، عن مطالب دولتنا. أجابه القنصل أنها تريد ميناء خاصا بالدولة البرتغالية، والحق الكامل في التجارة في كل الموانئ الأخرى مثل باقي الدول؛ وقد أجابنا على ذلك بأنه كتب إلى أخيه حول نفس الموضوع على أساس أن القنصل تحدث له عنه بشكل عام بدون تسمية مينائي أسفي والجديدة، لمعرفته بأن الأمير المذكور من أشد المعارضين لهذه التجارة، ولذلك بدلا من أن يتعاون من أجل تلبية المطلب البرتغالي، ربما نصح أخاه بعدم الموافقة على مطالب من هذا النوع.

الجمعة 24 فبراير: بما أن الأمير تأخر قليلا بسبب أمره بكتابة الرسالة إلى السلطان، لم نتمكن من الخروج من العرائش إلا في الساعة الحادية عشرة صباحا، وهو الوقت الذي تابعنا فيه رحلتنا، وقد سرنا بضع ساعات خلال إحدى الغابات ثم خلال حقول جميلة، مسقية بعيون مائية كثيرة، وحديثة عهد بالحرث. وفي الساعة الرابعة والنصف خيمنا بالمحل المسمى الرياحين، بقبيلة بمنطقة الغرب.

السبت 25 فبراير: فجر هذا اليوم سرقت واحدة من النوق، التي بعثها الأمير مولاي الطيب إلى أخيه مولاي عبد السلام، لكن سكان هذا المحل سيدفعون حسابا عنها في يوم آخر. في الساعة السابعة صباحا تابعنا رحلتنا في جو جميل داخل المنطقة المذكورة، وفي منتصف النهار وصلنا إلى محل يسمى مقْوَر، تابع لقبيلة السفيان، حيث نزلنا لتناول ما تيسر من الطعام. وهناك وجدنا بعض الأسوار المهدمة، من مآثر الماضي، والتي يظهر من نوع بنائها أنها من إنجاز الرومان القدامى، الشيء الذي أكده أيضا سكان هذا المكان، قائلين إن أجداد يروون أن هذا المكان كان مأهولا في الماضي بساكنة مسيحية. وبمجرد ما انتهينا من الأكل، تابعنا طريقنا، وفي الساعة الرابعة بعد الظهر خيمنا في نفس المنطقة بقبيلة بني مالك، بمحل يسمى كوار الهْجَفْنَة، قريب من نهر يدعى واد التين.

الأحد 26 فبراير: في فجر هذا اليوم سرقت فرسة في المحل السابق. وفي السابعة صباحا تابعنا سفرنا في جو جميل، وفي العاشرة والنصف وصلنا إلى سوق يسمى سوق الأحد، لأنه

11- José Anselmo de Macedo

يعقد يوم الأحد، مجاور لجبل (Racurta) [12] بمجرد ما وصلنا، فرغ السوق، وحالا وجدنا أنفسنا محاطين بالأعراب. وكل واحد منهم يطنب في الترحيب بنا حسب مشاعره وجهله. أنا أشير فقط إلى سؤال سألنيه واحد منهم، وهو كاف ليوضح جيدا قدرات هؤلاء الناس المتبربرين، وكان كالتالي: هل بالصدفة أصبحتم رجالا وأبناء لآدم؟ وهو سؤال - في الواقع - أضحكنا كثيرا: ومن بين هؤلاء التقينا ببعض معارف وأصدقاء القنصل الذين كانوا يحملون إليه هدايا كثيرة عندما يأتون إلى طنجة. وبعد مرور ما يناهز ساعتين ونصف، ركبنا وواصلنا الطريق إلى الخامسة بعد الظهر، عندما وصلنا إلى محل يقع على ضفة النهر المشهور الرضات، في قبيلة بني مالك، التابع لولي وزان الكبير، المحتال الأكثر توقيرا في كل هذه الامبراطورية، وهناك بتنا. وكل المرافقين لنا ارتاحوا لاختيار هذا المكان الذي يعتبرونه آمنا ويلتمسون فيه بركات هذا المتزمت الكبير، الذي رغم قداسته سرقوا له فرسة. أثار هذا الحادث جدلا كبيرا لدى مرافقينا؛ وفي الأخير انتهوا إلى أن وليهم لن يترك جريمة كبيرة كهذه تمر بدون عقاب.

الاثنين 27 فبراير: ركبنا في السابعة صباحا، وتابعنا رحلتنا في جو جميل، وفي الحادية عشر نزلنا قرب عين تسمى عين القرواش، وهناك وجدنا بعض البنايات المهدمة تماما، والتي يظهر من بنائها أنها جد قديمة، وعند سؤالنا لبعض سكان هذه البلاد عن مؤسس هذا البناءات، أجابونا بأنه يقال أنها كانت مسكنا لملك قديم كان يقيم بها. وتابعنا بعد ذلك رحلتنا، ووصلنا في الواحدة ظهرا إلى النهر المشهور ورغة، الذي يمثل حدا طبيعيا بين عدد من القبائل. وفي الخامسة عشية أتينا إلى الجبل المسمى جبل الكلخ، لدى القبيلة المسماة أولاد عيسى، ونصبنا خيامنا إزاء المحل المعروف باسم دوار القاضي، وبمجرد ما خيمنا بدأت الأمطار في التهاطل، وظلت كذلك طول الليل، الشيء الذي أفرح كثيرا كل هؤلاء الناس، لحاجتهم الشديدة إلى هذه الأمطار.

الثلاثاء 28 فبراير: يظهر أن اللصوص شرفونا بمرافقتنا منذ خروجنا من العرائش إلى هنا، وقد استمرت وقاحتهم أيضا هذا الفجر، لأن أحدهم حاول سرقة أحد الخيول الخاصة بالجنود المرافقين لنا، ولكنه لم يتمكن من ذلك، لأنهم أحسوا به؛ وقد كان سعيد الحظ لأن الجنود أطلقوا عليه النار من ثلاث عشرة بندقية، وواحد منهم كان في المؤخرة وأطلق عليه النار من مسدسه، لكنه لم يصبه على ما يظهر. في الثامنة صباحا تابعنا سفرنا في جو غائم قليلا؛ لكن بدون أمطار. وفي التاسعة مررنا بجوار مكان يعيش فيه أحد أبناء الامبراطور الراحل اليزيد. وبعد دقائق قليلة دخلنا إلى سوق يسمى سوق الثلاثاء، حيث رأينا بعض آثار المساكن العتيقة، التي حسب أقوال سكان البلاد تعود إلى العهد الروماني. وفي الحادية عشرة صباحا عبرنا النهر الشهير سبو ومنه أرسلنا جنديا ليسبقنا ويخبر السلطان بوصولنا، وفي

12 - قد يكون حد كورت.

الخامسة عشية خيمنا بالمكان المسمى عين البقار، لدى قبيلة أولاد الجمع، عندما بدأت الأمطار في التهاطل، وقد استمرت كذلك طول الليل.

الأربعاء 1 مارس: على الساعة الثامنة صباحا تابعنا رحلتنا في جو جميل، وفي الواحدة ظهرا وجدنا في استقبالنا بضواحي فاس الحاج حمو بن حيون حاجب الامبراطور، مرفوقا ببعض الجنود لحراستنا وبأخ الوزير الأول، الذين، بعد أن سلموا علينا، واحد باسم السلطان، والآخر باسم أخيه، قادونا وسط تلك المدينة إلى الحديقة العظيمة التي هي للقائد العربي الصفار، الحاكم الذي كان بفاس والصويرة، في حياة الامبراطور سيدي محمد، حيث أقمنا إقامة جيدة مع كل أعضاء وفدنا.

الخميس 2 مارس: قدم بعد الظهر أخ الوزير بن عثمان، ومعه أمر لنا بالاستعداد، لأن الامبراطور قرر أن يخصنا بالمقابلة الأولى في اليوم الموالي في منتصف النهار.

الجمعة 3 مارس: بدأنا في إعداد الهدية على الساعة العاشرة صباحا على الشكل التالي: على كل بغلة وضعنا صندوقا، وكل واحدة يرافقها جندي، وبمجرد الانتهاء من هذا العمل، الذي تم في الحادية عشرة، ركبنا الجياد، وتوجهنا إلى فاس الجديد، مرفوقين بالحاجب المذكور، وبجنودنا، وغيرهم من الجنود، وفي منتصف النهار وصلنا إلى هناك. في الوقت الذي دخل فيه الامبراطور إلى المسجد، الذي يوجد على الجانب الأيسر عند الخروج من القصر. وقد أخذنا المكلف بتقديمنا إلى إحدى الساحات التي توجد أمام القصر. وقد أوقفنا في وسط تلك الساحة التي كانت محاطة بالفرق العسكرية. ثم خرج السلطان من المسجد في الواحدة والنصف، كان موضعي على الجانب الأيمن للقنصل ومعي محفظة الرسالة، وسكرتيره على جانبه الأيسر ومعه محفظة المفاتيح. بعد ذلك رأينا الامبراطور يخرج مع رجال دولته، على الشكل التالي: قدم أولا كل الأمراء، الذين انتظموا في صفين، وخرجوا من جهتي باب القصر. بعد ذلك تبعهم الخدم والحراس، ثم الامبراطور ممتطيا صهوة حصان جميل وعلى مقربة منا توقف الحصان على بعد نحو ثلاث خطوات. ووصل بعده مباشرة الوزير ابن عثمان، وتكلم معه، فأمره السلطان أن يقول لنا، بأنه يكن لسمو الأمير، وكل الشعب البرتغالي تقديرا كبيرا، وأن دولة البرتغال ظلت دائما محل صداقته الأكيدة، وهو لذلك يقدرها أكثر من أي دولة أخرى. وقد أجاب القنصل على ذلك مقدما له الشكر باسم سمو الأمير وكل الشعب البرتغالي. وبعد أن قام الوزير المذكور بعرض جواب القنصل عليه، أمره أن يعبر للقنصل عن متمنياته الصادقة، وإرادته الحسنة في تلبية ما يرغب فيه سمو الأمير. وقد عاد القنصل للجواب على ذلك مقدما له من جديد تشكراته وطالبا منه أن يخصه بمقابلة خاصة يعرض عليه فيها كل مطالب حكومتنا، ولم يبق إلا تسليم الرسالة ومفاتيح الهدية، الشيء الذي تم فعلا، وعاد العاهل إلى داخل القصر، ونحن إلى محل إقامتنا. وبعد الظهر ذهبنا لتقديم هديتنا إلى الأمير مولاي عبد

السلام الذي استقبلنا بمظاهر الفرح والشكر، معبرا عن استعداده لتقديم كل ما يخدم أو يرضي سمو الأمير والدولة البرتغالية.

السبت 4 مارس: انشغلنا كل اليوم في إعطاء الهدايا، وتوزيع النقود، حسب المعتاد من طرف خدم الامبراطور.

الأحد 5 مارس: واصلنا نفس العمل الذي بدأناه في اليوم السابق، وبعثنا بهدية للوزير ابن عثمان، وكانت كما يلي: صندوق به ألف قطعة نقدية، قطع من ثوب الحرير، وثوب من النوع الانجليزي، وقطع من الموسلين، وثوب هولاندي، والقهوة، وصندوق من الشاي، وآخر به قوالب السكر والشوكولاطة.

الاثنين 6 مارس: على الساعة الثانية ظهرا انتقلنا إلى حديقة [رياض] الحاج عبد الكريم بن يحيى، حيث كان يوجد أيضا الوزير الأول بن عثمان، لكي نتفاوض فيها معه، ونعرض عليه كل مطالب حكومتنا، بناء على أوامر الامبراطور، وفي هذا اللقاء استعرض القنصل كل المطالب حسب توجيهات دولتنا، ملحا أساسا على نقص الحبوب في المملكة، وهو السبب الذي أرغم سمو الأمير على أن يطلب من الامبراطور أن يمنحه مرسى خاصا بالدولة البرتغالية، وحرية التجارة بكل المراسي الأخرى، بما فيها مرسى آسفي والجديدة. وقد رد الوزير المذكور على كل هذا بأنه يرى أن من الأحسن تسليمه مطالبنا مكتوبة، لكي يقدمها للامبراطور، لأنه بهذه الطريقة يضمن ألا ينسى أي شيء؛ ويرى أيضا أنه ليس من المناسب أن تتضمن المطلب المتعلق بالخيول، لأن السلطان لن يقبل ذلك، لأنه محرم في شريعته، ولأن الخيول ضرورية جدا لجيشه. وبعد انتهاء هذه المفاوضات خرجنا، وكتبت في الحال بالعربية كل المطالب على الشكل التالي:

ظرف جميع الأغراض التي يطلب قونصو البرطقيز بأمر البرينسبي مولاه من فضل سيدنا أيده الله:

أولا أن تكون رعية البرطقيز مقبولة مكرومة محفوظة في جميع بلاد سيدنا فلأجله يطلب من فضل سيدنا أن يبعث أمره الكريم لجميع خدامه في مراسيه السعيدة على ذلك ليفرحوا بها ويعاذبوا من يقارب لها بسوء أو مظلم.

ثانيا أن يخص سيدنا رعيتنا بمرسى العرايش لتوسق منها الزرع وغير ذلك والوسق أيضا من غيرها كالأجناس الأخرى.

ثالثا أن يسرح سيدنا لجنسنا الوسق من مرستين آسفي وطيط. وذلك كما سرح سيدنا الوسق منها لجنس الاصبنيول.

رابعا أن يبعث سيدنا أمره الكريم لجميع خدامه بمراسيه السعيدة ليعطوا لقراسيننا الفريشك[13] وجميع ما تحتاج إليها من ثيران وغنم وقطونية وبجماط ولحم مملح وغير ذلك بلا لازم ولا صاكة[14] وذلك كما كان في حياة سيدنا الكبير إلى الآن.

خامسا وسق البغال وصاكتها ثمانية ريال عن كل البغال[15] ووسق أيضا البقار وصاكتها ثلاثة ريال عن كل الرأس واللازم لحاكم البلاد وهو وقيتان ونصف وقية عن كل الثور.

سادسا أن يبعث سيدنا أمره ليدفع لي الكاغيد الذي أعطى قونصو دينمارك مكتوب بخط يده لسيدنا ومولانا الطيب شاهدا فيه من أن المركب الذي قبض فيه الرايس ابن مبارك الأحد عشر ألف ريال خمسةماية ريال كان يسافر لآسفي وذلك كما ذكر لي حاكم الرباط في كتابه وكذا يقطع الكلام في ذلك[16].

الأربعاء 8 مارس: في الواحدة ظهرا قدم القائد المكلف بإسطبل الامبراطور القايد بوجمعة، مرفوقا بأربعة من الخدم، يقودون حصانا وهبه الامبراطور هدية للقنصل، وبغلة هدية لي.

في الثانية قدم أحد خدام الوزير ابن عثمان، ومعه أمر بالتحادث معنا، وهو ما نفذناه بسرعة، وبعد تبادلنا للتحية، بلغنا جواب عاهله على كل مطالب دولتنا، على الوجه التالي: فيما يتعلق بالنقطة الأولى والرابعة والسادسة، فقد وافق عليها جلالته بالشكل المقترح من القنصل، ومن أجل ذلك سيرسل حالا أوامره إلى كل حكام مراسيه، أما فيما يخص النقطة الثانية فقد وافق جلالته أيضا عليها بالشكل المقترح من القنصل؛ على اساس التزام البرتغاليين بعدم الذهاب للتجارة في مراسي أسفي والجديدة، كما في المطلب الثالث، وأن جلالته ينبه القنصل إلى أن أي محاولة للاتجار سرا مع هذه المراسي، وبدون رضاه، يمكن أن تحرمهم من تخصيص مرسى العرائش لهم. ألح القنصل على هذه النقطة موضحا حاجة البرتغال إلى الحبوب، وأظهر له عددا من الأسباب التي تدفع البرتغال إلى الاتجار بهذه المراسي، وأن الحاجة وليس أي سبب آخر هي التي أرغمت البرتغال على طلب هذا الامتياز، وهذا بعد أن رأت تخويل هذا الامتياز للاسبانيين. وقد رد الوزير المذكور على هذا بأن الامبراطور يعرف جيدا مدى الضرر الذي تحدثه كل التجارة التي تتم مع هذه المنطقة الثائرة، لأنها تدعم موقفها، وأنه سبق له أن سمح للإسبان بالاتجار معها، وأنه سيوقف هذا الامتياز للقضاء على عنادها. وبمجرد ما ينتهي الإسبان من وسق الحبوب التي لهم بالدار البيضاء، سيكلمهم

13- القراسين: السفن ا لحربية، والفريشك: ما يقدم كمؤونة للسفن.

14- القطونية: القطاني والخضر، والبجماط: البيسكوت، والصاكة: ما يدفع من رسوم على الصادرات.

15- يقصد عن كل بغل.

16- أي ينهي الموضوع تماما.

بوضوح، ولا يهمه أي موقف يتخذونه. أما فيما يخص الصاكة، فإن جلالته أعطى أمرا بأن تدفع الدولة البرتغالية نفس الحقوق التي تدفعها الدولة الأكثر تفضيلا. وبما أن القنصل يعرف أن السلطان لا يسمح بإعفاء المواشي من الصاكة فقد طلب أن يتم على الأقل تخفيضها، وهو ما لم يحصل عليه بالشكل المطلوب، ولكن حصل فقط على حق أداء الحقوق التي تدفعها الدولة الأكثر تفضيلا.

في نفس الوقت طلب الوزير المذكور من القنصل باسم جلالته، أن يأخذ ست عشرة صرة من الذهب على شكل تبر، وأن يسلمها للأمير سيدنا لكي يسلم له مقابلها قيمتها من البارود ! وقد رد القنصل على ذلك بأنه لا يمكنه التحدث إلى سمو أميره في موضوع كهذا في الظروف الحالية، لأنه يعرف بأن كل البارود الذي تنتجه المصانع ضروري لحاجيات الجيش والأسطول. لكن حينما رأى إلحاحه، مذكرا بما يمكن أن يحدثه جواب مثل هذا من غضب للسلطان، تعهد بالبحث من جهة ثانية - في حالة استحالة تلبية الطلب- عند بعض الوكلاء المتعاملين معه. في الليل وصل أمر من الوزير المذكور بأن نستعد في اليوم التالي لمقابلة جلالته وتوديعه.

الجمعة 10 مارس: في منتصف النهار وصلنا إلى فاس الجديد، وقد ظللنا لمدة ساعة بإزاء القصر في انتظار الملك، ووصل خادم ومعه أمر من جلالته بأن نتوجه إلى الحديقة المسماة بوجلود، التي توجد بين فاس الجديد وفاس البالي حيث يوجد جلالته في انتظارنا، وقد نفذنا الأمر. وعلى باب نفس الحديقة التقينا الوزير المذكور ومعه أعيان آخرون رافقونا حتى النهر الذي يجري في وسط الحديقة، وفوق هذا البناء دار صغيرة دخلنا إليها، وتم تقديمنا من طرف الوزير المذكور إلى السلطان، الذي كان جالسا بها. استقبلنا هذا العاهل بمظاهر الترحيب والفرح المعتادة، ودعانا إلى قرب مجلسه، وأكد لنا أنه على يقين من الإخلاص والصداقة التي كانت دائما مع سمو الأمير والشعب البرتغالي وهو الشيء الذي يدفعه إلى تقديرنا أكثر من أي كان، وأن رضاه الأكبر هو القدرة على تلبية كل ما يطلبه سمو الأمير. وقد رد القنصل على ذلك بمظاهر الشكر، مهديا له في نفس المناسبة الخاتم الذي كان ضمن الهدية. وأخيرا عندما تأهب القنصل للاستئذان من جلالته، طلب منه أن يكتب إلى دولتنا بأن تبعث إليه بستانيا جيدا. في هذه المناسبة تكلم الوزير ابن عثمان بشكل غريب بالنسبة لنا، لأنه أطنب كثيرا في مدح الدولة الإسبانية، واحتج في حضورنا على سلطانه، لأن الدولة البرتغالية هي الوحيدة التي تحظى حقيقة بثنائه، ويقدرها أكثر.

الاثنين 13 مارس: في الظهر ذهبنا للاستئذان من الوزير ابن عثمان. عاد القنصل للكلام معه عن ميناء العرائش وعن الاتجار مع مراسي آسفي والجديدة، مركزا على نفس الأسباب التي تعطي لهذه المطالب أهميتها الكبرى بالنسبة للبرتغال. وقد أجاب الوزير المذكور على ذلك بأنه عرض كل ذلك من جديد على جلالته؛ وأنه أجابه بنفس ما قاله لنا من قبل. بعد

ذلك ذهبنا للاستئذان من الأمير مولاي عبد السلام، الذي وعدنا بأن يعطينا جواب الرسالة التي كتبها له سمو الأمير.

الثلاثاء 14 مارس: أرسل مولاي عبد السلام كاتبه بجوابه إلى سمو الأمير.

الأربعاء 15 مارس:في الساعة الثامنة صباحا تسلمنا جواب جلالته على رسالة سمو الأمير سيدنا؛ ومعها أمر إلى الأمير مولاي الطيب، وإلى حكام كل الموانئ حول ما يكون عليه تعاملهم مع البرتغاليين. وفيما يلي نسخة من الرسالة التي كتبها لأخيه مولاي الطيب:

الحمد لله وحده

أخونا الأعز الأرضى مولاي الطيب رعاك الله وسلام عليك ورحمة الله وبركاته وبعد، فقد أنفذنا أمرنا المطاع بالله لمراسينا بأن يستوصوا خيرا بجنس البرطقيز ويراعوهم ولا يتركوا أحدا يؤذيهم أو يظلموهم ومن تعدى على أحد منهم يعاقب كما أمرناهم بأن يسرحوا لقراسينهم كل ما يحتاجون إليه من بقر وغنم ولحم مملح وخبز وبجماط وخضر وساير أنواع الفريشك من غير لازم ولا صاكة كما كان لهم ذلك في حياة الوالد رحمه الله وكذلك صاكة البقر والبغال وغيرها من الموسوقات لا يلزم هذا الجنس فيها إلا ما يلزم غيره ولا يزاد عليه شيء ولا يفضل عليه غيره والله تعالى يحرسك والسلام. في منتصف شهر رمضان من عام 1211 [موافق 14 مارس 1797].

نسخة من الرسالة الموجهة إلى حاكم طنجة، والتي أرسلت نسخ مماثلة لها إلى كل حكام المراسي الأخرى:

الحمد لله وحده

خديمنا القايد محمد السلاوي سلام عليك ورحمة الله وبركاته وبعد.

فنامرك أن تستوصي خيرا بجنس البرطقيز وكل من يرد عليكم منهم فعاملوهم بأحسن المعاملات ولاحظوهم بالإحسان ولا تترك من يقربهم بسوء أو يطوف بساحتهم بمكروه ومن ظلم أحدا منهم أو تعدى عليه فأدبه وعاقبه بما يستحقه وكذلك قراسينهم يحملون كل ما يتوقفون عليه من بقر وغنم وخبز وبجماط وساير أنواع الفريشك من غير صاكة ولا لازم على ذلك كما كان لهم ذلك قديما حيات سيدنا رحمه الله والسلام، في حادي عشر رمضان عام 1211.

بمجرد تسلمنا لرسائل جلالته تأهبنا للرحيل، وفعلا خرجنا من تلك المدينة على الساعة الثانية ظهرا، من الباب السمى بني مسافر. ولحظات بعد ذلك بدأت الأمطار في التساقط، وفي الساعة السادسة مساء خيمنا في أحد المرتفعات بإزاء الجبل المسمى كبكب، بدون أن تتوقف الأمطار التي استمرت في التهاطل طيلة تلك الليلة.

الخميس 16 مارس: على الساعة السادسة صباحا تابعنا رحلتنا في جو ممطر، وفي الواحدة والنصف ظهرا وصلنا إلى نهر سبو. وحاولنا عبوره لكن ذلك لم يكن ممكنا بسبب الأحمال الثقيلة، التي كانت تصحبنا، وبما أنه قيل لنا إن القارب، الموجود في أعلى النهر، مصاب بأعطاب، قررنا المبيت هناك، وإرجاء العبور إلى اليوم الموالي.

الجمعة 17 مارس: ارتفع مستوى الماء على حافة النهر، وعندما رأينا أننا لا نستطيع العبور خلال هذا اليوم كله، أرسلنا أحد الجنود لينظر الحالة التي يوجد عليها القارب، وحمل إلينا خبرا مفاده أن القارب محفوظ في مكانه، فقررنا الذهاب إليه في اليوم الموالي للعبور بواسطته، في حالة ما إذا تعذر علينا عبوره من هذا المكان إلى غاية الغد.

بعد الظهر وصل أحد خدام السلطان ومع حمولة من التمر هدية للقنصل. السبب الذي من أجله تبعنا ذلك الخادم، هو أن السلطان اعتقد أننا لازلنا لم نغادر المدينة، وحين أحيط علما بخروجنا، أمره بأن يلحق بنا بالهدية.

السبت 18 مارس: عندما رأينا أنه لا يمكننا عبور النهر من تلك الجهة، ذهبنا إلى المكان الذي قيل لنا إن القارب يوجد فيه، وفعلا وصلنا إلى هناك على الساعة الحادية عشر صباحا، وبدأنا فورا في العبور، وبما أن القارب كان صغيرا، فإن عملية العبور لم تنته إلا في الساعة الثالثة بعد الظهر. وتابعنا مباشرة رحلتنا، ووصلنا في الخامسة عشية إلى المكان المسمى عين جعبة، في قبيلة أولاد عيسى، حيث بتنا.

الأحد 19 مارس: تابعنا رحلتنا في جو جميل على الساعة السادسة صباحا، وفي العاشرة وصلنا إلى ورغة، وبدأنا حالا في العبور على متن زورق ضعيف، مدعم بقضبان حديدية، وأكملنا العبور في الساعة الثانية ظهرا، وتابعنا رحلتنا، وخيمنا على الساعة الخامسة عشية بجانب نهر واد حمد الله، بقبيلة بني مالك.

الاثنين 20 مارس: تساقطت الأمطار خلال الليلة الماضية كلها واستمرت في التهاطل طوال اليوم بدون انقطاع، لدرجة أن أي مجرى مائي صغير تحول إلى نهر كبير، والبغال كانت تسقط في كل وقت. وفي الأخير، وصلنا إلى درجة لم يعد البلل فيها مقتصرا على ملابسنا التي على ظهورنا، ولكنه تسرب إلى الصناديق أيضا. وقد كان هذا حالنا حين وصلنا في الرابعة عشية إلى مكان السوق المسمى سوق الأحد، حيث خيمنا. وأمضينا به ليلة حالكة تتخللها الأمطار والرياح، لدرجة أن الماء بلل بعض الأثواب التي كانت في رحلنا.

الثلاثاء 21 مارس: بما أنه كانت لدينا عدة أنهار يمكن العبور منها، وتيقنا من أنها غير صالحة للعبور، قررنا الذهاب، إلى نقطة عميقة من نهر واد [التين]، يستلزم الذهاب إليها القيام بدورة، ووصلنا إليها في العاشرة صباحا، ومنها أخذنا نبحث عن معبر ممكن من النهر.

وفي الرابعة عشية وصلنا إلى نهر صغير، لكنه مع ذلك كان مليئا، بالقرب من السوق المسمى أربعا عيسى بن حسن، حيث خيمنا بقربه لتعذر العبور منه.

الأربعاء 22 مارس: خرجنا من هنا في الساعة السادسة والنصف صباحا، وفي الثانية والنصف ظهرا، وصلنا إلى نهر القصر. وانتهينا من عبوره في الخامسة عشية، وتوجهنا وسط الحدائق الجميلة التي تحيط بهذه المدينة. ودخلنا بعد ذلك إلى المدينة، التي كانت في الحقيقة جد متسخة، بحيث إن الأوحال في أزقتها كانت تصل إلى بطون البغال، وقد خيمنا في الجهة الثانية من المدينة، في المكان المسمى النزهة.

الخميس 23 مارس: في الصباح بدأت بكتابة رسالة إلى الأمير مولاي الطيب، ومعها بعثت إليه أمر جلالته حول الدولة البرتغالية. وفي منتصف النهار تابعنا رحلتنا، وفي الخامسة عشية وصلنا إلى نهر واد مخازن، الذي يطلق اسمه على المعركة التي مات فيها الملك الدون سبستيان.

الجمعة 24 مارس: ركبنا في جو جميل في الخامسة صباحا، وخرجنا مرفوقين فقط بجندي واحد، وهدفنا الوصول في نفس اليوم إلى طنجة، وهو ما تم فعلا، لكن بالكثير من العناء والتعب، لأننا واصلنا السفر بدون توقف إلى الساعة السابعة مساء.

السبت 25 مارس: وصل أخيرا الوفد المرافق لنا إلى طنجة في الساعة السادسة مساء.

الثلاثاء 28 مارس: وصل جواب الأمير مولاي الطيب على الرسالة التي كتبتها له من القصر، ومعها جوابه على رسالة سمو الأمير سيدنا، وقد أجبنا عنها فورا طالبين منه أن يسلمنا الشهادة التي سلمها له قنصل الدانمارك، حول السفينة التي كانت متجهة إلى أسفي، وبها أحد عشر ألفا وخمسمائة [دورو].

الأربعاء 12 أبريل: بعد الظهر أبحرت على متن السفينة الملكية (O serbe)، ووصلت سالما إلى لشبونة يوم 21 من نفس الشهر.

Sexta feira 13 do d.º

Desembarcou-se o prezente, e foi conduzido p.r hum dos Armazens do Consul.

Sabado 14 do d.º

Escrevi por ordem do Consul de S. Mag.e as seguintes Cartas

Copia da Carta escrita ao Imperador Soliman.

بسم الله الرحمن الرحيم
نعرض على عالي مقام سيدنا انها وصلت لهذه المرسى سفينة برطغيزية
من اجبونة بهدية وكتاب كرطينا لسيدنا وقد كتب لي الوزير كتابا يامرني
بامر البرينسبي مولاي بالتوجيه لحضرة سيدنا العالية مع الهدية والكتاب
لسيدنا وهذا ما وجب علي الاعلام به لسيدنا طالبا من فضله الكريم
ان يامرني بالتوجيه لحضرته الشريفة ومعي كاتب هذا الكتاب وهو
العرايلي الوارد علي بامر الكرطي ليتوجه معي ترجمان لحضرة سيدنا وربنا
يبارك لنا في عمر سيدنا امين والسلام كتب في 14 رجب عام 1211

Em nome de Deos Clemente e Misericordioso.

Tenho a honra de participar a V. M. a chegada da Fragata Portugueza a este Porto com o prezente e Carta da minha Corte p.a V. Mag.e, e de como recebi ao mesmo tempo carta do Ministro de Estado respectivo, na qual me determina por ordem de S. A. o Principe meu Amo, que me dirija com o sobre dito prezente e Carta a prezença de V. M., e que leve comigo o Religiozo, que me deverá servir de Interprete, graça que espero da benignidade de V. Mag.e a q.m Deos dilate a vida por m.s annos. Foi escrita a 14 de Ragel Anno de 1211. Corresponde a 13 de Janeiro de 1797.

Jorge Pedro Collaço Consul de Portugal

Copia da Carta escrita ao Principe Muley Taib, Irmão do Imperador.

الاعلام به لسيدنا انها وردت على هذه المرسى سفينة برطغيزية من
اجبونة بهدية وكتاب لسيدنا وفي صحبتها هدية وكتاب اليكم وقد امرني
الوزير بامر البرينسبي ان نتوجه مع الهدية لحضرة سيدنا بعد التلاقي
معكم لتفعلوا معنا فيما نريده من سيدنا المنصور ظاهرا من البرينسبي انكم
اعزكم الله هنا لاكن حيث انتم بالعرايش ووصلنا الخبر انكم خارجين منها
ويخفى علينا الموضع الذي تمشون اليه ووجب علينا الكتب اليكم ونعلمكم
باننا قد كتبنا لسيدنا واعلمناه بما نعلمكم به طالبون منه الامر بالتوجيه
لحضرته العالية ولاجله نطلب من فضلكم ان تعلمونا بالموضع الذي نلاقيكم
فيه لاننا نريد النظر لوجهكم الكريم وان كنتم في العرايش او مع سيدنا بذلك

الصفحة الثانية من مخطوط اليوميات

المغرب والبرتغال في مواجهة التحولات الدولية[1]

يتضمن تاريخ المغرب والبرتغال تقاطعات كثيرة، كما يشترك في بعض المحطات الهامة من التاريخ المحلي والدولي. ويمكن أن نشير بإجمال حسب ما يقتضيه المقام إلى بعض هذه المحطات المتميزة التي تشير إلى هذه التحولات الكبرى والتي كان لها تأثير واضح على تاريخ البلدين.

أول هذه التحولات هي تلك المتعلقة بالمد الإسلامي والعربي. هناك بدون شك إمكانيات لدراسة الفترة السابقة على هذه المرحلة، لكنني لا أستطيع الخوض فيها لبعدها عن مجالات اهتمامي وتخصصي. ولكن المغرب والبرتغال، عرفتا مع فترة المد العربي الإسلامي وصول الجيوش العربية الفاتحة، وتفاعلا مع الوجود العربي الإسلامي.

ما ينبغي التذكير به والتركيز عليه هنا هو أن العنصر الذي انتقل إلى شبه جزيرة إيبيريا لم يكن عربيا مشرقيا صرفا، لأن المنطق والتاريخ يفيد بأن المجموعات التي وصلت إلى إفريقيا الشمالية خلال الفتوحات الإسلامية لم تكن بالكم الذي يسمح لها أن تستوطن كل هذه النواحي، وتجييش الجيوش الوافرة العدد، التي يحتاج إليها في الحروب وحراسة المواقع والمدن والاستقرار بهذه المناطق، ويظهر هذا خاصة بالنسبة للعنصر النسوي الضروري للاستقرار. وهذا يعني أن المغرب شكل خزانا بشريا لتزويد القادة الفاتحين والدول التي أقيمت فيما بعد، بحاجتهم من الرجال للأمن والاستقرار والاستمرار، وأن أعدادا هامة من الرجال والنساء انتقلت إلى الجزيرة الإيبيرية للاستقرار والخدمة، دونما إهمال العنصر المحلي ودوره في نشوء ما سيسمى فيما بعد بالحضارة الأندلسية. لقد وقع انصهار وتمازج، وتفاعل بين مكونات سكان الجزيرة بما فيهم المغاربة وسكان البرتغال آنذاك.

وهذا يعني أن كلا من المغرب والبرتغال- مع التحفظات المنهجية التي لا بد من التذكير بها عن ماهية ما يسمى آنذاك بالمغرب والبرتغال- ساهما بشكل فعال في نشوء وتطور ما يسمى بالحضارة العربية الإسلامية بالأندلس. ولم يكتف المغاربة بذلك، بل إن الدول المغربية الكبرى، وأعني بها الدولة المرابطية والموحدية، فرضت سيطرتها على أجزاء واسعة من تراب شبه الجزيرة، وخلفت آثارا عمرانية ما تزال شاهدة على هذا الحضور المغربي بالبرتغال. ولم يكن هذا الحضور – كما هو معلوم – مقتصرا على الآثار المعمارية، بل تعداه إلى مختلف الجوانب الفكرية والفنية والدينية، والعادات والتقاليد.

---

[1] - نشر هذا المقال كتوطئة للمقال المترجم الذي يليه، في الكتاب الجماعي: المغرب والتحولات الدولية، أعمال ندوة تكريم الأستاذ عثمان المنصوري، تنسيق لطفي بوشنتوف، منشورات كلية الآداب عين الشق الدار البيضاء، سنة 2010، صص. 29-32.

ولا شك أن الحضور " المغربي" في البرتغال، ولعدة قرون، ترك بصماته الواضحة التي لم تستطع التحولات التي أتت فيما بعد أن تمحوها.

المحطة الثانية هي مرحلة المد الإيبيري، وهي مرتبطة بالصراع المسيحي الإسلامي، والاكتشافات الجغرافية الكبرى، وهنا أيضا يوجد تقاطع كبير بين تاريخي البلدين، وتداخل بينهما، بحيث لا بد لمن يرغب في معرفة تاريخ البلدين في الفترة الحديثة أن يطلع على هذه المراحل المشتركة. ولا شك أن هذه المحطة لوحدها تستحق أن تستأثر ببحثنا أكثر، لما يتخللها من تفصيلات وتشعبات، ولكن الغرض من هذه المداخلة هو التركيز على أهم مميزاتها وانعكاساتها على البلدين .

كانت البرتغال سباقة إلى نقل حروب الاسترداد إلى خارج حدود شبه الجزيرة الإيبيرية، وتمكنت من تحقيق إنجاز عسكري وديني إيجابي كان له تأثير قوي على حروب الاسترداد، وعلى مجموع الصراع المسيحي الإسلامي الذي كانت تتزعمه إسبانيا من جهة والدولة العثمانية من جهة ثانية، ويتمثل في احتلال سبتة. و لأول مرة يتمكن المسيحيون من احتلال ثغر ضمن التراب" المغربي"، بما يعنيه ذلك من تحول للحروب من هجوم مغاربي إلى دفاع. ولم يكن الهدف مدينة عادية، ولكنها المدينة النشيطة اقتصاديا على صعيد البحر الأبيض المتوسط، ومنطقة عبور السفن المغربية إلى الأندلس، ونقطة الارتكاز في الدفاع عن الإمارات الإسلامية المتبقية، ونجدتها. وكما هو معلوم فقد شكل هذا الاحتلال نكسة سياسية ودينية واقتصادية للدولة المرينية، وساهم في تكريس ضعفها، وتدهور أحوال المغرب في تلك الفترة الحرجة من تاريخه. وبالمقابل كان بمثابة انطلاقة لدولة قوية، كرست جهودها للاكتشافات الجغرافية، وتمكنت بذلك من تحويل الطرق التجارية التقليدية من البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسي، بما رافق ذلك من امتيازات تجارية واقتصادية وتنام لقوتها العسكرية وتطور لأسطولها. فغدت من الدول العظمى.

كان الهاجس الأساسي لإسبانيا والبرتغال هو الحيلولة دون وصول العثمانيين إلى السواحل المغربية، وانبنت سياستهما على ذلك، وعندما نشأت الدولة السعدية، كان هاجس حكامها أيضا هو السيطرة العثمانية، التي تفادوها بمختلف المناورات السياسية والعسكرية، مما جعل البلدين يتقاربان في بعض الأحيان، وخاصة في عهد عبد الله الغالب، الذي غلب سياسة التلويح بالورقة الإيبيرية على المواجهة العسكرية مع الأتراك التي كان والده محمد الشيخ ينهجها.

تمكن البرتغاليون كما هو معلوم من احتلال المزيد من المراكز والثغور، وخلقوا دينامية سياسية ودينية، ورد فعل استثمر من قبل القوى الموجودة وعلى رأسها الدولة السعدية، ومكونات المجتمع الأخرى وعلى رأسها العلماء والصوفية. كما أن حضورهم الطويل سواء في الثغور، أو في تعاملهم التجاري مع المغاربة والعلاقات المباشرة التي نسجوها مع

السكان والحكام، زيادة على تأثير البحارة والصناع والجنود المأسورين والتجار المتعاملين مع المغاربة سواء داخل الإطار الرسمي أو خارجه، كل هذا خلف آثارا عميقة في كل المجالات: الاقتصاد والتجارة والفلاحة واللغة والعادات والمعمار والجيش والملاحة والإدارة .

وكما كانت محطة سبتة بداية ازدهار لدولة البرتغال فإن محطة وادي المخازن كانت نهاية سيئة لعهود من الإزدهار والعظمة دخلت بعدها البرتغال في فترة من الضعف والتراجع، ولكنها سمحت في نفس الآن للمغرب بأن ينتعش ويكون دولة ضاهت في وقت من الأوقات الدول الكبرى المعاصرة لها مثل انجلترا وإسبانيا، وذلك في العقد الثاني من عصر المنصور الذهبي.

المحطة الثالثة هي التي اتفقت فيها رغبة البلدين على التحول من عهد الحرب إلى عهد السلم، وحدث ذلك في عهد السلطان العلوي محمد بن عبد الله، والملك البرتغالي الدون جوزي الأول ووزيره المشهور ماركيز بومبال.

ومن المعلوم أن الاحتلال البرتغالي ظل محصورا في مدينة الجديدة إلى غاية سنة 1769 حين تمكن السلطان سيدي محمد بن عبد الله من تحرير المدينة واسترجاعها. وصادف ذلك وجود نوع من التحول في سياسة البلدين ، ونمو اتجاه غالب في العلاقات الدولية آنذاك، ينحو إلى التحول من الصدام والصراع إلى التفاهم والتعاون في المجال السلمي، وذلك عن طريق عقد اتفاقيات سلم تسمح بقيام نوع من التبادل التجاري والنشاط الاقتصادي بين المغرب والدول الأوربية. من جهة، كان السلطان سيدي محمد بن عبد الله في حاجة إلى فتح آفاق للتبادل التجاري مع الدول الأوربية وتنشيط الموانئ المغربية، وتنويع مداخيل الدولة المغربية، مع تيقنه بأن سفنه القرصانية لم تعد قادرة على مجاراة السفن الأوربية في سرعتها وقوتها وقدراتها العسكرية. وكانت الدول الأوربية تفضل من جهتها أن تستفيد من السلم لتأمين رحلات سفنها التي تجوب البحر الأبيض المتوسط والمحيط، وتستفيد أيضا من أي تطور يحصل في المغرب باتجاه الاستفادة من التحولات الاقتصادية التي عرفها القرن 18، والإمكانيات التي يتوفر المغرب عليها. ومن الإشارات التي بينت حجم القوة الأوربية قيام الأسطول الفرنسي سنة 1763 بمحاصرة السواحل المغربية، ومهاجمة السفن الهولاندية لتطوان والعرائش وسلا سنة 1774، وما خلفه الهجوم من خسائر ثقيلة. لذلك فإن المناخ المغلب للسلم أسفر عن توقيع عدد من اتفاقيات السلم والصداقة مع عدة دولأوربية هي الدنمارك سنة 1757 وانجلترا سنة 1760(تجديد اتفاقية 1728) والسويد سنة 1763 والبندقية سنة 1765 وفرنسا وإسبانيا سنة 1767 ثم البرتغال سنة 1774.

وكان وراء هذا التقارب مع البرتغال شخصيتان، السلطان سيدي محمد بن عبد الله بسياسته المتفتحة ورغبته في إصلاح أوضاع البلاد الاقتصادية، والملك جوزي الأول الذي كان يتوفر على وزير أول مشهور ببعد نظره، وبراغمائيته، وإصلاحاته وهو ماركيز بومبال، الذي

قدر أنه يستطيع أن يحصل على العديد من الفوائد عن طريق السلم أكثر من الحرب، وأن سفينة واحدة تقع في أيدي السفن القرصانية المغربية، تشكل خسارة كبيرة، أكثر بكثير مما يمكن أن تدفعه البرتغال مقابل السلم.

وقد ظهرت فوائد هذا الاتفاق فيما بعد، وخاصة في عهد السلطان مولاي سليمان ومن أتى بعده من الملوك العلويين، فقد كان هذا السلطان يتخوف كثيرا من التدخل الأوربي، وخاصة التدخل الفرنسي، خصوصا عندما وصل نابليون إلى مصر، وبصفة أكثر عندما دخلت جيوشه إلى إسبانيا والبرتغال. وحصل تقارب بين الدولتين يمكن أن نعتبره تحالفا ناتجا عن وحدة المصالح، وتفهم الطرفين لبعضهما البعض. فقامت دولة البرتغال بتدعيم موقف السلطان ضد مخالفيه وتزويده بالأسلحة وعلى رأسها البارود، فتمكن من بسط سيطرته على الجنوب الثائر عليه وعلى الباشوات المتمردين. بينما تلقت دولة البرتغال دعما يمكن اعتباره عسكريا، عن طريق تزويدها بالحبوب واللحوم والبغال، التي كانت في حاجة إليها في مقاومتها للاحتلال الفرنسي، وفوق ذلك كان الدعم المعنوي في المراسلات والسفارات، ومظاهر الفرحة التي عبر عنها المغاربة عند سماعهم بانسحاب الفرنسيين من البرتغال، ورفضهم التحالف معهم.

وبعد مولاي سليمان، وخاصة في الثلاثينيات، نلاحظ أن ثلاثة دول كبرى، شرعت في التنافس على احتلال مواقع بالمغرب، وكان لها تأثيرها خلال فترات متعددة على أحواله، وهي فرنسا وانجلترا وإسبانيا، وهي نفس الدول التي كان لها أيضا تأثير واضح على أحوال البرتغال، وإن كان ذلك بشكل مخالف. ففي البرتغال اتخذ التأثير شكل دعم للحكومات والدول، ووقوفا ضد الهيمنة الأجنبية، أما في المغرب، فقد كان الهدف السيطرة على البلاد واستعمارها.

كل هذه الملاحظات التي أسلفت، تبين مدى الترابط والتقاطع في تاريخ البلدين، وتفاعلهما مع نفس التحولات، وإن لم يكن بنفس النتيجة.

ومن مجموع هذه التحولات، لا شك أن اتفاقية السلم لسنة 1774، تعتبر من أهم المحطات التي طبعت العلاقات بين البلدين، وظل تأثيرها الإيجابي حاضرا إلى الآن، ومكنتهما من الانفتاح على بعضهما والتعاون والتفاهم. ولتسليط المزيد من الضوء على الظروف التي رافقت الإعداد لتوقيع الاتفاقية وإبرامها، أقدم لقراء هذا الكتاب ترجمة لمقال للأستاذ والسفير البرتغالي السيد فرناندو كاشترو برانداو، عن هذه الاتفاقية، وقد مكنني من نسخة منقحة للمقال هي المعتمدة في هذه الترجمة.

اتفاقية السلم بين البرتغال والمغرب
فرناندو دو كاشترو برانداو[1]

أدت وفاة المولى إسماعيل سنة 1727 إلى إفساح المجال لحقبة من الثورات الدامية والمتواصلة[2]. وقد أدى انهيار السلطة التي ضعفت قبضتها، إلى تأجيج فوضى عامة انتشرت إلى حيث يحكم المتمردون من الفرق العسكرية المتنافسة.

وإلى غاية سنة 1750، ظل المغرب مسرحا لفوضى داخلية رهيبة أخذت من مولاي عبد الله، ابن وخليفة إسماعيل، جهدا كبيرا لوضع حد لها، عن طريق محاولات لا تعرف الكلل.

وقد لجأ مولاي عبد الله ، من أجل التوصل إلى السلم وإخضاع الثائرين، إلى دعم قبيلة معقل[3] ، واستفاد من مكانته كشريف، ومن النظام والأمن اللذين استطاع أن يبسطهما في كل الجنوب المغربي، ليمد نفوذه بدعم من هذا الأخير، الذي يعتبر مجالا معتدلا وشرعيا ومطيعا، في مواجهة انتشار الثورات في الشمال.

كانت العوائق الرئيسية متجذرة في التاريخ، إذ أن كل الجهود نحو تدعيم الوحدة السياسية تصطدم بمجموعتين: قبائل المنطقة الشرقية القريبة جدا من الجزائر، والتي تحتمي دائما بمجال خارج عن نفوذ شرفاء المغرب ، وقبائل الجنوب، التي كان لها اتجاه دائم ضد أية حركة مركزية، اعتمادا على إمكانيات الدفاع الطبيعية: الصحراء والسلاسل الجبلية غير المضيافة. وفي الساحل، كانت الساكنة الساحلية المدعومة بالأسلحة التي يزودها بها القراصنة، تقاوم بحماس الخضوع لأية حكومة نظامية . لكن الجنوب وقد أصبح مسالما مكن الدولة من تركيز جهودها على الجبهات الأخرى[4].

ليس من صميم هدفنا في هذه الدراسة تتبع سيناريو هذا الصراع في تحولاته وتجلياته المختلفة وتفصيلاته، ويهمنا بالدرجة الأولى استحضار الأحداث التي أدت إلى قيام الوحدة السياسية المطلوبة، وهي الأساس البنيوي لتأسيس أية دولة.

1- مدير المعهد الدبلوماسي البرتغالي سابقا وسفير .ونشر هذا المقال المترجم عقب المقال السابق، في نفس الكتاب الجماعي صص. 33-5.

2 - Julien(Charles André), Histoire de l'Afrique du Nord, Payot, Vol II, 1966, Paris, p. 240.

3 - Julien (Charles André) , Op . cit . P. 223.

4- Bocage (Carlos Roma Du)Marrocos, in revista militar, 1906, Lisbonne, p.4.

كانت لدى عبد الله رؤية واسعة، وأدرك بأن تعزيز سلطته رهين بتوحيد العرب والبربر، ولذلك شرع في العمل من اجل تأسيس جبهة موحدة حققت له ما سعى إليه من سلام وتقدم .

وعلى الرغم من الوتيرة البطيئة التي استلزمها الوصول إلى هذا الهدف، فقد تمكن من الوصول إليه، فخمدت الثورات، وهدأت التوترات، وأصبحت سلطة المخزن ظاهرة على المنافسات القبلية.

وكان لابنه سيدي محمد دور كبير في ذلك، فبفضل الهدوء السائد في الجنوب، والذي كان لمحمد دور كبير فيه، بعد تعيينه حاكما للمنطقة الجنوبية، فظهر كسيد قوي ومصلح انطلق بحماس شديد في إعادة إرساء التجارة، سواء في المحيط الأطلسي أو في المجال الصحراوي، فتمكن بذلك من إنعاش التقاليد العتيقة لتجارة منتجة للغنى ومدعمة للسلطة[5]. وجعل من مدينة مراكش مركزا أساسيا، ومنها طور حكومة حذرة، معترف بها من لدن السكان الخاضعين لسلطته، لدرجة أنهم رغبوا في مبايعته سلطانا بدلا من أبيه، وهو شرف رفضه بكل نبل[6].

وعندما تمكن سيدي محمد في الأخير من الاضطلاع بأعباء الحكم سنة 1757، لم يرث عرشا عاديا، ولكن مملكة حقيقية. وبعد ثلاثين سنة من الأزمة، خيم الهدوء ونعمت البلاد بالاستقرار، وبالنظام الذي شمل المناطق الشمالية والجنوبية. وبرهن العاهل الجديد بأنه في مستوى المسؤوليات التي وضعت على عاتقه، وأظهر، منذ البداية، استعداده للعودة إلى المبادئ السياسية السابقة لجده مولاي إسماعيل[7] .

أدت المرحلة الطويلة من الحرب الأهلية - مع ذلك - إلى خسائر في الأنفس والممتلكات، وكانت الحاجة ماسة إلى التغلب على الأضرار والخسائر القديمة، بواسطة حكومة قادرة على إيجاد الحلول. ومن أجل تحقيق هذا الهدف انطلق محمد.

تمكن السلطان بفضل تهدئة المناطق الساحلية من إنشاء موانئ جديدة، خصوصا موغادور والدار البيضاء، مستفيدا من إجراءات مناسبة لازدهار تجارة متنامية خارجية، أنعشت التبادل وجلبت مداخيل وافرة إلى صناديق الخزينة العامة المنهكة.

وفيما وراء المحيط الأطلسي، ظل السلطان وفيا لسياسة أثبتت فائدتها، تتسم بالترقب والحذر. وكان معجبا كثيرا بالمنصور، ومنه استلهم تبني استراتيجية مستنيرة مراهنة على

5- Brignon(Jean); Amine(Abdelaziz ; Boutaleb(Brahim), Histoire du Maroc, Hatier, 1967, Casablanca, p.259.
6- Julien (Charles André) , Op . cit . P. 241.
7- Hardy(George),Histoire des colonies Françaises- Le Maroc, 1931, Paris, p. 102.

الاتصالات الخارجية[8] والعناية أكثر بالمحيط الأطلسي، بدون إهمال المصالح المتوسطية. وكان هذا هو الإطار الذي تدور حوله كل سياسته[9].

في هذا السياق، أعطى أسبقية خاصة للميناء الذي أنشأه بنفسه: الدار البيضاء، ولقيت هذه المدينة عناية خاصة منه، وأنشأ بها ظروفا مستقطبة للتجار وأقام بها الصناع، وأمر ببناء مسجد ومدارس وحمامات بها، وأنشأ سورا قويا من أجل تأمين حمايتها. وزادت عنايته بالمدينة، مع نموها المتزايد. وعندما وقع الزلزال الرهيب سنة 1755، والذي كانت له تأثيرات أيضا في وليلي ومكناس ولشبونة، عمل على إعادة بناء المدينة الساحلية مقدما لها كافة التسهيلات والامتيازات.

وبعد مرور 10سنوات على هذه التراجيديا، أسس الصويرة(موكَادور)، وتمكنت بفضل موقعها المتميز، من الإستفادة من نمو كبير وسريع، أدخلها في منافسة مفتوحة مع أكادير وسلا. وأصبحت تستقطب طرق القوافل القادمة من السودان، التي كانت تأتي من مركز تومبوكتو إلى الميناء محملة بالتبر والفضة .

سعى سيدي محمد إلى خلق توافق بين أمرين يبدوان متناقضين، وهما تبني نظام أوربي للتجارة، والمحافظة على روح الإسلام بين رعاياه. وخلال السنوات الثلاثة والثلاثين التي قضاها في الحكم، طور مجهودا محمودا للاعتماد على حقيقتين في اتجاهين متعاكسين، يظهر أنه لا يمكن الشك في بلوغهما: إعادة فتح المملكة أمام التجارة الأطلنتية، وإخماد جذوة الكره للأجانب الموروثة عن الأسلاف.

وعمل على مراحل متتابعة على استعادة بطيئة لإرث استمر عدة قرون، بالاتصال بالبحر عن طريق إطلاق النشاطات التجارية.

وبعد تسليم مازاكان من قبل البرتغال، إثر حصار عسكري قوي، واستسلام مشرف، قام بإصلاح عدد من التحصينات بتلك المدينة، التي كانت قد هدمت سنة 1768 [10]، وتأجيل مشكل مليلية المتنازع حوله مع التاج الإسباني، بعد الحصار الذي لم يحالفه النجاح، وأثمرت هذه السياسة عن فتح دار تجارية من قادس سنة 1782 في ميناء الدار البيضاء[11] .

8- Brignon (Jean) Op.Cit.p.262.

9- Zeller (Gaston), Les temps Modernes, in Histoire des relations internationales, publié sur la direction de Pierre renouvin, Hachette, T III, 1955, Paris, P. 325.

10 - Chavrellière(Coissac de) , Histoire du Maroc, 1931,Paris, p.405.

11 - Brignon (Jean) Op.Cit.p263.

وفي نفس الفترة كانت السلطنة تتوفر على إمكانيات هامة في طنجة، مما حولها إلى مدينة آمنة ومناسبة للتجارة.

وفي إطار هذا التوجه الموسوم بالنمو التجاري ، تم رفع الموانع الصارمة التي كانت جاثمة منذ مدة طويلة على تصدير الحبوب واللحم ما بين 1771 و 1773، مما سجل ارتفاعا ملحوظا في أعداد التجار الأوربيين الواردين على المغرب.

في البداية كانت المدة المحددة لذلك قصيرة جدا، أملتها سبع سنوات من الجفاف الذي عم المنطقة، بعد الوباء، لكن الإزدهار الذي نتج عن هذا القرار، أدى إلى انتقال تلك المنتوجات لتصبح أساسية في التبادل والحصول على الموارد الإقتصادية .

وكان لابد لهذا الواقع، الذي يدخل في الاعتبار شروطا جديدة وضمانات، أن يؤطر وتوضع له أسس قانونية على شكل اتفاقات. ولعل الراهب جوزي دو سانطو أنطونيو مورا قد عاين ،أكثر من أي شخص آخر، هذا التجديد السياسي بحكم تعامله مع الواقع المغاربي، بالملاحظة المترتبة عن العديد من المهام التي قام بها من أجل افتكاك الأسرى. كتب هذا المتدين (الراهب) سنة 1824 حول سيدي محمد: هذا الأمير متعلم من الخبرة، تمكن بمجرد اعتلائه العرش من فرض احترام سلطته في كل البلاد، كما قام كذلك نظاما للمالية معتمدا في هذا الصدد على التجارة. ومن أجل هذا الهدف قرر إقامة السلم مع كل القوى الأوربية ، وهو ما شرع في تنفيذه[12].

وفعلا، كانت الوسائل الدبلوماسية التي أقامها عديدة، بدءا بالتصديق على اتفاقات السلم بين عمه مولاي أحمد وانجلترا سنة 1728، وبين أبيه وهولاندا سنة 1732، ووقع على العديد من الاتفاقيات مع دول أخرى مثل الدنمارك والسويد على التوالي سنة 1757 و1763، وسنتين فيما بعد، مع البندقية، واعتمد في كل هذه الاتفاقيات على شرط أساسي وهو أداء سنوي سواء بالمال أو البضائع .

هذا الفرض كان يشكل تخفيفا معتبرا على الخزينة، وكانت حاجيات السلطنة تسمح بأخذه، زيادة على أنه مفهوم، وكان مع ذلك يدخل ممارسة نادرة الاستعمال في العلاقات الدولية، دفعت بعض المؤلفين إلى اعتبارها مسا بالقانون ودليلا على جشع السلاطين. وتم توقيع اتفاقيات أخرى وفق شروط مشابهة مع فرنسا وإسبانيا في سنة 1767 وتليها البرتغال سنة 1774 وتوسكانا سنة 1782.

12- Historia e Memorias da Academia Real das Ciências de Lisboa-T.X,parteI, Lisboa, 1827, p. 115 et 116.

كانت هذه الاتفاقيات نتيجة طبيعية لحرية التجارة، لكنها لم تكن كذلك فقط، بل كانت شاهدا أيضا على نهاية عهد القرصنة، على الرغم من أنها بالنسبة للمغرب ظلت موجودة بنسبة صغيرة، لكن ليس بمستوى النشاط الذي عرفته على الخصوص بالنسبة للجزائريين والتونسيين وكان يمثل آفة حقيقية للملاحة المسيحية.

وكنتيجة لذلك، ظهر نوع من التحول في موقف القوى الأوربية تجاه القرصنة المغاربية بفضل التطور الجيد لنوع جديد من السفن التي أنشئت في القرن السابق، فكثفت ضغوطها. لم تفقد الفرقاطة أبدا مزايا السرعة والمناورة، وكانت تتوفر بأكبر الأحجام وأجود أنواع المدفعية، وبما أنها كانت أكثر سرعة من السفن العسكرية، أصبحت وسيلة فعالة لتنمية موارد الخزينة وأسر السفن[13].

ولذلك ارتفعت اليقظة والمحاربة لعمليات القرصنة، خلال النصف الثاني من القرن 18. في سنة 1763، حاصر أسطول فرنسي السواحل المغربية، مانعا رسو السفن وإنزال الأسلحة والذخائر. وابتداء من سنة 1774، جاء دور الهولنديين ليحدثوا أضرارا ثقيلة بسفن تطوان والعرائش وسلا التي كانت ما تزال تغامر في مجال القرصنة. ولم يسلم السلطان العثماني نفسه في أسطنبول حيث هدد بضغوط كبيرة في حالة ما لم يتم تعويضه عن مركب راكوزاني صودر منه[14]. كانت إذن بداية النهاية لعهد ومؤسسة ظلا لمدة سنوات عديدة ينعمان بالازدهار وبمنأى عن المشاكل[15].

بالإضافة إلى هذا المشكل، يظهر أن نهاية القرصنة كانت سببا أكثر منها نتيجة لانفتاح المغرب على التجارة الخارجية. فأمام ازدياد المصاعب أمام إمكانيات ممارسة غير شرعية، دفعت نباهة وبراغماتية سيدي محمد إلى البحث عن حل بديل قد يكون أقل مردودية، ولكنه يقينا أكثر أمنا ومضمونا.

نتج عن هذا التراجع التدريجي في القرصنة، تراجع منطقي كبير في عدد الأسرى المقبوض عليهم كرهائن. هذه الوضعية التي كان المغرب سباقا إليها، ستعطي نتائجها على الخصوص في باقي الولايات المغاربية. وفي الحقيقة، فقد سجل نقص متتال على امتداد النصف الأول من القرن التاسع عشر لمراكز تجميع الأسرى، ليقضى تماما على هذه السجون بحلول سنة 1830.

13 - Zeller (gaston), Op.Cit. p. 157.

14- Brignon (Jean) Op.Cit.p.175.

15 - Monlau(Jean), Les états Barbaresques, PUF, 1969,Paris, p. 91 suivantes.

ولم يكن هذا التحول الناتج في المغرب، نتيجة فقط للواقع الدولي الجديد. ولكن الأهداف الحكومية لسيدي محمد كانت هي التحول إلى فارس كبير لعهد جديد، إن لم يكن في مدى اعتدال وحماس مجدده، فهو بالتأكيد استمرار لموروث معتاد لسياسة منغلقة على نفسها.

وسعيا في الحفاظ على بعض المبادئ المتبادلة، وضمان تحرير التبادل التجاري، انخرطت على الفور عدة دول لديها استعداد للاستفادة من المزايا الموعودة، وعلى هذا الأساس، وحسب مصالح كل دولة، تكونت مجموعتان كقوى شريكة للمغرب. بالنسبة للمجموعة الأولى، فإن الأسبقية المطلقة هي لإقامة تجارة مربحة مع هذا المجال المفتوح أخيرا، وبالنسبة للمجموعة الثانية، التي كانت في حاجة ماسة إلى منتوجات تجارية، فكان يناسبها على الخصوص التوصل إلى اتفاق سلام يبعد عنها عائق القرصنة. في المجموعة الأولى نجد انجلترا وهولاندا وفرنسا وإسبانيا، وفي المجموعة الثانية نجد الدانمارك والبندقية والولايات المتحدة الأمريكية و النمسا والبرتغال[16] .

كانت كل هذه الدول الأخيرة تقريبا، تدفع سنويا أو كل سنتين، إتاوة إلى السلطان من أجل ضمان الهدنة المرتبطة أساسا بالحركات القرصنية، والتي لم تفلح الاتفاقات السابقة نفسها في إيقافها. وفي حالة البرتغال، كما سنرى، فإن الحكومة كانت معفاة من هذا الحمل الثقيل، الذي كان مقبولا على الأقل في الضرائب التجارية. وهو واقع قوي الدلالة، خصوصا عندما نعرف في الحقيقة أنها قلما حصلت على هبة مماثلة في علاقاتها المتأخرة مع الجزائر وتونس[17].

على الرغم من أن الاتفاقات الموقعة ، على ضوء التحالفات، تنص أساسا على توقيف الحملات البحرية المغربية المعادية، فهذا لم يمنع من تضمينها فصولا ذات طبيعة تجارية. ومثل الولايات المتحدة الأمريكية، والنمسا والسويد، سعت البرتغال أيضا في أول اتفاقية لهامع المغرب، إلى تضمين إحالات خاصة بالملاحة التجارية، وتعيين مهام ممثليها القنصليين، وهو إجراء احتياطي، تحسبا لما يمكن أن يطرأ في المستقبل من أهمية على التبادل في بعض المنتوجات. وهو ما وقع عند شراء الحبوب أو اللحوم المغربية، لسد النقص خلال الأزمات الفلاحية الدورية التي كانت تعاني منها المملكة خلال القرن التاسع عشر[18].

تستلزم دراسة الظرفية البرتغالية في هذه الفترة مقاربات مختلفة . وبشكل عام، كان هناك منحى نقدي للسياسة الخارجية للمملكة خلال عهد الدون جوزي[19]، لأن التخلي عن

---

16 - Brignon (Jean) Op.Cit.p. 276.

17- كانت الاتفاقات ، سواء مع إمارة الجزائر أوإمارة تونس ، تعقد تقريبا ودائما على أساس مبلغ مالي ، وفي كثير من الأحيان على شكل أداء سنوي / إتاوة.

18- أنظر على سبيل المثال ، عن واردات القمح المغربي لسنوات 1803 و 1804، المراسلات التي تشير إليها في الأرشيف التاريخي لما وراء البحار في : A.H.U – Caixa séc.XVIII e XIX.(3).

19 - Martinez(Pedro Soares),Historia diplomatica de <Portugal, verbo, 1986, Lisbonne, p.197.

سياسة التوازن والحياد التي كانت في العهد الجواوي [نسبة إلى جواو] أدت إلى قطيعة مع خط تقليدي. كما أن التوجه المحيطي غلب عليه الانغماس في القضايا القارية. وكانت نتائج حرب السبع سنوات خطيرة على البرتغال سواء داخل أوربا أو في البرازيل. وتعرضت البرتغال للغزو الإسباني والفرنسي، ولم تجن أية أرباح. وفي اتفاق فونطينيبلو (Fontainebleau) حيث تم بالكاد قبول البرتغال، تمكنت هذه الدولة بجهد جهيد من استعادة المساحات المفقودة خلال الحرب.

وفيما يتعلق بالحدود الجنوبية للبرازيل، تزايدت المشاكل. ومنذ 1767 التي استؤنفت فيها الحملات العسكرية، حاول فيها البرتغاليون، بخسائر كبيرة، استعادة الأراضي التي احتفظ بها القشتاليون بدون وجه حق[20].

وعلى امتداد 15 سنة، ظلت السياسة الخارجية رهينة هدف القضاء على الجزويت. وعندما انتهى النزاع الأوربي، أصبح هذا الهدف محل تركيز كثيف إلى أن تم التوصل إلى الحل النهائي.

وارتكزت السياسة البرتغالية على محورين رئيسيين في هذه الواجهة، أحدهما يتجلى في التحالف مع انجلترا، والثاني على استقرار المصالح المهيمنة بالبرازي[21].

وكانت مدريد تنهج سياسة الدبلوماسية المزدوجة، التي تتأرجح بين وعود السلم في أوربا والعداء المستمر على التراب الجنوبي للبرازيل. كما أن اللجوء إلى الوساطة "المؤقتة" المتاحة من قبل فرنسا لم يوفر ضمانات، بالنظر إلى الروابط الضيقة التي تربطها ب المملكة الإسبانية.

أما انجلترا فقد لعبت من جهتها دورا مهدئا مؤجلا و مجاملا، وأحيانا مؤيدا للتنازلات البرتغالية، من أجل إنقاذ طلب محتمل للتوصل بمساعدات عسكرية. خصوصا بعد أن أصبح التوتر المستمر بمستعمرتها الأمريكية يرسم سيناريو مقلقا، ويمكن أن يتحول إلى قتال لا محيد عنه من أجل الاستقلال.

كانت سنة 1773تحمل معها مؤشرات قاتمة على أوضاع البرتغال، كما أن مظاهر العداء الإسباني في النهر الكبير بالجنوب البرازيلي باتت مؤكدة، وهو ما وقع فيما بعد في شهر[22]. وقرر بومبال الإستعداد من أجل الحرب، بدون إدخال إمكانيات الدعم البريطاني في

20- Azevedo (Lucio d'), O Marquês de Pombal e a sua Epoca, 1922,Porto, p.272.

21- Macedo (Jorge Borges de), Historia diplomatica Portuguesa Constantes e linhas de Força, IDN, 1987, Lisbonne, p. 290.

22- AMNE,(in ANTT), documentos sobre as usurpaçoes feitas pelos generais espanhois na fronteira do rio grande, nos anos de 1773 e seguintes .E Sobre préparativos militares – papéis varios,- Espanha-caixa 1.

الاعتبار. واستعمل في ذلك كل ما لديه من إمكانيات عسكرية ووسائل نقل ملاحية، بحيث أصبحت كل الجهود مركزة على هذه الغاية. وفي ظل هذه الوضعية أصبح من الضروري جدا التخفيف من المشاكل التي تستنزف الموارد المالية التي تحتاجها البلاد، ومن بينها الحرب ضد القرصنة، ومن هنا، فإن أية وسيلة قادرة على احتواء هذه الممارسة أو التقليل منها، ستكون مطلوبة ومقبولة.

كانت بين البلدين في الماضي سوابق في مجال التصالح، ففي عهد الدون جواو الثالث، تم الاتفاق بين الوطاسيين والبرتغال على مشروع تحالف، بمبادرة من الوكيل البرتغالي باشتياو دو فارغاش [23] ، لكن العصر آنذاك كان مخالفا، فالوجود البرتغالي غير المرغوب فيه في المغرب، وغياب وحدة سياسية بالبلاد، أعاقتا قيام اتفاق أكثر متانة.

بتفاعل مع هذه العوامل السالفة، وفي إطار سياسة سيدي محمد المتفتحة على الخارج، تم اقتراح هدنة من هذا الأخير لمدة سنة سنة 1769، وتم قبولها فورا.

وتم تمديد الاتفاق بالتتالي، وجدد السلطان مبادرة تأسيس علاقات أفضل وأكثر ودية. وتم تبادل عدد من الرسائل المستعجلة بين العاهلين، آخرها من الجانب المغربي، مؤرخة ب 15 غشت 1772، وفيها يعلن استعداده الطيب لاستقبال السفارة البرتغالية التي اقترحت عليه[24] .

وبسبب عدم الوضوح بشأن ملاءمة الظرفية لإرسال السفارة، تم الاتفاق على أن يتم تعزيز المشروع على مهل. وعبر الطرفان معا عن نواياهما الحسنة، وكدليل على ذلك تحرير طاقم سفينتين قرصانيتين أسرتا بقرب ميناء لشبونة[25] . وبهذه المبادرات الطيبة، وبدون عراقيل قوية ، تم خلق الشروط لحوار نافع.

تم تخويل جوزي رولن فان ديك، سلطات واسعة يوم 22 شتنبر 1773 من قبل سكرتارية الدولة في الشؤون الخارجية والملاحة، وكلف برئاسة المفاوضات من أجل عقد اتفاق مع المغرب[26]، وكان هذا الرجل هولاندي الجنسية كاثوليكيا، وقد توصل بالتوجيهات الخاصة

بالعربية : أرشيف وزارة الشؤون الخارجية ، الأرشيف الوطني بطوري دو طومبو، وثائق عن الانتهاكات / الإعتداءات التي قام بها الجنرالات الإسبان في حدود الوادي الكبير (ريو كراندي)، في سنوات 1773 وما يليها، وعن الإستعدادات العسكرية . اوراق متنوعة، إسبانيا ، صندوق رقم 1.

- Brazao(Eduardo), Relance de Historia Diplomatica.Porto 1940.p. 174.
23- Ricard (Robert),Etude sur l'Histoire des Portugais au Maroc, Coimbra, 1955, p. 281 à 311.
24- Vide apêndice,documento n.°I-A.H.U-Caixa Norte de Africa- 1790-1800(2)-Negocios Consulares e Diplomaticos- Pasta Marrocos-1796-1798.
25 - Martins (F.A.Oliveira),Portugal e Marrocos no séc.XVIII, 1937, Lisboa , p.104, A.C.L.Ms 989A-Relaçaoda jornada que à cidade de Marrocos ... » por Frei Joao de Sousa , fol.36.
26- A.H.U.-Caixa Norte de Africa séc.XVIII e XIX (1).Original em pergaminho e com o respectivo selo.

بالمهمة بعد مضي أسبوع.[27] كان فان ديك هذا في خدمة البحرية البرتغالية وله تجربة واسعة بالملاحة بالبحر الأبيض المتوسط، وتم اختياره كشخص مناسب للحصول على سلام قوي ونهائي، لا بد منه للملاحة والتجارة.

ومن الفقرات الكثيرة لتلك التعليمات، يطالعنا لأول وهلة ذلك الاهتمام الذي أعطي للمظاهر البروتوكولية، فمن بين مجموع التوجيهات الأربع والستين، هناك خمسة وعشرون تتعلق في موضوعها بالخصوصيات البروتوكولية[28] . وهو اهتمام لا يأتي من فراغ، ولا يستهان به، ويترجم قبل كل شيء، الحرص الشديد على ضمان معاملة تفاوضية على قدم المساواة مع باقي الدول الأوربية، حيث سبق أن عقدت اتفاقات مماثلة.

إن الحرص على هذه الشروط، يصب في صالح سياسة تهتم بالمظاهر، وهي سياسة لا تضع في حسبانها ما قد تكلفه هذه المظاهر من تضحيات مالية كبيرة.

ونظرا للأهمية التي يحظى بها هذا العامل، فإن سكرتير السفارة بالمغرب ومترجمها، الراهب جواو دو سوزا، أعد، بعد سنوات من ذلك، "نموذجا" يعرف فيه بالقواعد البروتوكولية المطلوبة من كلا البلاطين[29] .

تستحق النقط المتعلقة بحرية الملاحة والتجارة أيضا اهتماما خاصا، حيث تم الاتفاق في عبارات عامة، على شروط مشابهة لتلك التي سبق الاتفاق عليها بين السلطان وبعض الممالك الأوربية[30]. على الرغم من أنها تضمنت في طياتها بندين على حدة يشيران إلى الأسرى من الجانبين. ونظرا للحساسية الخاصة لهذا النوع من الشروط، فإنها تستدعي التعامل بمنتهى الحذر، بسبب ما هو معروف من أهمية أموال الافتداء التي كانت تؤدى إلى السلطان بانتظام[31].

كانت القرصنة الشمال إفريقية تحدث أضرارا بالغة بالملاحة المسيحية، سواء بالبحر المتوسط أو المحيط الأطلس، وترتب عن هذا الهجوم المنظم، الذي كان يمتد ليشمل سكان

27- A.C.L.Ms.151V. « Formulario de Expediçao etc ».

28-Vide apêndice, documento n.II, paràgrafos n.°s 2 , 3, 8, 26, 27, 28, 29, 30, 31, 33, 34, 35, 36, 37 , 38, 39, 40, 41, 42, 43, 44 ,45,46,47.

29 - A.C.L.Ms134V. »Formulario de Expediçao de uma Embaixada desta Corte para a de Marrocos , e da recepçao da de Marrocos nesta Corte “. – Citado por Figanier (Joaquim), Frei Joao de Souza Mestre e Intérprete da Lingua Arabica, 1949, Coimbra , p. 13.

30- Vide apêndice-documento n.°II-paràgrafo 48.

31- توجد في الاتفاقية النهائية في : n.s XXII e XXII-Vide apêndice – documento n.III

السواحل بالقارة والجزر، آلاف الأسرى. وكان تحريرهم يكلف مبالغ كبيرة، تأتي من الخزينة ومن المؤسسات الخيرية العامة، وكانت بعض الهيئات الدينية هي من يتولى عمليات الافتكاك[32].

كان هذا العبء الضخم يثقل على مالية المملكة، التي كان يكلفها الاستجابة للواجب الإنساني نفقات كبيرة. ويجب التذكير بأن القرصنة الجزائرية والتونسية ما زالت تضايق في هذه الفترة، وكانت تحصل سنويا على مبالغ كبيرة من أجل افتكاك العدد الكبير من الأسرى الذين يتم أسرهم سنويا[33].

أمام ما سبق، نفهم جيدا التركيز والحرص على الإكثار من الشروط المرتبطة بهذا الموضوع، زيادة على تلك المقترحة على حدة. وهكذا وخارج سياق الاتفاق المطلوب، لم يهملوا تكملة الشرط التاسع[34]، الذي كان بشأن ضمان حياد المغرب في الصراع البرتغالي مع تلك الإمارات "المغاربية"، التي كانت في هذه الفترة هي أهم ما يخشى في القرصنة.

كان على فان ديك، بهذه التوجيهات، أن يحاول الحصول على أكبر عدد من الشروط المسطرة مسبقا. وكان عليه أن يحمل بمنتهى اللباقة رسالة شخصية من الدون جوزي موجهة إلى السلطان محمد في عبارات ودية، تهدف إلى التأثير على متلقيها.

استعد السفير للإبحار في الفرقاطة الجاهزة لنقله مع كل الوفد مزودا بالتوجيهات السالفة، ومرفوقا بعدد كبير من الرجال المكونين للوفد: 117 شخصا. ولعل كثرة المشاركين في الوفد تعبر عن رغبة في إضفاء العظمة على المهمة الدبلوماسية.

كانت السفارة تضم عناصر أخرى، زيادة على السفير، من مكانة هامة، مثل القنصل العام برناردو سيمويش بيسوا والكاتب الثاني مانويل دا سيلفا والقبطان جواو ماركش دو كارفاليو والجراح أنطونيو جوزي كويليو والكاتب المترجم الأب جواو دو سوزا.

وألحق بالوفد أربعون جنديا من المشاة يقودهم قبطان وملازم أول لحماية فان ديك الشخصية، وأزيد من ستة موسيقيين من المختصين في آلات النفخ (trompetistes) التابعين لخيالة صاحب الجلالة المخلص. وفي مرسى موغادور، تم تجميع أعضاء آخرين من مستوى

---

32 - A.H.U.-Caixa Norte de Africa-1760-1789-Negocios Consulares e Diplomaticos. Pasta 1760-1764-"Ordens antigas sobre o resgate de cativos".

33 - Brandao (Fernando de Castro), Portugal e as Regências de Argel,Tunes e Tripoli – Subsidios para a historia Diplomatica Portuguesa , S.E.E.-Centro de Estudos, 1985, porto.

34 - Vide apêndice – documento n°.II.(VI).

عال، زيادة على جورج كلاصو وابنه بيدرو كلاصو، الذين قدموا قبل ذلك التاريخ لشغل الوظائف القنصلية بطنجة[35].

بعد الانتهاء من الترتيبات الإعدادية، أبحرت السفارة على متن الفرقاطة (Senhora da Nazaré) في يوم 29 شتنبر من سنة 1773[36]. وقد أعطانا قائد السفارة تقريرا وافيا عن نجاح السفارة. وكتب الراهب جواو دو سوزا أيضا تقريرا مشابها على شكل يوميات مفصلة، لا زالت لحد الآن مخطوط[37] . وبمقارنة التقريرين معا، لا نكاد نسجل اختلافات ما عدا أن كل شيء يدفع إلى الاعتقاد بأنهما حررا تقريريهما مباشرة بعد انتهاء المهم ، بسبب كونهما غير مؤرخين، ولكن على العكس، فإن التقرير المعد من المترجم لم يكتب إلا خمس سنوات فيما بعد، أي في سنة 1778، حسب توضيح مؤلفه نفسه[38].

من خلال هذين الشهادتين الثمينتين نعرف أنهم أبحروا في رياح مواتية أوصلتهم إلى موغادور خمسة أيام بعد الانطلاق من لشبونة. ومع ذلك، فإن تحولا مفاجئا في الأحوال الجوية منع رسو السفينة، وأرغم الفرقاطة على الرسو بعيدا في عرض البحر، ولم تتمكن من الرسو على رصيف المرسى إلا أسبوعا فيما بعد[39] .

وهكذا تم إنزال الجميع وكل ما يتعلق بالسفارة، ولم يبق فقط إلا السفير. لكن، ظهر في التو مشكل صغير، له مغزى لا يخلو من أهمية. عندما أعلم فان ديك بأن مدفعية الحصن يجب عليها أن تحييه ب50 طلقة مدفعية، حسب توجيهات السلطان، رفض وضع قدمه على الأرض إلا بعد أن يتم ذلك. لأن في التغاضي عن ذلك مساس بمركز وصورة الدولة، التي يرغم البروتوكول على احترامها.

عندما أعلم الباشا بالواقعة، أمر في الحال بإطلاق التحية ليس فقط بخمسين طلقة ولكن بثلاثمائة طلقة. وأدت المبالغة في تصليح الخطإ، مع الإعدادات المتأخرة التي تطلبتها، لى بقاء ممثل صاحب الجلالة الوفي ساعتين في البحر، في انتظار انتهاء كل المسلسل[40] .

---

35 - Vide apêndice-documento n.° III.

36 - A.C.L.Ms.989A2-Relaçao da viagem por Frei Joao de Sousa », fols.39v.e40.

37 - A.C.L.Ms.989A2-Relaçao da viagem por Frei Joao de Sousa », fol 1.

38 - A.H.U.-Caixa Norte de Africa -1773-1832. »Noticia dos Sucessos da Embaixada que foi deste Reino ao Dominios de El-Rei de Marrocos no ano de 1773. Escrita pelo Padre Joao Baptista Marques de Carvalh Bacharel, formado nos sagrados Cânones , Capelao da mesma Embaixada ».

39- Figanier(Joaquim)Op.Cit.p.26 à 29.

4- هناك خطأ بسبب قلة الضبط وشيء من المبالغة، والواقع، أن الذي جرى، حسب معلومات السفير نفسه، هو التال : عندما زار طان الميناء السفينة البرتغالية، تم الاتفاق على أن يتم إطلاق 50 طلقة مدفعية تحية للسفينة، مع أن الطلقات المعتادة هي 25 قة. وبعد ذلك، عندما كان السفير فان ديك على السلم، وبدأ الحصن في إطلاق النار، توقفت الطلقات عند رقم 14 طلقة. لذلك أصر

اكتسى الاستقبال الذي تلا ذلك في البر صبغة تكاد تكون ملوكية، لم ينقص شيء لاكتمال رونق الاحتفال، الذي لم ينس الباشا أن يساهم فيه بصفته السلطة الأعلى المضيفة[41]. وتم إيواء الوفد في مكان قريب من الشاطئ، ولم يدخر المضيفون أي جهد لتلبية كل حاجياته حتى لا ينقصه أي شيء. وقَدم إليه عبري مكلف بالمصاريف المالية، تحت أوامر محددة بدقة، ملتمسا تمكينه من لائحة بكل ما يرونه ضروريا، وتمت تلبيته بسرعة على حساب المغاربة. وبدرت من السلطان إشارة تدل على عنايته الفائقة بالوفد، تجلت في إرساله لأحد طباخيه الخصوصيين، مكلفا بإعداد وجبات أكل للسفير، وأضيف إلى كل هذا، عدد كبير من مختلف الهدايا وأشكال العناية التي فاقت بالطبع كل تحفظ بشأن عظمة الضيافة.

أحيط الوفد ببالغ العناية، وخاصة شخص السفير، وأقامت السفارة هناك لمدة أسبوعين. وخلال ذلك الوقت، أصيب السفير بمرض غير محدد، وأخذت حالته الصحية تسوء بشكل مقلق. ولذلك، وبعد الإستئذان بالانصراف الذي تم عاديا وبدون احتفالات، توجه عبر الطريق المؤدية إلى مراكش، و نقل السفير فان ديك على محفة.

قطع الوفد الطريق إلى مراكش ببطئ وبدون حوادث، وفي صباح يوم 6 نونبر، وصل إلى جوار المدينة، وتكرر هنالك المشهد الاحتفالي الذي تم في موغادور. وكان سيدي محمد قد أمر بجعل ذلك اليوم يوم عطلة عن العمل، من أجل تخصيص استقبال شعبي عظيم. وسارع الآلاف من السكان المضيفين للوفد والمتشوفين لرؤيته إلى الترحيب به بالهتافات وأشكال الاحتفال الأخرى.

واستعد البرتغاليون من جهتهم، بحماس كبير، ليظهروا جديرين بالاستقبال. وبعد تنظيم الفرقة، والجوق الذي سيعزف، بدأوا الدخول من أبواب المدينة إلى إحدى حدائق السلطان حيث أقاموا فيها محلتهم.

قضوا اليوم الثاني في راحة جد مستحقة. وقدم بعض الرهبان الإسبانيين، الذين كانوا مستقرين هناك، لزيارة السفير، وعرضوا عليه خدماتهم.

السفير على أن لا ينزل من السفينة إلا إذا اكتمل العدد المتفق عليه. لذلك كان عليه الانتظار لما يزيد على الساعتين، من أجل إعداد المدفعية الضرورية لذلك .أنظر :

Oficio de Roleen Van Deck a Martinho de Melo e Castro ,

-A.H.U.-Caixa Norte de Africa, séc.XVIII e XIX (10),

1773 Mogador, 27 de Outubro.

41- من بين الشخصيات ذات المكانة العالية بالمدينة تكلف ممثل سلطان المغرب الباشا بن عمران بحراسة /خفر السفير. وحسب الفرايلي جوزي دو سانطو أنطونيو مورا، تلميذ وخلف الفرايلي جواو دو سوزا، كان ابن عمران هذا، دليل السفير البرتغالي. وهو شخص وجيه، ويعهد إليه السلطان بالنيابة عنه أثناء غيابه. قدم إلى موغادور مع مائة وعشرين جنديا في انتظار وصول السفير، ورافقه، وتكلف بكل مصاريف الرحلة كما ساهم في قبول القنصل العام برناردو سيمويش بيسوا في وظائف السفير، وإبرام السلم، بسبب مرض السفير ووفاته فيما بعد. أنظر :

Colecçao de Diarios de Viagens a Marrocos,Argel e Tanger »,fol.134.

B.N.L(Reservados)F.G.8.543-«

كما قدم، بأمر من السلطان أحد خدامه وهو مانويل دو بونتش، الذي كان أسيرا سابقا، و بلغ رغبة سيده الكبيرة في استقبال السفير في حفل عام[42].

إلا أن المشاكل الصحية لفان ديك تفاقمت للأسف، ومنعته من الاستجابة السريعة للدعوة. ولم يلق هذا العائق رضى السلطان، الذي أرسل في الحال مبعوثا جديدا. وفي هذه الحالة، كان هو الباشا بنعمران نفسه، مكلفا باقتراح تسمية مفاوض آخر ليكون رئيسا للمهمة. ويرجع سبب العجلة إلى ظروف سيدي محمد الذي لا يمكنه تأجيل رحلته إلى فضالة، حيث تنتظره هناك مسائل مستعجلة.

أمام هذه الظرفية، قرر السفير أن يعهد إلى القنصل العام سيمويش بيسوا، ويفوض له سلطاته، موضحا له المواضيع الرئيسية التي عليه أن يتفاوض بشأنها. وبعد أن تم ذلك، ذهب هذا الأخير ومعه الوفد لحضرة السلطان، في الساعة الرابعة بعد الظهر من يوم 9 نونبر. وسارت الفرقة بنظام على أنغام الفرقة الموسيقية إلى أن وصلت إلى الساحة التي سيتم فيها اللقاء.

وبعد ذلك بلحظات وصل السلطان في موكب فخم مرفوقا بحاشية ملكية كبيرة. وبعد أن تم تقديم أعضاء الوفد إليه، أظهر الرضى والترحيب. وعندما تسلم رسالة الدون جوزي، ومعها مشروع الاتفاقية، أشار حالا إلى الإمضاء، وأكد أنه يعرفه. بعد ذلك قدمت الهدايا التي لقيت استحسانا من السلطان الذي صرح بأنه: " ...بسبب حبه الكبير للملك الدون جوزي، سيلبي عن طيب خاطر كل ما يطلبه هذا الملك منه ..."[43]

قدم السلطان دليلا خاصا على التقدير الكبير الذي يكنه لدولة البرتغال، بتعيينه ابنه الأمير مولاي عبد السلام محاورا في المفاوضات. وهو شيء لم يسبق له نظير من قبل، لأن التفاوض بشأن كل الاتفاقيات السابقة كان يتم بواسطة وزير معين لهذا الغر[44]. وبهذا التصرف سعى السلطان إلى إظهار المعاملة المختلفة التي خصصها للتاج البرتغالي، وهو ما أثر عميقا وبالتأكيد في أعضاء الوفد.

تم إيصال الوفد إلى محل الإقامة، وظلوا هناك في انتظار حضور الأمير الذي تأخر في هذين اليومين عن الظهور، والغريب أن السبب يعود إلى انشغاله في ألعاب التبوريدة مع جنوده، تحت ذريعة الإحتفاء بملك البرتغال. ولذلك، لم يتم الشروع في المحادثات التي جرت بين مولاي عبد السلام والقنصل العام سيمويش بيسوا، الذي كان مرفوقا بالمترجم الراهب جواو دو سوزا إلا صبيحة اليوم التالي.

42 -Martins(F.A.Oliveira) op,cit.p.102

43 - A.H.U.-Caixa Norte de Africa- 1731-1832. »Noticia dos Sucessos etc ».

44 - A.C.LMs.989A-« Relaçao da Jornada... »fol.18 verso.

لم يناقش الأمير شيئا مما عرضه الراهب، ولا حتى إدخال تعديلات على مقترح الاتفاقية، مكتفيا بالكاد بإظهار اهتمام بجانبه الشكلي[45].

بعد انتهاء اللقاء، انسحب مولاي عبد السلام ليعلم والده. وعندئذ، ومن أجل القيام بدراسة أكثر دقة، عين سيدي محمد قاضي أسفي، الذي رغب في الحال في الاجتماع مع الراهب جواو دو سوزا لتوضيح بعض المفردات. وتم الاتفاق على جولة جديدة في اليوم التالي[46].

ومن جديد لم تكن هناك مشاكل كبرى، لأن الوسيط المغربي وافق على كل البنود، ولكن بدون أن ينسى أن يظهر أنه يعول بالطبع على مكافأة[47].

وخلال هذه المدة، لم تظهر على السفير أعراض تبشر بتحسن أحواله الصحية. لذلك طلب "القربان المقدس" وتلقاه. وأحس بدنو أجله، فقدم وصيته أمام القنصل العام والشهود الثقات[48]. وفي اليوم الثاني، قدم له "الدهن المقدس" الأخير، وكان لا يزال لديه بعض القوة للقيام ببعض التوصيات الأخيرة إلى خلفه. وفي الأخير، مات على الساعة التاسعة من يوم 18 نونبر[49].

لم تعطل وفاة فان ديك مسار المهمة، وبدون أي تأخير، تسلم برناردو سيمويش بيسوا رسميا مهامه، التي كان قد تولاها سابقا، ولم يقم بأي تبليغ رسمي للجانب المغربي. وتمكن بتصرفه هذا، من تفادي إمكانية أن تصبح هذه المناسبة فرصة لكي يطالب المغاربة بمطالب جديدة و بشروط تفاوضية أكثر كلفة[50].

في يوم 24 من ذلك الشهر، استؤنف الحوار. وانتقل قاضي أسفي إلى المعسكر البرتغالي وبحوزته توجيهات من ملكه. وأكد سيدي محمد وعده بتيسير كل شيء من أجل إبرام الاتفاق، موقعا على ورقة بيضاء، زيادة على ابنه كوسيط[51]. ولم يبق إلا تحرير المسودة

---

45 - A.C.LMs.989A-« Relaçao da Jornada... »fol.21.
46 - A.C.LMs.989A-« Relaçao da Jornada... »fol.21 verso.
47 - A.C.LMs.989A-« Relaçao da Jornada... »fol.22 verso
48 -. A.H.U.-Caixa Norte de Africa, séc.XVIII e XIX(1)- 1773 Novembro 19, of.de Bernardo Simoes Pessoa a Martinho de Mello e Castro . Do seu Testamento singelo ; alienta o consul – Géral a doaçao que fez " do seu Museu de Historia Natural para a universidade de Coimbra".
توجد وصية جوزي رولن فان ديك وكذلك زمام كل تركته في: A.H.U.-Caixa Norte de Africa, séc.XVIII e XIX(10)
49- قال الجراح إن سبب الوفاة هو قرح في الرئة . نفس المصدر أعلاه.
50 -A.H.U.-Caixa Norte de Africa, séc.XVIII e XIX(1)- 1773. Dezembro 28, of.de Bernardo Simoes Pessoa a Martinho de Mello e Castro.
51 -A.H.U.-Caixa 4-Norte de Africa- 1760-1789-Negocios Consulares e Diplomaticos "Minuta a apresentar a El-Rei". – A.C.L.-Ms.989 A-relaçao da jornada ..." fol.28.

البرتغالية في وثيقة نهائية وتحرير جواب السلطان على رسالة الدون جوزي. لكن كل هذا سيتم في أسفي، التي سينتقل إليها الجميع عما قريب"[52].

ولا شك أن تحول مكان المفاوضات راجع إلى مناورات قاضي أسفي، الذي سيستفيد من ابتعاد السلطان، ويسعى للحصول على منافع شخصية من المفاوضات. وهكذا، بدأ يشعر بدنو الوقت لجني ثمار المكافأة المطلوبة"[53].

كان سيمويش بيسوا واعيا بعدم وجود حل لهذا التعامل المتجذر والعام، فوافق بدون تردد. لكن المغربي لم يقنع بالمبلغ الذي توصل به، وأظهر علانية عدم رضاه. وخوفا من أن يتأثر الموضوع بالتأخير، وعده القنصل بأداء مبلغ جديد، وأن يؤديه عندما يتم إنهاء كل شيء.

وافق على الوعد. وتم انتظار أوامر السلطان إلى حين مقابلة الوداع. وفي نفس العشية تم الاستقبال الرسمي. وهو استقبال يبين مرة أخرى، كيف أن السلطان خص الوفد بمعاملة متميزة، وحسب البروتوكول المغربي، قلما خصت به وفود ممثلي الدول الأجنبية، وذلك ثلاثة أيام بعد مجيئه"[54].

قدم لنا الفرايلي جواو دو سوزا تقريرا عن الجو الودي الذي ميز هذا اللقاء الختامي، حيث ركز جيدا على الرغبة التي عبر عنها سيدي محمد في استقبال البعثة البرتغالية.

بقي الآن إنهاء المرحلة الأخيرة من المفاوضات. توجهت السفارة يوم 5 دجنبر إلى أسفي، التي وصلت إليها أربعة أيام من بعد، رفقة القاضي. وأقامت في منازل كانت في السابق لتاجر دنماركي، ومكثت بها لمدة تقارب الشهر، في انتظار وصول المركب الذي سيرجعها إلى المملكة. وفي هذا الانتظار الطويل، توفر وقت إضافي لتدقيق صياغة الاتفاقية. ويقال إن الجهود بلغت حدها الأقصى، لتوفير أكبر الإمكانيات لمواجهة مناورات القاضي. فقد كان هذا الأخير يقوم بمناورات، ويضع عراقيل متتالية ، لكنه كان يتخلى عنها بحسب ما يقدم له من باطاكات (نقود)"[55].

ظهر مشكل آخر عندما عاين القنصل العام أن الترجمة العربية التي قدمها القاضي حذفت الشرط الثالث[56]. إلا أن الاحتجاج بنسيان هذا الشرط، لم يفض إلى نتيجة، فحسب

---

52 -A.H.U.-Caixa 4-Norte de Africa- 1760-1789-Negocios Consulares e Diplomaticos "Minuta a apresentar a El-Rei".

53 - A.C.L.-Ms.989 A-relaçao da jornada ..." fol.28.

54 - A.C.L.-Ms.989 A-relaçao da jornada ..." fol.29 verso.

55 – A.H.U.-Caixa 4-Norte de Africa- 1760-1789-Negocios Consulares e Diplomaticos "Minuta a apresentar a El-Rei". et Figanier (Joaquim) , op.cit,p.36,note 1.

56 – vide apêndice –documento n. °III.

المفاوض المغربي، فإن شرطا كهذا لم يقدم إلى أية دولة أخرى. لذلك، وبما لهذا التبرير من وزن، وللظرفية المتعلقة بالاتفاقية التي كانت قد وقعت وختمت، اضطر سيمويش بيسوا إلى الإذعان[57].

ومع ذلك، من الغريب أن نلاحظ أن هذا الشرط يوجد كاملا في النص النهائي، في توافق تام مع التعليمات المتوصل بها. ولعل ذلك راجع إلى اتفاق محتمل جاء فيما بعد، وهو افتراض لا نجد له سندا وثائقيا.

وعلى العكس من ذلك كان المفاوض البرتغالي متشددا فيما يتعلق بالرسالة الموجهة إلى الدون جوزي بشأن مسألة حساسة من حيث الصياغة. فقد رفض وصف ملك البرتغاليين الذي خصص للملك، واعتبره مخلا بمكانته. وبعد مناقشات طويلة تم الاتفاق على القسم المتعلق بالصياغة المناسبة[58].

حان في الأخير وقت اختتام هذا المسلسل. ولم يبق سوى انتظار وصول الفرقاطة التي ستقود الوفد إلى لشبونة. وخلال هذا الوقت، نعم البرتغاليون دائما بمعاملة جيدة من قبل مضيفيهم.

بعث برناردو سيمويش بيسوا، الذي كان راضيا بالطبع عن النجاح الذي وصل إليه، رسالة إلى كاتب الدولة. وفيها نجد، حسب قوله، أن إرجاع مركبين قرصانيين مأسورين، وما لقيه ملاحوهما من حسن المعاملة، والاحترام الذي تحظى به الدولة البرتغالية التي كانت فيما مضى سيدة على عدة مدن بالمغرب، والمحبة التي يكنها السلطان لجلالة الملك، « هذه هي الأسباب، دون سواها، التي دفعت هذا الأمير إلى تمييز سفارتنا وإحاطتها بمختلف مظاهر العناية والتشريف، على الرغم من عدد أعضائها الكبير... »[59]

وبلا شك فإن هذه عوامل لا يستهان بها لكنها ساهمت على الخصوص كعناصر مكملة للظروف الملائمة للتفاهم المشترك.

في فجر يوم 5 فبراير، ظهرت في الأفق أشرعة السفينة Nossa Senhora da Nazaré. وبعد يومين، تم الركوب من أجل الهروب بسرعة من خطر العاصفة التي كانت متوقعة الحدوث. وتم السفر إلى غاية لشبونة بدون حوادث. وفي يوم 15 من ذلك الشهر رست السفينة بنهر التيجو.

57 - A.H.U.-Caixa Norte de Africa, séc.XVIII e XIX(2)- 1773. Dezembro 28, of.de Bernardo Simoes Pessoa a Martinho de Mello e Castro.

58 - B.N.L.(Reservados).F.G.3543. »Colecçao de Diarios... » fol.134.

59 - A.H.U.-Caixa Norte de Africa, séc.XVIII e XIX(1)- 1774. Fevereiro 6, of.de Bernardo Simoes Pessoa a Martinho de Mello e Castro.



بعد زيارة كاتب الدولة ميلو دو كاشترو لمتن السفينة، نزل القنصل، وأخذوه فورا إلى حضرة الماركيز دو بومبال.

هذا في خطوط عريضة سجل البعثة إلى المغرب ومفاوضات اتفاق السلم الموقع يوم 11 يناير 1774. وأعتقد أن الامتيازات التي استخلصت منه، تبرربشكل واضح، المصاريف التي أنفقت من أجله[60] .

وكأثر مباشر، توقفت حملات القراصنة المغاربة. ويقال نفس الأمر على المساعدات التي كان هؤلاء يقدمونها لنظرائهم من الجزائر وتونس وطرابلس. وزيادة على ذلك، أصبح بإمكان الأسطول البرتغالي الاعتماد على ثمانية أو تسعة موانئ للحماية، على قدر عظيم من الأهمية اللوجستيكية للحركة المقاومة للقرصنة على العموم. ويمكن أن نسجل أيضا أن بعض السفن التي كانت مخصصة لمحاربة هذه القرصنة أصبحت حرة لاستعمالها في مجالات أخرى. وفي ذات الوقت كان الطلب عليها لتعزيز المخطط العسكري الذي يرسم في جنوب البرازيل.

من جهة ثانية، وعلى صعيد السياسة الأوربية، ظل البرتغال منافسا للقوى الرئيسية فيما يخص الولوج إلى مجال كان إلى ذلك الحين بادي العداء. وكما هو منطقي، فإن آفاقا جديدة فتحت بسبب الاتفاق التجاري، ممثلة في دعم الملاحة التجارية الذي لا يقدر. سجلت نتائج دالة وواضحة في صادرات الحبوب واللحم المغربيين.

وبفتح المجال أمام الحوار المباشر، فإن الطرف المغربي لم يتأخر في إعطاء الاستمرارية لهذه العلاقة. بعد بضعة شهور على عودة البعثة وصل إلى ميناء لشبونة، يوم 7 شتنبر، مبعوث من السلطان. ومعه وفد كبير، من أجل زيارة البلاد، وتعزيز العلاقات المقامة بين البلدين[61].

مكث المغاربة لأزيد من شهرين محفوفين بالود، وحظوا بعناية وحسن استقبال. وفي الأيام الأخيرة، استقبل السفير في مقابلة الوداع من مارتينو دو ميلو إي كاشترو. وفيها سلمت

- زيادة على الهدايا المقدمة للسلطان وإلى ابنه ، والتي بلغت 11.134.743 ريالا بالنسبة للأول و1979455 ريالا بالنسبة للثاني ، وصفها جواكيم فيكانيي مصدر سابق ص 27 هامش 1 ، تضاف أيضا المصاريف التي قدمت كرواتب وعطاءات .أنظر : Vide apêndice-documento n.

61 - Figanier (Joaquim) , op.cit, p.41.

له المصادقة على اتفاق السلم المؤرخ ب 13 نونبر 1774، كما أنه كان أيضا حاملا لرسالة من الملك سيدي محمد[62]. وبعد أربعة أيام، غادر مبعوث المغرب بحرا إلى طنجة[63].

تبعت هذا اللقاء الأول، لقاءات أخرى، عبر عدة بعثات دبلوماسية، نسجل منها البعثات المغربية في سنوات 1777 و1780 والبرتغالية التي تمت في سنوات 1790 و1797 و1798.

وعلى الرغم من عدم توفر ما يفيد وجود لقاءات مماثلة على طول القرن 19، فإن هذا لا يعني إنهاء الإطار الودي الذي حدده اتفاق 1774.

استمر الحضور البرتغالي طويلا بالمغرب بفضل جهود ممثليه القنصليين، دليلا على انسجام وضع حدا للصراع الموروث عن الأجداد.

62- Castro(José Ferreira Borges),Colecçao de Tratados,Conençoes, Contratos e Actos Pùblicos celebrados entre a coroa de Portugal e as mais Potências , desde 1640 até ao presente, T.III.note 1, imprensa National, 1865, Lisboa, p.226 e 227..

63 - B.N.L.(Reservados)F.G.8.543, »Colecçao de diarios de viagens a Marrocos, Argel e Tanger " fols 150 e 151 e A.H.U.- Caixa Norte de Africa (D.°) sécs.XVIII e XIX (6).

تاريخ مازاغان خلال الحقبة الفيليبية[1]
أنطونيو دياش فارينيا[2]

تمهيد :

ألف أنطونيو دياش فارينيا الكتاب الذي نقتطف منه هذه المقدمة سنة 1970، واختار له عنوان : تاريخ مازاغان خلال الحقبة الفيليبية. وهو كتاب في 336 صفحة. واستهله بتقديم للمؤرخ المعروف روبرت ريكارد.

يتكون الكتاب ـ الذي كان في الأصل بحثا للإجازة في التاريخ قدمه المؤلف سنة 1963 بكلية الآداب بلشبونة ـ من مقدمة وستة فصول موزعة على بابين بالتساوي، وملحق وثائقي، ثم فهرس بيبليوغرافي.

تناول المؤلف في المقدمة التي عملنا على تعريبها تاريخ الجديدة منذ سقوطها في يد البرتغال إلى أن انتقلت إلى حكم الإسبان.

وفي الباب الأول المعنون ب: المدينة، السكان، المؤسسات، تطرق المؤلف في ثلاثة فصول إلى المدينة ومرافقها العمرانية المتعددة، وشكل بنائها وموقعها، ثم تطرق إلى ساكنتها، والعناصر المكونة لها من برتغاليين ومغاربة وغيرهم، ثم تحدث عن المؤسسات ومنها المؤسسات العسكرية والمدنية والدينية.

أما الباب الثاني فقد خصصه للقباطنة الذين حكموا المدينة، من خلال ثلاثة فصول كان أولها عن امتداد سلطة فيليب إلى مازاغان، وحكم عائلة كارفاليوش، وتطرق الثاني إلى أوج هيمنة الملك فيليبي على المدينة وحكم القباطنة الكتاب وتطرق الثالث إلى الحقبة الأخيرة من عهد فيليب ونفوذه بالمدينة.

---

1 - نشر هذا المقال المترجم في الكتاب الجماعي المتضمن لأعمال مهداة إلى الأستاذ عبد المجيد القدوري، بعنوان: الذاكرة والهوية، تنسيق محمد جادور وشعيب حليفي ورشيد الحضري. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ابن مسيك، الدار البيضاء، سنة 2013، صص. 299-318. وقد احتفظت هنا بعنواني الأصلي الذي تصرف فيه المنسقون.

2ـ هذا المقال هو ترجمة لمقدمة الكتاب الذي ألفه المؤرخ البرتغالي أنطونيو دياش فارينيا عن مدينة الجديدة خلال الحكم الإسباني في عهد الملك فيليب الثاني (المعرب) :

Antonio Dias Farinha , Historia de Mazagao durante o periodo filipino , C E H U , Lisboa , 1970 .

بعد ذلك أورد المؤلف ملحقا وثائقيا يناهز أو يفوق الدراسة نفسها ويشتمل على 81 وثيقة في 160 صفحة.

لقد وقع اختيارنا على مقدمة هذا الكتاب لتعريبها، بسبب ما تتوفر عليه من المعلومات المتعلقة بالمدينة وبأحوالها ومن تعاقب عليها من الحكام البرتغال، في نوع من الإيجاز المحمود، وهي بذلك تسلط الضوء على جانب من تاريخ المدينة الذي لم يتطرق إليه المؤرخون المغاربة، ومن وجهة نظر برتغالية تركز على تاريخ المدينة البرتغالي. ولا شك أن التعرف على هذا التاريخ سيمكن من تكملة بعض النقص الذي يعتور المصادر والدراسات المغربية التي تطرقت إلى تاريخ المدينة.

مقدمة

من المهم تقديم صورة شاملة للأحداث التي عرفتها مازاغان من بداية الوجود البرتغالي بالمدينة إلى الفترة الدرامية المتمثلة في أزمة الحكم التي سبقت العهد الفيليبي. وفي الحقيقة لا يمكن فهم تاريخ المدينة خلال هذه الحقبة بدون أن نضع في الحساب الأسس العميقة التي أقامتها البرتغال في هذا الحصن من منطقة المغرب الكبير الإفريقي.

من مجموع الأماكن المحتلة من طرف البرتغاليين في شمال إفريقيا، يلعب حصن مازاغان دورا خاصا يعود إلى الفترة الطويلة التي سيطروا فيها عليه، وإلى الأعمال البطولية التي كان مسرحا لها، وأيضا لأنهم أقاموا هناك مدينة بتصميم نموذجي ما زال إلى اليوم قائما متماسكا، وولدوا لدى البرتغاليين شعورا بالزهو المشروع، ودافعا إلى الاهتمام بالخارج.

كان الحصن يظهر كقطعة من الأرض اللوزيتانية[3] مهابة من لدن قادة وسكان البلاد، حيث كان ينتصب كموقع منيع ينطلق منه الفرسان في خرجات جريئة، وكذلك المبعوثون الدبلوماسيون الذين طالما أثروا في حكومة البلاد وفي مصير السكان. إنه مدين بنشاطه - في حدود معينة - إلى الشهرة التي كان البرتغاليون يتمتعون بها في المغرب كبنائين مهرة. أما اسمه فيثير فينا ذكرى أحداث البطولة التي قام بها عدد قليل من الرجال الشجعان أمام أمواج من المغاربة المتحمسين والمتشبعين بديانة واعتقادات مختلفة.

في الربع الأخير من القرن 15، كان النشاط البرتغالي في مجال التوسع بالمغرب واضحا، وكان مدفوعا بالوازع الديني، ومدعما من لدن البابا. وقد ساهم في تيسير عملية التوسع، الضعف السياسي والعسكري للشيوخ الكثيرين الذين كانوا يتقاسمون السلطة فيما بينهم في تلك المنطقة. إن توالي المبادرات الخاصة، والاعتقاد بوجود تجارة ذات مردودية مرتفعة، زاد من تعزيز المشاريع الموجهة من طرف الملك، والتي كانت تهدف إلى إقامة حزام من الحصون

3ـ أي البرتغالية (المعرب).

القوية على طول سواحل شمال إفريقيا، قادرة على الهيمنة عسكريا على كل البلاد، وتأمين حرية الملاحة في ذلك الجزء من المحيط الأطلنتي .

ومن بين المناطق التي كان البرتغاليون يسعون إلى الاستقرار فيها، كانت دكالة تبدو غنية على الخصوص بالحبوب. وكانت الحبوب الإنتاج المرغوب أكثر من بين كل المنتجات التي توفرها إفريقيا الشمالية للتصدير، سواء بسبب نقصه الشديد بالبرتغال، أو سهولة المواصلات وقربها، أو الثمن المنخفض الذي يباع به هناك.

كان الرؤساء المحليون [الشيوخ] متحمسين جدا لهذه التجارة التي تمنحهم الثراء، وتمكنهم من الحصول مباشرة على المنتجات المطلوبة أكثر من أوربا. إن كره الأجانب الناتج عن الاختلاف في الدين، لم يكن واضحا، ولن يظهر إلا فيما بعد، عندما ستتعارض المطامح الترابية مع المصالح التجارية المتعددة، وعندما سيتمكن رد الفعل الديني بزعامة الصلحاء من توحيد الأتباع تحت شريعة الرسول.

كانت مدينة أزمور واحدة من هذه المراكز التجارية المزدهرة، ومنطقة مأهولة بساكنة مهمة، وتتمتع باستقلال لم يكن بإمكان ملك فاس الضعيف أن يجادل فيه. وقد اختار سكان المدينة إعلان التبعية للملك دون يوحنا الثاني. وفي إطار هذه التبعية تزايدت وتيرة الاتصالات والمبادلات التجارية [4]، ومع ذلك فالمدينة لم تكن تتوفر على مدخل بحري سهل، لأنها كانت تقع بجوار مصب نهر أم الربيع (المسمى موربيا في النصوص البرتغالية "morbeia") الذي كان منسوب مياهه غير منتظم، كما كان مليئا بالصخور. ولذلك استعمل البرتغاليون خليج وموقع مازاغان الذي كان يسمح لهم بالرسو الآمن الذي يحتاجون إليه، وكان موقع مازاغان وخليجها جنوب أزمور على بعد يسير منها. وقد أشار دوارت باشكو بيريرا(Duarte Pacheco Pereira)في كتابه : (Esmeraldo de situ orbis) إلى الموقع بما يلي: " ... هنا كانت في القديم مدينة مازاغان التي توجد الآن مهدمة كلها ... وهذا الخليج الصغير مرفأ جيد وصالح للسفن الكبيرة ... وفي خليج مازاغان هذا تقوم سفن عديدة تابعة لتلك الممالك وكذلك لمملكة قشتالة بوسق القمح ..." [5].

4ـ أنظر:(David Lopes, Os Portugueses em Marrocos, in Historia de Portugal,dir.par Damiao Peres, III, p. 508,note 2)، وتبعت ذلك فترة الاحتلال سنة 1486. رسالة الدون يوحنا الثاني بتاريخ 3 يوليوز 1486 وتمت المصادقة عليها يوم 16 غشت 1486، أنظر: (Les Sources inèdites de l'Histoire du Maroc.Portugal.I.pp.4_8et docII,pp.9_24) وانظر أيضا محافظ طوري دو طومبو ، مركز الدراسات التاريخية لما وراء البحار ، الجزء 1، ص 26 ـ 28 .

5ـ تم نشر هذا الكتاب بإشراف دامياو بيريش ، الأكاديمية البرتغالية للتاريخ ، لشبونة ، 1954 ، القسم الأول ، الفصل 17 ، ص 63 ـ 64 . وتنظر أيضا الطبعة التي انتقدها وعلق عليها جواكين براداش دو كارفاليو ، باريس ، 1961 ، المجلد 4 ، ص ,71، وهي عبارة عن أطروحة دكتوراة قدمت في السوربون ، وتوجد مرقونة بمعهد الدراسات البرتغالية بباريس .

إن جودة الميناء، وموقع المكان في القلب الاقتصادي للمغرب، سيكونان العنصرين المحددين للاهتمام المتزايد الذي سيوليه له الحكام البرتغال.

سعى الدون مانويل، مثل سلفه ن إلى إقامة حصون في أماكن استراتيجية من الإمبراطورية البرتغالية. وبالنسبة لمازاغان فإن اقتراحاته تمت الاستجابة لها من طرف القادة المحليين أنفسهم، الذين فضلوا الأمن الذي توفره الجيوش والحملات البرتغالية على الفوضى المخيمة بالمغرب. ونحن نعرف أن أول اقتراح تم في هذا الشأن كان في سنة 1502 من طرف الشيخ سالم بن عمر، وتضمنته رسالة كتبها بيرو مندش (Pero Mendes) من مازاغان [6].

في السنوات الموالية أصبحت اتصالات التجار والبحارة البرتغاليين بالموقع متعددة، مما أوحى للملك ومستشاريه بضرورة إنشاء فيطورية [7] أو حصن لتأمين المزايا الناتجة عن استغلال مينائه. وقد خلف لنا دافيد لوبش في دراسته الهامة عن البرتغاليين في المغرب الإطار الذي تمت فيه هذه العلاقات [8]. وأضاف بيير دو سينيفال عناصر جديدة في عمله بعنوان:(Les origines de Mazagan)، الذي نشر في القسم البرتغالي من المصادر عير المنشورة لتاريخ المغرب.

كان إخلاص سكان أزمور للتاج البرتغالي بعد سنة 1502 جد مذبذب. فقد رغبوا في الخضوع والتبعية سنة 1504، وأرسلوا وفدا يمثلهم إلى البرتغال. وأرسل الدون مانويل سانشو طافارش (Sancho Tavares) إلى مازاغان بمهمة إقامة التحالف، وأمر الملك البرتغالي أن تتم المفاوضات بمازاغان التي كان يعول عليها أكثر، واختارها لتكون همزة وصل بين العالمين المسيحي والإسلامي [9]. لكن السلم لم يستمر، بسبب مطامح الزعامة عند مولاي زيان، ولذلك خطط الدون مانويل لغزو المدينة، وعهد إلى الدون جاييم دوق براغانسا بقيادة الحملة، وتكللت المهمة بالنجاح، وسقطت مدينة أزمور تحت سلطة البرتغاليين سنة 1513 [10].

6ـ في 6 دجنبر 1502 . أنظر :
Antonio Balao , Documentos do corpo chronologico relativos a Marrocos,Coimbra , 1925 . 11_12 ; Les Sources inédites de l'histoire du Maroc, Portugal,I, pp. 79_82 .

7ـ وكالة تجارية (المعرب).

8ـ أنظر: .Historia de Portugal, dir. Damiao Peres , III . pp. 529_533

9ـ أنظر التوجيهات الملكية إلى سانشو طافاريش بتاريخ 22 أبريل سنة 1504 ، في الأرشيف التاريخي البرتغالي ، المجلد 8 ، لشبونة ، 1909 ، الوثيقة رقم 16 ، ص .. 301 ـ 302 .

10ـ أنظر في الموضوع الدراسات التالية :
_ Durval Pires de Lima , Azamor _Os precedentes da conquista e a expediçao do duque Don Jaime, Lisboa , 1930 . _ Damiao Peres , Conquista de Azamor pelo duque de Bragança D . Jaime em 1513,Lisboa,1951 . _ Maria Augusta de Abreu Leima Cruz , Os portugueses em Azamor (1513 _1541) .

كان دوق براغانسا يعرف جيدا صعوبات الولوج من جهة رصيف أزمور، وهي الصعوبات التي خبرتها السفن البرتغالية خلال فترة السلم، ولذلك قرر اختيار مازاغان كميناء للأسطول العسكري. وعندما شيدت التحصينات بأزمور، كتب الدون جاييم إلى الدون مانويل رسالة يرى فيها ضرورة تشييد قلعة حصينة في ذلك المكان بهدف تأمين المواصلات البحرية المتزايدة بين المدينة والممتلكات البرتغالية [11].

إن الموقع الجغرافي لمازاغان يسمح لها بالهيمنة على كل الساحل الأطلنتيكي للمغرب. نجدها شمال رأس كانتين، وعلى منتصف المسافة بين رأس اسبارطيل ورأس غير وهما النقطتان الأبعد في البلاد، وبارتباط مع مجموع الأماكن المحتلة من لدن البرتغال، تحتل مازاغان موقعا بارزا، لأنها تقع في منطقة تسمح بجني أكبر الأرباح التجارية. وأزمور تقع على مسافة 10 كلمترات في الشمال، وكازا دو كافاليرو [دار الفارس] (Casa de cavaleiro) وتيط توجدان على نفس المسافة تقريبا، لكن في الجنوب، وتدعمان الجهود المبذولة من أجل تصدير الحبوب. وفي جنوب راس كانتين توجد أسفي وأكوز وكاستيلو ريال (موغادور). وفي شمال نهر أم الربيع توجد أماكن أخرى مثل أنفا والمعمورة، وكانت هي أيضا مستهدفة للغزو ضمن مخططات التوسع البرتغالي .

اقتنع الملك البرتغالي بالأسباب التي عرضها عليه الدون جاييم، وأمر بإقامة حصن. وهو ما تم في صيف سنة 1541. ونحن لا نملك العناصر الكافية التي تسمح لنا بتقدير أهمية هذه التحصينات، ولكننا نعرف أن المهندسين اللذين عملا فيها هما دييغو وفرانسيشكو دو أرودا ، وأنهما عملا فيهما خلال شهور يونيو ويوليوز وغشت. لكن سرعة البناء واسم المهندسين تدفعنا إلى الاستنتاج بأن الأمر يتعلق بتحصينات بسيطة من الطراز الوسيطي البرتغالي [12].

أول قبطان عين في الحصن الجديد هو مارتين أفونصو دو ميلو [13]، بواسطة رسالة رسمية من الدون مانويل بتاريخ 10 غشت 1541 [14]. وكان حكمه متكيفا مع وضعية الحصن

11- أرسلت الرسالة من أزمور بتاريخ 30 شتنبر 1533 ، أنظر :
Antonio Balao ,ob.cit .pp. 57_59 ; Les Sources inédites de l'histoire du Maroc, Portugal,I, pp. 438_442

12- أنظر في هذا ا الشأن :
_ Robert Ricard e Chantal de la Veronne , Les architectes des places portugaises du Maroc sous Emanuel 1° et Jean III ._ Sousa Viterlo , Diccionario historico e documental dos architectos ,engenheiros e constructores › s.v.Diego e Francisco de Arruda .

تم البناء تحت إشراف فاشكو دا بينا (Vasco da Pina) أنظر في هذا الصدد :
_ Antonio Dias Farrinha , Feitos de Vasco da Pina em Marrocos e a sua acçao na Abadia de Alcobaça , in « Arquivos do centro cultural português, vol.I , Fundaçao Gulbenkien, Paris , 1969 .

13 _ Martin Afonso de Melo

14 - David Lopes, Os Portugueses em Marrocos, III, p. 531; Les Sources inédites de l'histoire du Maroc, Portugal,I, pp. 599, note 2.

الذي كان تابعا لمدينة أزمور. وقد مرت السنوات الأولى من الوجود البرتغالي في مازاغان هادئة نسبيا، وفي الجنوب أقيمت مدينة أسفي القوية، التي كانت تتحكم في أراضي واسعة لمغاربة السلم [15]. وكانت الحقبة التي مرت بها فترة أمجاد كبيرة بالنسبة للجيوش البرتغالية. ففي سنة 1515، قام قباطنة أسفي وأزمور ومازاغان بحملة مشتركة، أوصلتهم إلى أبواب مراكش التي تمكنت من مقاومة هذا الهجوم [16].

معدل ما كان يقضيه القباطنة في حكم ثغور إفريقيا هو ثلاث سنوات. وبعد حكم مارتين أفونصو دوميلو، أدرك الدون مانويل مزايا توحيد مازاغان وأزمور تحت أوامر قبطان واحد، وكان هذا القبطان يسكن في مدينة، ويعين موظفا لشغل وظائف القبطان في الحصن المجاور. وهكذا تبين لنا وثيقة مؤرخة ب 28 يونيو سنة 1517، كيف أن أنطونيو ليت[17] محاسب أزمور، تفرغ تماما من وظيفته تلك ليشغل منصب القبطان: " ... في غياب أنطونيو ليت محاسبها، الذي أصبح قبطانا لقلعة مازاغان ..."[18]. وزيادة على هذه الوثيقة نتوفر على رسالة بتاريخ 12 أكتوبر من نفس السنة، من أنطونيو ليت إلى الملك، توجد بها إشارة إلى القبطان [19] الذي نرجح أنه سيماو كوريا [20] الذي كان يشغل منصب القبطان بأزمور [21].

في دجنبر 1517، عين الدون مانويل الدون ألفارو دو نورونيا[22] قبطانا على أزمور، وبعث إليه برسالة تعيين في هذا المنصب، ولم يشر فيها إلى مازاغان، لكن هذا التعيين كان صالحا أيضا لهذا الحصن، لأنه في يوم ماي 1518، كتب الدون ألفارو دو نورونياإلى الملك معربا عن شكره على التعيين، وطلب منه أن يبعث إليه رسالة أخرى رسمية مشابهة لتلك التي أعطاها له بشأن أزمور، على أن يشار فيها إلى تعيينه كقبطان على مازاغان أيضا، وبرر ذلك بأن المدينتين يجب أن تظلا موحدتين تحت سلطة واحدة، كما لو أن الأمر يتعلق بشيء واحد من أجل خدمة أفضل للملك [23].

15- يقصد بمغاربة السلم مجموعة السكان المسلمين الذين قبلوا الهيمنة البرتغالية ، أنظر :
David Lopes, Textos em aljameia portuguesa , 2° ediçao,Lisboa, 1940, pp 211 e segs e idem, Os portugueses em Marrocos ,Ob e loc , cit , p . 482 e passim .

16 -David Lopes, Textos em aljameia portuguesa , , p 163 e Sources Inédites .Portugal.I. pp. 687_692 . مدينة ماروكوش (Marrocos) تعرف حاليا باسم مراكش، لكن التسمية البرتغالية اقتبست من اللغات الأوربية، وتوسع مدلولها ليشمل كل البلاد . حول الهجوم على مراكش ، أنظر :
Antonio Dias Farrinha , Feitos de Vasco da Pina em Marrocos ..., ob e loc . Cit .

17 -Antonio Leite

18 -Sources Inédites .Portugal.II. p. 175,note 1

19 -Ibidem,II,pp. 174_177

20 - Simao Correia

21- لاحظ بيير دو سينيفال إمكانية هذا الاحتمال ، أنظر : Sources Inédites, II,p.175, note 1 .

22 -Alvaro de Noronha

23 -Sources Inédites,Portugal, II,p.189, note 1 .

إن رغبة الدون ألفارو دو نورونيا في الحصول على مبرر قانوني لتأكيد حقوقه على" برطانية" مازاغان، كان يقابله من جهة ثانية تزايد مطرد لسلطة أنطونيو ليت الذي أخذ يسعى بعد التحاقه بذلك الحصن إلى الانفراد بحكمه وأن يظل بمنأى عن التبعية لقبطان أزمور. وقد ظهرت هذه الرغبة في الاستقلال في رسالة كتبها إلى الملك في 22 يوليوز 1518، فيها أخبره بالاختلاف الحاصل بينهما حول الأشغال التي يجب إنجازها بالموقع [مازاغان] [24]. من المرجح أن الدون مانويل تردد في ترجيح كفة أي من الطرفين، فأحدهما وهو أنطونيو ليت أظهر دلائل على كفاءته كمحاسب بأزمور ومازاغان وتيط، والآخر وهو الدون ألفارو دو نورونيا، يلح على أن يكون الموقعان معا تحت سلطة قبطان واحد. وقد حسم الأمر حين عين الدون مانويل أنطونيو ليت قبطانا على مازاغان في 20 يناير 1520[25]. وهكذا توقفت في المهد هذه التجربة القصيرة الهادفة إلى توحيد الموقعين تحت أوامر نفس القبطان.

كانت المنافسات بين قباطنة مختلف الثغور بإفريقيا، وراء ما تعرضت له سلامتها، وعرقلة قيام أي حركات مشتركة ضد العدو. وقد اعتبر الأستاذ روبرت ريكارد أنه كان ينقص منصب نائب للملك أو قبطان عام يقوم بتوحيد القوى المتفرقة في حركة مشتركة. لكن، وكما لاحظ نفس المؤرخ أيضا ـ فإن الملوك البرتغاليين اعتبروا المغرب دائما كإقليم [برتغالي]، كأنه منطقة الغرب [البرتغالية] لما وراء البحار، حيث تصل الإمدادات إليه بسرعة في حالة الخطر. وهذه الرغبة في التسيير المباشر كانت تصطدم بمصاعب التنسيق في لشبونة بين نشاطات هذا العدد المرتفع من الثغور [26].

عندما تمكن أنطونيو ليت من الاستقلال بحكم مازاغان، استمر في منافسة الدون ألفارو دو نورونيا[27]، وبعد تعيين حاكم جديد، استمر الخلاف بينه وبين القبطان الجديد لأزمور السيد جورج فييغاش[28]، مما بين الحاجة إلى اتخاذ مبادرة لجمع الموقعين تحت زعامة واحدة.

وبعد ذلك، ومع بداية حكم الملك الجديد الدون جواو الثالث، عرفت الإمبراطورية البرتغالية بعض المصاعب الناتجة عن التمسك بأراضي شاسعة بدون تخطيط وتنظيم. وتصادف هذا الاستنزاف مع صعود سلطة مركزية قوية وموحدة في المغرب، وتتجلى في شرفاء سوس، الذين سعوا إلى بعث روح الكراهية لدى السكان ضد الأجنبي الكافر، عن طريق الصراع ضد البرتغاليين، وبذلك ولدوا مناخا للحرب المقدسة، استفادوا منه طبعا .

24 _Ibidem,II,pp.202 _203 .
25 _Ibidem,II,p.175 _note 1 .
26 - Ibidem ,V, (Introduction)
27 _Ibidem,II,pp.291 _293
28 _Jorge Viegas

خطط الدون جواو الثالث للتخلي عن عدة ثغور. وفي سنة 1532، طلب من البابا أن يسمح له بأن يعيد الحاميات البرتغالية الموجودة بأزمور وأسفي والقصر الصغير إلى المملكة. وقد تأخر جواب البابا. وفي سنة 1534، اتخذ الملك البرتغالي مبادرة استشارة الشخصيات الرئيسية بالمملكة حول هذا المشكل الحساس. وقد عبر معظم هؤلاء المستشارين عن معارضتهم للتخلي عن هذه الثغور، متذرعين بحجج الشرف والمجد. ولم يشذ عن ذلك سوى كبير أساقفة سانتياغو، والدون فرناندو أسقف لاميغو(Lamego) اللذين قدما تحليلا، يتسم بوضوح النظرة إلى المصاعب التي كان يعاني منها التاج البرتغالي، وقد عبر هذا الأخير عن موافقته ليس فقط على التخلي عن أسفي وأزمور، ولكن أيضا عن تأييده لإخلاء سانتاكروش دو كابو دو غي[29]. أما بالنسبة لمازاغان: " ... يظهر أنه بالإمكان، ويجب أن تبقى محصنة جيدا، لأنه يمكن أن يتم إنجادها عند الاقتضاء ..." وقد علق دافيد لوبش على هذا قائلا: " ... تخلى الملك جواو الثالث عن مشروع إخلاء هذه المواقع، ليس لأنه لم يتوصل بجواب من روما، ولكن أيضا لأن معظم مستشاريه عارضوا التخلي عن هذه الأماكن. ولذلك علقت حكومته هذا المشروع، وانتظرت أن تؤدي الأحداث المقبلة إلى إظهار مصداقيته ..." [30].

تم تجديد حكم أنطونيو ليت، لأن الدون جواو الثالث صادق على التعيين الذي قام به سلفه في 5 دجنبر 1524[31] وظل في منصبه هذا إلى سنة 1529 وهو التاريخ الذي انتقل فيه لممارسة نفس المهمة بأزمور[32]. وما بين سنتي 1536 و1537، شغل منصب قبطانية مازاغان السيد مانويل دو صاند[33]، وهو مرافق قديم لقبطان أسفي المقدام السيد نونو فرناندش دو أتايد[34].

عرفت المدينة في هذه الفترة سنوات صعبة، بسبب عدم انتظام الإمدادات الغذائية، وبسبب النقص العددي في جنود الحامية[35]، في وقت كانت فيه قوة السعديين في تنام، وتمت

29ـ Santa Cruz do Cabo de Gué

30ـ تم نشر هذه الأجوبة الاستشارية من طرف هنري دو كاستر في (S . Inédites,France,1° série,I,p. 43 e segs) مصحوبة بتعايقاته الهامة .كما حللها دافيد لوبش في كتابه (Os Portugueses em Marrocos,loc,cit,IV,pp.94_96)وتم نشرها من جديد في (As Gavetas da Torre do Tombo,I,pp.832_859) ، وانظر أيضا :

Antonio Diaz Farinha e Robert Ricard, Les documents sue le Maroc dans le volume IV de (As Gavetas de Torre do Tombo) , in (Studia),n° 16, novembro de 1965, p. 175 (commentario ao documento 3399_Gaveta XV,14_2 , carta do bispo do Algarve) et : Otilia Rodrigues Fontoura, Portugal em Marrocos na época de D. Joao III _ Abandono ou permanência , dissertaçao para a licenciatura em Historia , apresentada à Faculdade de Letras de Lisboa em 1966 .

31 ـA.N.T.T , chancellaria de D. Joao III , liv. 37 , f° 130 .
والاختصار (A.N.T.T) يرمز إلى الأرشيف الوطني بطوري دو طومبو .

32 : أنظر ـS. Inédites,Portugal,I,p.575 , nota 1,e II, p. 175, nota 1 .

33 ـManuel de Sande

34 ـNuno Fernandes de Ataïde : أنظر ، S. Inédites,Portugal,I,p.389 , nota 1,

35ـ انظر حول تموين مازاغان ، رسالة كاشطانيرا بتاريخ 18 غشت 1533 ، ضمن :
J.D.M.Ford, Letters of John III, n°85 ,pp . 128 _129 .

حاصرة أزمور في فبراير 1537، وتلت ذلك عدة مناوشات مع المغاربة المجاورين لها، مما
غم مانويل دو صاند على المطالبة بإقامة إصلاحات بالحصن، وطلب النجدة من الدون
واو الثالث [36].

ومن جديد، تم إخبار الملك البرتغالي الدون جواو الثاني في بداية سنة 1541، بالخطر
ذي يهدد المراكز البرتغالية بسبب تنامي قوة الشريف مولاي محمد الشيخ، وذلك من طرف
قبطان الجديد لمازاغان جواو غومش [37]. وقد أظهر الدون جواو الثالث، في رسالة إلى دوق
شطانييرا مؤرخة ب 7 مارس من نفس السنة، إدراكه للخطر، وأمر بتجنيد الجنود من
ندلس ومنطقة الغرب [38]. إلا أن قرار الدون جواو الثالث بحماية الثغور المغربية [المحتلة]
اء متأخرا جدا ، لأن مولاي الشيخ تمكن من أخذ سانتاكروش دو كابو دو غي في 12 مارس
154 [39] وبذلك تأكد صدق ووجاهة رأي أسقف لامغو، وأعطته الأحداث الدامية مصداقية
يرة. وفي نهاية أكتوبر 1541، تم إخلاء أسفي وأزمور. وفي 8 نونبر من نفس السنة أعطى
بابا موافقة الكنيسة على الأمر الواقع في براءة " Licet Apostolicae Sedis" [40].

احتفظ الدون جواو الثالث بمازاغان التي أصبحت المركز الوحيد الباقي تحت سيادة
برتغاليين في جنوب المغرب، وقرر تحصينه بشكل يسمح له بتحمل هجومات الأعداء.
بالتالي إنقاذ المجد والهيبة اللذين نال منهما سقوط سانتا كروش بشكل خطير جدا. وقام
س الملك في نهاية مارس 1541 باستبدال جواو غوميش بجندي خبير في الحرب بإفريقيا
هو: لويش دو لوريرو(Luis de Loureiro) وأمره بالبدء في أشغال تقوية التحصينات [41].

وبناء على ذلك قام دييغو دو طورالفا "Diego de Torralva" ـ وهو فنان إيطالي، وصهر
رانشيسكو دو أرودا ـ في ربيع سنة 1541(غالبا في ماي) بدراسة الموقع الذي يجب أن تقام
به القلعة الجديدة، لكنه لم يكلف لا بوضع التصميمات ولا بالتنفيذ [42]. وتم وضع التصميم

36 -Sources Inédites,Portugal, III,pp.56,59,64,88,89,e 90 _ 95 .
37 -Joao Gomes

3 ـأنظر: Sources Inédites,Portugal, III,pp.311_312 _ J.D.M.Ford,Lettre...,pp.365 366 _ Joaquim Figanier , Historia d
Santa Cruz de cabo de Gué , p . 199 .
39 -Joaquim Figanier , ob . Cit , p . 205 et sui.

4ـ أنظر: _ David Lopes , Os Portugueses em Marrocos , loc,cit ;IV.Pag.94, et Sources Inédites , Portugal,IV, pag.9 _ 10 .
4ـ أنظر عن لويش دو لوريرو هذا : لورنصو أناشتيسيو ميشيا غالفاو ، حياة البطل الشهير لويش دو لوريرو ، مع مقدمة للأستاذ
نويل اوبش دو ألميدا :
Laurenço Anasticio Mexia Galvao , Vida do Famoso hérôe Luis de Loureiro , Porto , 1946 , com uma
introduçao do professor Manuel Lopes de Almeida .
42- Robert Ricard e Chantal de LA Veronne , les architectes des places portuguaises du Maroc /pag.155_157 ,
Henrique Lopes de Mendoça ,

من طرف المهندس الإيطالي بنديتو دا رافينا (Benedetto da Ravenna) الذي وضع تحت خدمة الدون جواو الثالث من طرف الإمبراطور شارل الخامس الذي سبق له أن كلفه بأعمال كثيرة[43]. وتمت الأشغال تحت إشراف وإدارة كل من جواو دو كاشتيليو وجواو ريبيرو (J / de Castilho e J / Ribeiro) [44] . وظل جواو ريبيرو هناك إلى نهاية سنة 1542 وهو التاريخ الذي عاد فيه إلى البرتغال لإعطاء تقرير إلى الملك عن الأشغال التي تم إنجازها. وبقي جواو دو كاشتيليو بالمركز بعد ذهاب جواو ريبيرو. لكن لا يمكننا تحديد تاريخ معين لعودته إلى البرتغال[45].

أدى الخوف من قدوم مولاي محمد الشيخ لمحاصرة الحصن إلى تجمع حامية كبيرة هناك، إضافة إلى قوات أخرى تجمعت في الخليج بقيادة فرناو بيرش دو أندرد (Fernao Peres de Andrade)، كما تمركزت هناك أيضا القوات التي تخلت عن أزمور[46]. لكن الشريف الذي كان سياسيا ماهرا فضل أن لا يستمر في الإلحاح على الحرب ضد البرتغاليين، وبدلا من ذلك ارتأى أن يدعم وضعيته ويعمل على توحيد المغرب تحت سلطته.

استمرت أعمال بناء حصن مازاغان خلال سنة 1542 كلها. وفي 15 دجنبر من نفس السنة كتب لويش دو لوريرو إلى الملك يخبره بأنه فرغ من عملية بناء الأسوار، وأن ثلثي الأشغال يمكن اعتبارها قد انتهت كذلك[47]. ولذلك أصبح بالإمكان تخفيض وتيرة البناء والاستراحة تحت ظل الأسوار التي سيحافظ البرتغاليون عليها منيعة إلى ما يزيد على قرنين من الزمن.

كانت الأشغال غالية ومكلفة جدا، ولا يبرر بناؤها إلا بكون كبرياء الحكام البرتغال أصيب في الصميم عندما ضاعت منهم سانتا كروش. وكان عليهم الحفاظ على الهيبة والأمجاد التي رافقت التوسع البرتغالي، أمام الدول الأخرى وأمام البابا. كما أن المدينة كانت تشكل قاعدة مضمونة لغزو المغرب، وهي الفكرة الدائمة لبرتغاليي القرن 15. كما أن الدون جواو رغب أيضا في الحفاظ على مزايا البراءة البابوية (Santa Cruzada) التي كان البابوات يجددونها باستمرار[48].

وخلال الفترات الصعبة التي كان يخشى فيها من تعرض الموقع للحصار، كان يتلقى الإمدادات الغذائية بانتظام. وبعد ذلك عادت المصاعب، وأصبح الموقع يعاني من نقص في

43ـ أنظر الهامش السابق ودافيد لوبش ، البرتغاليون في المغرب ، المذكور في الهامش 39 ، ص 101 .

44 - Sources inédites , Portugal , II , pages 502 _ 506 .

45ـ روبرت ريكارد وشانطال دو لا فيرون، المرجع المذكور في الهامش 41 أعلاه ، ص 156 ـ 157 .

46 -Sources inédites , Portugal , III , pages 348 _ 350 et 386 _ 389 .

47 - Sources inédites , Portugal ,IV , pages 112 _ 119 . France , 1° série , I , pages 139 _ 148;As Gavetas da Torre do Tombo , I . pages 792 _ 796 .

48ـ ارتأى هنري دو كاستر أن البرتغاليين احتفظوا بمازاغان من أجل الحفاظ على المزايا التي تخولها لهم هذه البراءة ، ولنفس الأسباب احتفظ الإسبان بالثغور التي احتلوها أنظر : Sources inédites , France , 1° série , I , pages 55 note 2.

التزود بالمواد الغذائية. وفي رسالة بتاريخ 15 دجنبر 1542- وهي الرسالة التي سبقت الإشارة إليها - طلب لويش دو لوريرو من الدون جواو الثالث أن يبعث إليه المواد الغذائية التي شحت منذ ما يزيد عن ثلاثة أشهر. بعد ذلك أصبحت حالة الحرب عادية، وعمق البرتغاليون من القطيعة التي كانت تفصلهم آنذاك عن المغاربة المنتصرين في سانتا كروش. ولم يتعرض الموقع لمضايقة حقيقية لأن الشريف مولاي محمد الشيخ ركز جهوده آنذاك على توحيد البلاد، ودخل في صراع مع مملكة فاس التي كانت تعيش أيامها الأخيرة وأحرز عليها عددا من الانتصارات.

انتقل لويش دو لوريرو إلى الهجوم سنة 1546، وهاجم مدينة أزمور ودخل إليها، وأسر عددا كبيرا من المغاربة. وقد علق دييغو دو طوريش على ذلك بأن المغاربة خافوا منه، ولم يتمكنوا من القيام بمعركة ضده[49]. وبسبب هذا الانتصار، شرع المغاربة في إعداد كمين للقبطان البرتغالي الباسل، وهو المخطط الذي تم التوصل إليه فيما بعد، حيث تم ذلك في 30 مارس 1547، وسقط لويش دو لوريرو و 120 فارسا من فرسان الموقع في كمين نصبه لهم المغاربة، وجرح القبطان جرحا بليغا، ومات عدد كبير من البرتغاليين ومنهم أحد أبناء لويش دو لوريرو نفسه[50]. وقد أخمدت هذه الهزيمة حماس لويش دو لوريرو، لكنه استمر مع ذلك في حكم المركز إلى غاية يوليوز 1548[51]، وتمكن بذلك من أن يحضر ويعاين انتهاء الأشغال في خزان الماء (Cisterna) الذي يعتبر أهم إنجاز فني شيد في الحصن، وكذلك قنوات الماء التي تغذيه[52].

بعد ذلك عين قبطان جديد هو تريشتاو دو أتايد (Tristao de Ataïde) الذي استمر حاكما للمدينة خلال ثلاث سنوات[53]، كان عليه أن يتحمل فيها بعض المناوشات مع المغاربة[54]. إلا أن الشريف الذي أصبح يمثل السلطة الوحيدة بالمغرب، لم يتمكن من إزعاجه بسبب انشغاله بالقضاء على آخر جيوب المقاومة الوطاسية بمملكة فاس[55].

وبارتباط مع تنامي قوة السعديين، أدرك الدون جواو الثالث الخطر الذي يتهدد الحصون البرتغالية بالمغرب. وفي سنة 1550، أمر بإخلاء أصيلة والقصر الصغير، وبقيت بيد البرتغاليين ثلاثة مراكز في شمال إفريقيا محصنة جيدا في ظل الأسوار القوية، ويمكن أن تتوصل بسهولة بالنجدة عن طريق البحر وهي: سبتة وطنجة ومازاغان.

49- أنظر : Diego de Torres, Relation de l'origine et succès des Cérifs, p. 171 _ 172

50 - Sources inédites , Portugal ,IV , pages 209 _ 210, et D . de Torres , Op . Cit. p. 173 _ 178 .

51 - Sources inédites, Portugal,IV, pages 289 , et Mexia Galvao, vida do famoso Luis de Loureiro, p. 136

52- Sources inédites , Portugal ,IV ,doc.LXVII, pages 229 _ 232 .

53 -Sources inédites , Portugal ,IV ,doc.LXVII, pages 289, note 2 .

54- رسالة الدون جواو الثالث من 16 فبراير 1549 وانظر أيضا : A.N.T.T,Corpo chronologico , part,1° maç. 82 , doc. 55

55 -Cf. Henry Terasse,Histoire du Maroc , vol . II, p. 166

عاد تريشتاو دو أتايد إلى المملكة البرتغالية سنة 1551 بسبب اشتداد وطأة المرض عليه[56]، وعين محله ألفارو دو كارفاليو (Alvaro do Carvalho) الذي كان قبل ذلك متوليا لمنصب قبطان القصر الصغير، حسب ما يتبين من رسالة تعيينه المؤرخة ب 30 أبريل 1551، وقد استمر في منصبه هذا طيلة حياته وخلفه فيه ابنه بيدرو ألفارش دو كابرال (Pedro Alvares de Cabral)[57].

عانى القبطان الجديد من صعوبة تزويد الوطن الأم للموقع بحاجياته من الأقوات. ومن جديد لاح شبح التهديد بالحصار، خصوصا بعد تحالف مولاي الشيخ مع الأتراك . ومن قبل ذلك لم يكن التهديد المغربي يأتي أبدا عن طريق البحر ، لكن الأتراك بوسعهم أن يهددوا الموقع على متن سنهم ، وبذلك أصبحت مازاغان معرضة لخطر البقاء معزولة [58]. ولم يتم التغلب على هذه المصاعب إلا بسبب انتهاء التحالف بين الشريف والأتراك، وخاصة عندما بدأ محمد الشيخ يسعى إلى التقارب مع الدون جواو الثالث وعرض عليه إقامة تحالف ضد الأتراك، وهو ما أبدى الملك البرتغالي موافقته عليه. وقد ألح الشريف، وفقا لإحدى شروط التحالف، على ضرورة وجود موانئ حرة بهدف تسهيل التجارة المغربية مع الخارج وشراء الأسلحة، لكن الدون جواو الثالث لم يعط أبدا موافقته على هذه الشروط، ولهذا لم يتم تطبيق هذا الاتفاق [59].

انتهت بسرعة فترة السلم التي كان الطرفان يتفاوضان خلالها بشأن هذا التحالف. وفي أكتوبر 1555، كتب ألفارو دو كارفاليو إلى بيدرو دو ألكاسوفا كارنييرو (Pedro de Alcaçova Carneiro) حول الشكوك القائمة حول مصداقية الصلح المنعقد مع الشريف، لأن المعارك استؤنفت أمام المركز ولأن الصراع بين الشريف والأتراك انتهى على ما يبدو. وطلب القبطان في النهاية أن ترسل إليه تعزيزات عسكرية إلى مازاغان [60] . وقد استؤنفت المعارك بعنف في سنة 1556[61] . وفي 15 يناير 1557، كتب القبطان إلى الملكة مقدما لها تقريرا عن الاتصالات التي قام بها الأتراك من أجل إقرار تحالف مع الشريف بهدف تنشيط الصراع ضد المسيحيين[62]. وقد تحقق ذلك، وفي 20 فبراير من نفس السنة تمت محاصرة مازاغان من طرف

56ـ أنظر رسالة تريشتاو دو أتايد إلى الملكة الدونا كاتارينا بتاريخ 14 يوليوز 1550، وانظر أيضا :

A.N.T.T, Corpo chronologico, part 1°, maç.84, doc.1.

57 _A.N.T.T.Chancellaria de D. Joao III, liv.69, f°182, e A.G.S.Secretarias provinciales , liv. 1456, f° 26 _26 v°, publ. Infra, doc.VII.

58ـ أنظر رسالة ألفارو دو كارفاليو إلى الملك البرتغالي بتاريخ 26 شتنبر1553 في :

A.N.T.T,Corpo chronologico , part,1° maç. 91 , doc. 19

59ـ أنظر رسائل الملك البرتغالي إلى ألفارو دو كارفاليو وجواب هذا الأخير في يوليوز سنة 1515 و 15 غشت من نفس السنة في:

Sources inédites , Portugal ,V ,doc. VIII e IX, pages 20 _ 23 e 23 _ 26

60ـ رسالة بتاريخ 25 أكتوبر 1555 في : Sources inédites , Portugal ,V ,doc.XIV, pages 39 _ 43

61 _Sources inédites , Portugal ,V ,doc.XVII, pages 48 _ 49

62 _A.N.T.T, Corpo chronologico, part 1°, maç.100, doc.80.

الأتراك المتحالفين مع الشريف[63]. وقد حاول ألفارو دو كارفاليو أن يفرق بين المتحالفين، وقام لذلك بمناورة دبلوماسية على قدر كبير من الأهمية[64].

وفي سنة 1557، خلف الشريف الجديد مولاي عبد الله الغالب أباه على حكم المغرب، ووضع مخططا يرمي إلى إعادة النصر الذي حققه سلفه في سانتاكروش، والاستيلاء على مازاغان. وفي شتنبر من سنة 1559، بدأت الاستعدادات من أجل محاصرة المدينة، وتزايدت وتيرة المناوشات التي استمرت طيلة سنتي 1560 و 1561[65]. ولم تسمح المشاكل التي كانت الملكة الوصية الدونا كاتارينا تعاني منها بنجدة المدينة بالشكل الذي طلبه ألفارو دو كارفاليو. وكانت الملكة قد اتخذت - قبل أن يبدأ الحصار - نفس القرار الذي سبق أن اتخذه الدون جواو الثالث سنة 1534، وهو استشارة الشخصيات الهامة في المملكة حول إخلاء المدينة، وجاء في رسالتها: " ... حتى ولو أمكننا عمليا الحفاظ على موقع مازاغان، فإن الحفاظ عليه ليس من الأمور الضرورية جدا، والتي تبرر تحمل كل السلبيات الناتجة عنه. لذلك يظهر أنه من اللازم الخروج من هذا الموقع، من أجل خدمة مصالح الملك جيدا ... "[66]. ثم قررت الدونا كاتارينا تقديم مشروع الإخلاء إلى الكورتيس، وأمرت بعودة قسم من الفرسان والنساء والأطفال[67]. وفي نفس الفترة انسحب ألفارو دو كارفاليو أيضا إلى المملكة البرتغالية، وعين أخوه روي دو سوزا كارفاليو (Rui de Sousa Carvalho) قبطانا نائبا قائما مقامه في 17 ماي 1561[68].

عرف مولاي عبد الله الغالب بمشروع إخلاء مازاغان، ووضع خطة من أجل التوصل إلى نصر سهل يكون له صدى كبير: " ... توصل الشريف إلى معرفة أن حصن مازاغان بقي بدون فرسان، وبعدد قليل من الجنود الذين أنهكهم الجوع، الذين قرروا مغادرته. وأنهم يحتفظون لذلك بحصن ملغوم من أجل تفجير الموقع ... "[69]. وفي شتنبر 1561، استدعى الشريف قواته العسكرية، وأعلن أنه يعد لحملة ضد أتراك الجزائر. وقد تخوف روي دو سوزا دو كارفاليو من الحصار وأمر بإصلاح بعض التحصينات بالمدينة. ولم يتأخر الحصار، ففي يوم 4 مارس

---

63 - رسالة أ . كارفاليو إلى الملكة : A.N.T.T,Corpo chronologico , part,1° maç. 100 , doc. 110

64- أنظر رسالة أ . دو كارفاليو إلى السكرتير بيدرو دو ألكاسوفا كارنييروفي 20 أبريل 1558 في :
A.N.T.T,Corpo chronologico , part,1° maç. 102 , doc. 90

65- أنظر رسائل جان نيكوت إلى ملك فرنسا في :
Edmnd Falgairolle , Jean Nicot,ambassadeur de France en Portugal au XVI° siècle _ sa correspondance diplomatique inédite , Paris , 1897, p p . 64 et 137 .

66- B.N.L. Fundo Geral , caixa 201 , docs . 142 e 143 . والفقرة مقتطفة من الوثيقة الأخيرة .

67 - Sources inédites , France , 1° série , I ,doc . III, p. 232 note 4 .

68 - وهو التاريخ الذي تعطيه لنا وثيقة في : B.N.L . Coleçao Pombalina , codico .647 , f ° 28 _ a . . وبخصوص انسحاب ألفارو دو كورونيا إلى البرتغال ، أنظر :
Mémorias para a historia de Portugal , vol . II , p. 55 , et Chantal de La Veronne , in Sources inédites, Espagne,III, p . 20 , note 1 .

69 - Agostinho de Gavy de Mendoça,Historia do cerco de Mazagao, p . 24 .

1562، خيم جيش العدو أمام الموقع، وأعد مولاي عبد الله خيرة فرقه العسكرية، وأوكل قيادتها إلى ابنه، الشريف المقبل، مولاي محمد المتوكل[70].

لقد أججت هذه الحرب المقدسة حماس أتباع الشريعة المحمدية، وتدفق العداء للمسيحيين ضد العدد القليل من الرجال المدافعين عن الموقع. لكن الحصار - مع ذلك - كان متوقعا ضد مازاغان. كما كان منتظرا إخلاء المدينة في نفس السنة - وربما في بضعة أشهر. إلا أن الهجوم المغربي أعطى نتيجة عكسية، فعندما بعث روي دو سوزا دو كارفاليو إلى المملكة يخبر البرتغاليين بالوضعية الخطيرة التي يواجهها، كان رد الفعل البرتغالي سريعا. وبالإضافة إلى الدافع الديني، لعبت أسباب أخرى دورها، وهي أسباب تتعلق بالشرف والمجد العسكريين، وهي أمور لا يوجد فاصل بينها وبين الأسباب الدينية. هناك شهادة معاصرة تروي هذه الأحداث:"... بدأ عدد كبير من الناس في التجمع من أجل المساهمة في الحملة لفك الحصار عن الجديدة. بعضهم تم استدعاؤهم، والبعض الآخر قدم بدون أن يتم استدعاؤه... وأصدرت الملكة أمرا إلى برج بليم بأن لا يسمح بمرور أية سفينة إلى الخارج إذا لم يكن لديها تكليف مؤكد خاص بها ..." [71]

كانت الملكة الوصية الدونا كاتارينا ترغب من إصدارها لهذا الأمر في الحد من رغبة عدد كبير من النبلاء وعامة الشعب في الإبحار. باختصار، تقرر أن الاحتفاظ بالموقع كان ضروريا، وأمام هذه الرغبة القوية في نجدة المدينة:" ... أمرت الملكة باستدعاء كبار فرسان مازاغان الذين كان الكورتس راضيا عن خدماتهم، وطلب منهم الذهاب لنجدة وطنهم الذي سيصبح ضائعا بدونهم ..." [72]. وفي يوم 24 مارس، تقلد ألفارو دو كارفاليو من جديد منصب قبطان الموقع[73]، ووصلت الإمدادات قبل أن يقرر المغاربة الشروع في الهجمات الحاسمة.

وهكذا يظهر أن الحفاظ على الموقع تقرر بإرادة النبلاء وعامة الناس الذين قاموا جميعا بجهود كبيرة لنجدته :"... سكان مدينة لشبونة ... أعدوا على عجل ألف رجل محارب من أجل تلبية طلب النجدة التي دعوا إليها ... وقام عدد آخر من الموظفين والتقنيين بنفس المدينة بدفع المال بحماس شديد جدا وبارتياح ... وأنشأ السكاكون وبمحض إرادتهم تعاونية فيما بينهم، وأرسلوا على نفقتهم ثمانين جنديا إلى الحصار المذكور ..." [74].

70 - نفسه ، ص 33 .

71 -Sources inédites , France , 1° série , I ,doc . LI, p. 233_235 .

72 - Agostinho de Gavy de Mendoça, ob . Cit . p . 35.

73 - أنظر:

Idem,ibidem,p.51 ; JoaquimVerissimo Serrao, Documentos inéditos para a historia do reinado de D. Sebastiao , in ' Boletin da Biblioteca da universidade de Coimbra ', vol.XXIV . Coimbra, 1960 , doc . XIX, p . 182_183 .

74 -Agostinho de Gavy de Mendoça, ob . Cit . p . 67.

استمر الحصار حوالي ثلاثة أشهر، ونفذت خلال هذه المدة عمليات على قدر كبير من الإقدام والشجاعة. وكان للانتصار الذي حصل عليه البرتغاليون صدى واسع، وتم الاحتفال به، بأمر من البابا، من طرف الكاردينالات المجتمعين في مجلس طرنطو(Torento)[75].

عندما انتهى الحصار، عاد ألفارو دو كارفاليو إلى المملكة، وبقي أخوه روي دو سوزا دو كارفاليو بالموقع قائما محله. وقد استمر مشروع إخلاء المدينة محل نقاش في لشبونة. ففي اجتماع الكورتس سنة 1562_63، التمس مجلس الشعب " ... بأن لا يتم التخلي عن المواقع البرتغالية بإفريقيا ..." وحينئذ فقط تقرر الإبقاء على السيادة البرتغالية على مازاغان[76].

طلب روي دو سوزا دو كارفاليو من الملكة الوصية أن تسمح له بالعودة إلى المملكة في 8 يوليوز 1562، متذرعا بالجراح التي أصيب بها خلال الحصار[77] وعين محله فرانسيشكو دو باروش دو بايفا (Francisco de Barros de Paiva) وهو جندي له خبرة كبيرة في الهند وإفريقيا، وتسلم مهمته في نونبر 1562[78].

بعد ذلك قررت الملكة أن تخفض عدد جنود مازاغان، وأن تقلل من المصاريف بالموقع، وحددت عدد رجال الحامية ب500 رجل، وخصصت للمدافعين عن المدينة مبلغا عاما قدره (9.051468 ريالا) ، منها(6.000000 ريالا) من أجل الأجور، والباقي للتزود بالحبوب والبيسكوت [79]. وبمناسبة تعيين روي دو سوزا دو كارفاليو بتاريخ 6 نونبر 1564، أضيف إلى منصب قبطان مازاغان لقب الحاكم[80]. وقد ظلت عائلة كارفاليو في منصب حاكم الموقع إلى غاية سنة 1607، باستثناء فترات انتقالية قليلة. تسلم بدرو ألفارش كارفاليو، وهو

---

75 - لم نقدم وصفا مفصلا عن الحصار لأنها معروفة جيدا من خلال المرجع المذكور في الهامش أعلاه، وقد قدم هنري دو كاستر معلومات مفيدة عنه في :
Mémoire sur le siège de Mazagan, in Sources inédites , France, 1° série, p . 232 et sui .

76 - Luis Maria do Couto de Albuquerque da Cunha, Mémorias para a historia da praça de Mazagao,p.58_89/ Sources inédites, Espagne,III, p . 96, note 3 . D. Manuel de Meneses, Chronica de D . Sebastiao,p. 278

77 - A.N.T.T,Corpo chronologico , part,1° maç. 105 , doc. 121.

78- أنظر:
Agostinho de Gavy de Mendoça, ob . Cit . p . 147 ; Couto de Albuquerque da Cunha,ob.Cit.p.55 ; D. Manuelde Meneses , Chronica de D. Sebastiao , P . 256 .

وعن نشاطه الدبلوماسي ، أنظر :
Joaquim Verissimo Serrao , A Infanta Dona Maria e a sua fortuna no sul da França , Lisboa, 1955, p . 51_52 e nota 30, e 'Adenda'.

وقد مرض مرضا شديدا في غشت 1564 وعين خلف له .أنظر أيضا :
As Gavetas da Torre do Tombo, IV, Centro de Estudos Historicos Ultramarinos, Lisboa, 1964, p. 11_14 e Robert Ricard e Antonio Dias Farinha , Les Documents sur le Maroc dans le volume IV de ' As Gavetas da Torre do Tombo , in ' Studia ' n ° 16 , Novembro de 1965 , p . 167 .

79 - Relaçao da despesa , de 30 de julho de 1562.B.N.L. fundo Geral, Caixa 206 , n°136 .

80 - A.N.T.T,Corpo chronologico , part,2° maç. 247 , doc. 38.

الابن الأكبر لألفارو كارفاليو منصب حاكم الموقع طيلة حياته، ومات وهو يشغل نفس المنصب[81]. وتولى أخوه برناردين دو كارفاليو(Bernardim de Carvalho) ـ الذي كان يعمل هناك ـ منصب حاكم الموقع خلال شهرين[82].

في سنة 1574، اختير حاكم جديد للموقع من طرف الملك الدون سباستيان، وهو جيل فرناندش دو كارفاليو (Gil Fernanded de Carvalho) ابن ألفارو دوكارفاليو، وظل في منصبه هذا إلى 12 شتنبر 1577، وهو التاريخ الذي أرسل فيه الملك البرتغالي رسالة إليه يستدعيه فيها لمرافقته في الحملة التي كان يعدها لغزو إفريقيا. وقد ترك محله في الموقع العادل (O adil) فرانسيشكودو فيكييريدو مكلفا بوظائف القبطان (Francisco de Figueirado)[83].

عندما أصبح مخطط الحملة البرتغالية إلى المغرب جاهزا سنة 1578، أراد الدون سباستيان أن يموه على مولاي عبد المالك المكان الذي سينطلق منه الهجوم. وفي 14 أبريل من نفس السنة خطط لإرسال مولاي الشيخ ومولاي الناصر ابن وأخ مولاي محمد المتوكل إلى مازاغان بهدف إثارة السكان ضد عمه عبد الملك، وأرسل مع هذين الأميرين مارتين كوريا دا سيلفا (Martim Correia da Silva) وبمعيته فرقتان من المشاة، وسلم له حكم الموقع[84].

انطلقت الحملة من مدينة أصيلا في 25 يوليوز من تلك السنة[85]، وبعده بقليل بدأت المناوشات في المجال القريب من مازاغان. واضطر مولاي عبد المالك إلى أن يترك هناك قوات هامة تحت قيادة ابن أخيه داوود ، وهو تصرف لم يكن ضروريا جدا[86].

وخلال معركة القصر الكبير [وادي المخازن] أسر قبطان مازاغان المقدام جيل فرناندش دو كارفاليو. وهو الذي تمكن بسبب معرفته العميقة باللغة العربية، من فهم مخططات أحمد المنصور الهادفة إلى عدم مواصلة الحرب ضد البرتغاليين[87].

كانت المرحلة التي تلت موت الملك الشاب الدون سباستيان محل عدد من الخلافات بين البرتغاليين، ولم يفلح تعيين الملك الجديد الكاردينال الدون هنريك سوى في تأجيل مشكل الوراثة الذي تسببت فيه الحملة المشؤومة على إفريقيا. وهكذا تبلورت أزمة

Agostinho de Gavy de Mendoça, ob . Cit . p . 169e segs ; Couto de Albuquerque,ob.Cit.p.59.

81 ـ في 26 يونيو سنة 1571 ، لم يكن بعد قد تسلم حكم الموقع، كما يتبين من رسالة موجهة إليه وإلى مارية دو طافورا من البابا بيو الخامس ، أنظرها في : Arquivo do Vaticano, Secr.Brev.22 f°488_489,publ,doc.II

82 ـ A.G.S. Secretarias Provinciales,liv.1456,f°26V.

83 ـ A.G.S. Secretarias Provinciales,liv.1457,f°162 .

84 ـ CODOIN, vol.XXXIX, p. 557_560.

85 ـ CODOIN, vol.XL, p. 78_80 e Sources inédites, Espagne,III,doc. CX, pp . 440_442.

86 ـ Sources inédites, France, 1° série,,I, pp . 533_534, note 1._ p . 591 , note 5 .

87 ـ أنظر: Bernardo de Cruz (Antonio de Vaena), chronica d'El Rey D.Sebastiao, vol.II, p.103 , e Queiros Veloso, em Historia de Portugal, dirig. Por Damiao Peres,V. p . 166

البرتغال المعاصرة التي تجلت في الشرخ الواقع بين مجموعتين إحداهما ترغب في الاستقلال الوطني، والثانية تتذرع بمفاهيم قانونية وتركت نفسها تدار من طرف سلطة المال التي كان يحركها فيليب الثاني [88].

لقد عرف الملك الإسباني كيف يرسم مخططا تدريجيا أوصله في وقت قصير إلى العرش البرتغالي. وسعى منذ الوهلة الأولى إلى الحصول على رضا الكاردينال الملك والنبلاء البرتغاليين[89]. وهكذا أصبحت سياسة وإدارة امبراطورية البرتغال لما وراء البحار، وخاصة منها المراكز الموجودة بالمغرب، متأثرة بالسلطة الفيليبية التي كانت تسعى إلى خنق التقدم التركي، وتهديد الملكية الشريفية، وتأمين حرية الملاحة في تلك المنطقة من المحيط الأطلسي. لقد تلقى السفير الإسباني في لشبونة السيد كريشتوفاو دو مورا (Cristovao de Moura) تعليمات من دولته بأن يمارس ضغطا على الكاردينال الملك حتى لا يتخلى عن المراكز المحتلة في شمال إفريقيا، وسعى أيضا للتوصل إلى توحيد سياسة الإيبيريين أمام ملك مراكش الجديد مولاي أحمد المنصور. وقد كللت جهود فيليب الثاني بالنجاح. وفي يوم 14 نونبر 1578، نجد الملك الإسباني يهنئ سفيره على أن الكاردينال الدون هنريك وعد بأن لا يتخلى عن أصيلا، بدون أن يتشاور مسبقا مع الملك الإسباني[90]Kومع ذلك فقد استمر الحديث عن إخلاء المراكز التي تحتلها البرتغال بالمغرب، ويظهر ذلك من رسالة كتبها السفير البرتغالي بمدريد فرناندو سيلفا إلى الملك الإسباني فيليب الثاني في الموضوع يخبره فيها أنه سيتوصل منه برد سلبي في دجنبر 1579[91].

عندما اتحد التاجان الإسباني والبرتغالي، فإن المراكز الأخيرة التي بقيت لهم بالمغرب مرت بمراحل صعبة، وكلها بدأت تستعد للإخلاء القريب. إلا أن فيليب الثاني نهج سياسة مكنته من الحفاظ على الممتلكات الجديدة التي ضمها إليه. لكن مازاغان، وعلى الرغم من أنها عانت في وقت من الأوقات من خطر استبدالها بالعرائش، استطاعت أن تستفيد من هذه الظروف الجديدة، وظلت دائما مخلصة للأوامر التي كانت تأتيها من لشبونة عاصمة الامبراطورية البرتغالية .

88 ـ تم عرض وتحليل مختلف ردود الفعل التي أحدثتها أزمة وراثة العرش البرتغالي من طرف :
Joaquim Verissimo Serrao , em O reinado de D . Antonio , prior de Crato, vol.I,'Introduçao'

89 ـ أنظر Queiros Veloso , A perda da independência,vol.I,Oreinado do Cardeal D. Henrique, Lisboa,1946.

90 ـ B.N.M, ms.1405,f°186_187 v.

91 ـ A.G.S. Secretaria de Estado , legajo 409,f°321 .

ملحق : قباطنة مازاغان وحكامها خلل الفترة الفيليبية

الاسم	الفترة التي حكم فيها
Joao de Mendonça Furtado	1581 - 1578
Pero de Mendonça Furtado	1582 - 1581
Francisco de Mendonça Furtado	1586 - 1582
Gil Fernandes de Carvalho	1586
Diogo Lopes de Carvalho	1607 - 1586
D. Manuel Mascarenhas	1610 - 1607
Henriaue Correiq dq Silvq	1615 - 1610
D. Jorge Mascarenhas	1619 - 1615
Beras Teles de Meneses	1624 - 1619
D.Gonçalo Coutinho	1627 - 1624
D.Francisco de Almeida	1631 - 1627
Joao da Silva Telo de Meneses	1635 - 1631
D. Francisco Mascarenhas	1640 - 1635
D. Luisa Antonio de Velasco Nuno da Cunha da Costa	1640
Martim Correia da Silva	1642 - 1640

المغرب والبحر الأبيض المتوسط
في النصف الثاني من القرن الثامن عشر[1]

جواو كوسمي[2]

تقديم

يدخل هذا المقال- الذي أتوخى من ترجمته المساهمة في تكريم علم من أعلام الباحثين التونسيين المتميزين الذين بصموا البحث التاريخي التونسي بشخصيتهم القوية المنفتحة على العوالم المغاربية والمتوسطية، وبنشاطهم الدؤوب للنهوض به وإحلاله المكانة اللائقة به بين باقي العلوم الاجتماعية والإنسانية- في إطار انشغالات الأستاذ المحتفى به، الذي كرس عمره لدراسة تاريخ تونس ومنطقة المغرب الكبير في ارتباطها بالدولة العثمانية وبالإرث الموريسكي وتاريخ شبه جزيرة إيبيريا.

صاحب هذا المقال هو المؤرخ البرتغالي جواو سانطوش راماليو كوزمي، وهو أستاذ للتاريخ الحديث، بقسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة لشبونة، وعضو مركز البحث في التاريخ بنفس الجامعة. وله مساهمات متعددة في ندوات وطنية ودولية، وبعض الإصدارات المتعلقة بالحضور البرتغالي بالمغرب، منها كتاب عن حامية أسفي سنة 1511، ومقال عن مدينة مازاغان سنة 1677، ومقال بعنوان : المغرب من خلال مراسلات البعثة البرتغالية بمدينة طنجة (1886-1894)، وحركات الهجرة نحو طنجة[3].

---

1 - نشر في : "دراسات عن الدولة والثقافة والمجتمع في المجال العربي الاسلامي" ، أعمال مهداة إلى الأستاذ عبد الجليل التميمي، الجزء الأول، جمع وتقديم، ابراهيم محمد السعداوي، منشورات مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس ، 2013، صص.219-241.

2- Joao Cosme أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب بجامعة لشبونة.

3- نص عناوين الدراسات باللغة البرتغالية :

-*A guarnição de Safim em 1511*, Caleidoscópio/CHUL, Lisboa, 2004.

-«Mazagão em 1677», in *Arquipélago. História*, Revista da Universidade dos Açores, 2ª série, 2003, vol. VII, pp. 79-98.

-«Marrocos (1886-1894) visto através da correspondência da legação portuguesa em Tânger» in *Islenha* nº 25, (Jul.-Dez.), 1999, FUNCHAL, DRAC, pp. 66-91.

-«Movimentos migratórios para Tânger», in *Amar, Sentir e Viver a História*, Vol. I, Edições Colibri, Lisboa, 1995, pp. 515-539.

ونشرالمقال في الأصل في مجلة "إيسلينيا" عدد 4، سنة 2009. بعنوان: المغرب والبحر الأبيض المتوسط في النصف الثاني من القرن الثامن عشر[4].

يركز المقال على أوضاع المغرب وأحواله العامة في عهد السلطان العلوي سيدي محمد بن عبد الله (1757-1790)، وعلى علاقاته بالقوى الأوربية، وولايات الجزائر وتونس، والدولة العثمانية. إلا أن أهمية هذا المقال التي حذت بنا إلى ترجمته، تعود في نظرنا إلى خاصيتين:

1- أن المقال محرر من باحث برتغالي، ويتناول تاريخ المغاربالداخلي، على عكس ما اعتاده المؤرخون البرتغاليون الذين كتبوا عن الفترة الحديثة والمعاصرة، ولكن بتركيز شديد على البرتغال، وبنظرة خارجية لا تلقي بالا إلى الأوضاع الداخلية في المغرب أو في بلدان المغرب الكبير، بحيث يأتي الحديث عن المغرب غالبا في سياق الحديث عن التاريخ البرتغالي والاكتشافات البرتغالية، ومن خلال التركيز على الوجود البرتغالي في المغرب بدون تحليل أوضاعه الداخلية والاهتمام بما يقع فيه من تطورات. وهو بذلك جدير بالمتابعة والاهتمام من لدن المؤرخين المغاربيين، لأنه يقدم لنا فكرة واضحة عن منظور الآخرين لتاريخنا، ويدعونا إلى مناقشتهم في إطار التعاون والتكامل الضروريين للنهوض بالبحث التاريخي ، وتعدد الرؤى التي تغني هذا البحث.

2- أن صاحب المقال اختار أن يكتب عن فترة غنية من تاريخ المغرب والعالم آنذاك بالاعتماد فقط على نوع من المصادر التي قلما اعتمدناها في دراساتنا، خصوصا في الفترة المدروسة، وأعني به الكوازيط، جمع كازيطة، وهو المرادف الذي كان يطلق على الجرائد، في الوقت المدروس. فقد قام باستعراض أوضاع المغرب، وعلاقاته بكل دولة أوربية على حدة (البرتغال وإسبانيا وانجلترا وفرنسا وغيرها) وبالدولة العثمانية وولايتي الجزائر وتونس. وقد اختار جريدة واحدة هي كازيطة لشبونة، التي يعود تاريخ ظهورها إلى أربعينيات القرن الثامن عشر، ومقالات مراسليها في المغرب، لتقديم الصورة التي أعطاها للمغرب في مقاله.

وعلى الرغم مما يتخلل هذه المقالات الصحفية من اختلالات وأخطاء، وتصحيف لبعض الأسماء، وعدم التثبت من الوقائع والأحداث، فإنها تظل مع ذلك مصدرا هاما لتلك الفترة بتضمنها لبعض المعلومات التي لا نجدها في مصادرنا العربية، وخاصة منها ما يتعلق بالاتفاقيات الدولية وبالسفارات والعلاقات الدبلوماسية. ولا شك أن الانكباب على دراستها وتتبع ما جاء فيها عن أحوال دول المغرب الكبير، سواء تعلق الأمر بالكوازيط البرتغالية أم

4 - «Marrocos e o Mediterrâneo na 2ª metade do século XVIII», in *Islenha* nº 45, (Jul.-Dez.), 2009, FUNCHAL, DRAC, pp.123-140.



بكوازيط غيرها من الدول الأوربية، سيلقي بالمزيد من الأضواء على بعض ملامح تاريخنا الحديث والمعاصر.

لقد حاولنا الاحتفاظ ما أمكن بالنص الأصلي بدون تدخل منا، ما عدا في بعض الحالات التي استشرنا فيها المؤلف، وسمح لنا فيها بالتدخل لتصويب النص الأصلي، وفضلنا التنبيه في الإحالات الهامشية على بعض الأخطاء الموجودة في نصوص المقالات المقتطفة من الجريدة بدون حذفها من النص.

لقد تعلمنا الكثير في مدرسة أستاذنا عبد المالك التميمي، ونتمنى أن تكون هذه المساهمة المتواضعة في مستوى هذا التكريم مع متمنياتنا له بالصحة وطول العمر والمزيد من العطاء .

نص المقال

تمهيد:

لكي نتوصل إلى تبين الخصائص المميزة للواقع المغربي في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، لابد لنا من تركيز اهتمامنا على حكم السلطان الكبير سيدي محمد بن عبد الله. لكن، لكي نفهم حركته فهما كاملا، يتوجب علينا التعرف على الأوقات السابقة على صعوده إلى العرش. ومن أجل ذلك، سنتراجع إلى عهد مولاي إسماعيل (1672-1727). عندما تولى هذا القائد السلطنة، وجد نفسه في مواجهة وضعية تتسم بعدم الاستقرار، وبالنزاعات المتعددة. وكان عليه أن يواجه طيلة حكمه:

1- تطلعات بعض أفراد عائلته، وكمثل على ذلك، ثورة ابن أخيه أحمد بن محرز، الذي خاض معه حربا أهلية لما يزيد عن أربع عشرة سنة.

2- تطلعات عدد من العائلات الشريفة.

3- ثورات مدن فاس وتطوان.

4- بعض النزعات الانفصالية لعدد من القبائل كما هو الشأن بالنسبة لصنهاجة .[5]

ولمواجهة هذه القلاقل، نهج مولاي إسماعيل سياسة صارمة وحكما مطلقا. وتوصل إلى إخضاع كل التراب المغربي انطلاقا من عاصمته مكناس. وحقق ذلك بواسطة الترهيب والبطش والعقوبات الجماعية.

5 -Historia de Marruecos,(dir) José Crespo Redondo, Madrid,2006,p.82.

وقد اعتمدت سلطته على:

أ- جيش قار نظامي من حوالي 150000 رجل. أصلهم من السودان ومن تومبوكتو، وقبائل صحراوية أخرى.

ب- وحدة دينية، ساهمت في تحجيم قوة الزوايا.

ت- علاقات تجارية معتمدة على الخارج:

- التجارة مع السودان من جهة.

- والتجارة مع أوربا من جهة ثانية، وقد عهد إلى اليهود والمسيحيين باحتكار التجارة في مدن سلا وتطوان وأسفي وأكادير[6].

بعد وفاة مولاي إسماعيل، سنة 1727، بدأ عهد جديد من الصراع بين أبنائه. ولم تنته الفوضى بصعوبة إلا سنة 1757، عندما تسلم سيدي محمد بن عبد الله الحكم. وسنركز بالضبط على حركته السياسية - الدبلوماسية، وسنقسم تحليلنا إلى بعدين: الوضع الداخلي والواقع الخارجي.

1. الأوضاع الداخلية:

على المستوى الداخلي، كانت الأسبقية الأولى لحكم سيدي محمد، هي السيطرة السياسية والإدارية على كل المجال المغربي، الذي كان قسم كبير منه منفلتا من نفس السيطرة. الأراضي التي كانت تقطن فيها قبائل عديدة تابعة كانت تسمى بلاد المخزن، وفي المقابل، فإن الجهات التي تستقر فيها القبائل غيرالخاضعة كانت تسمى بلاد السيبة

1.1 المناطق الواقعة تحت الهيمنة الأجنبية:

كان لاسترجاع الثغور الواقعة تحت ظل سلطات أجنبية، معنى رمزي عميق، لأنها لم تؤد إلى نشر فكرة الوحدة فقط، بل كان لها أثر محمود إزاء الجماعات الراديكالية المعادية للكفار.

هكذا، تمكن سيدي محمد في سنة 1769من استرجاع مازاغان من البرتغاليين، وأقام حصارا قويا (من 9 دجنبر 1774 إلى 8 مارس 1775) على مليلية التي كانت في يد الإسبان، ولكنه لم يتمكن من استرجاعها.

2.1 القبائل الثائرة :

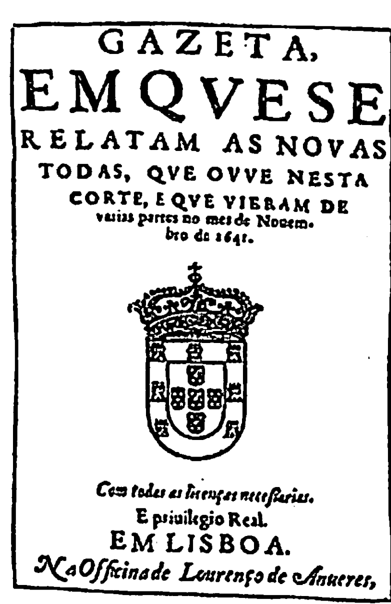
أدت حالة الفوضى المعاشة خلال العقود الثلاثة التي أعقبت وفاة مولاي إسماعيل (من 1727 إلى 1757) إلى استئناس القبائل بالتمرد ورفض الخضوع لسلطة المخزن، وأحيت نزعتها المتأصلة نحو الاستقلال الذاتي، الذي كانت تعرفه مجالات وقبائل متعددة في المغرب،

---

6 - Ibid, pp.83-84.

وخاصة في الجهات الجبلية (مثل الريف والأطلس). وهو وضع ساهمت التقاليد والاختلافات الأنثروبولوجية والثقافية الموجودة كثيرا عليه.

تعطينا المصادر البرتغالية معلومات عن بعض ثورات هذه القبائل . وبالنسبة لما وقع في جهة صنهاجة مثلا، سنة 1779، تشير"كازيطا لشبونة"[7] إلى هذا الحدث قائلة بأن الملك المغربي اضطر إلى التوجه إلى هناك لإقرار النظام، معاقبا بقسوة عددا هاما من سكانها، وحسب هذه الجريدة اليومية اللشبونية فإنه:


GAZETA,
EM QVE SE
RELATAM AS NOVAS
TODAS, QVE OVVE NESTA
CORTE, E QVE VIERAM DE
varias partes no mes de Nouem-
bro de 1641.

Com todas as licenças necessarias.
E priuilegio Real.
EM LISBOA.
Na Officina de Lourenço de Anueres,

الصفحة الأولى من كازيطا لشبونة

" (...) حكم السيف في أزيد من 1000 شخص، وقطع أزيد من 300 رأس، علقت بأسوار فاس البالي، وألقى القبض على أكثر من 500 شخص، بعد نهب المنازل وإحراقها"[8].

وفي نفس الوقت، تكررت نفس العملية ضد قبائل أخرى ريفية، ثارت بدورها ضد الحكم الشرعي. وتلقت مجموعة من القبائل الأخرى عقابا مماثلا فانتظمت في سلك القبائل الخاضعة لسلطة السلطان العلوي

وكان للزوايا دور كبير في الحد من هذه الحركات الاحتجاجية الاستقلالية ، نجد صدى لذلك في كازيطا لشبونة التي وصفت ذلك كما يلي:

" (...) وجد برابرة الجبال المجاورة أنفسهم مجبرين على العيش بانسجام مع سكان تطوان، وأكدوا على هذا الوعد بالعديد من الاحتفالات ومظاهر الصداقة في جبل مجاور حيث يوجد ضريح الشريف مولاي عبد السلام الذي يوليه مغاربة هذا الإقليم احتراما خاصا"[9]

7- نريد أن نذكر بأننا اعتمدنا في هذه الدراسة بشكل أساسي على الأخبار المنشورة عن المغرب ما بين 1778 و 1790 . في جريدة (Gazeta de Lisboa)

8 - Gazeta de Lisboa , n° 28, de 13 de julho de 1779,p.2.

9 - Gazeta de Lisboa , n° 31, de 3 de Agosto de 1779,p.2.

في نهاية العقد السابع، كانت لا تزال بعض مظاهر الفوضى الداخلية، ففي مكناس مثلا، تقدم مائة جندي إثيوبي وخمسون شريفا من فاس إلى الملك ليطلبوا منه العفو عن أعمال التمرد التي ساهموا فيها بهاتين المدينتين. ولم يكتف العاهل المغربي بتلبية طلبهم، بل وهب لكل جندي 20 دوكا، كما وهب10 دوكات لأرامل الموتى[10]

ووقع مثل ذلك يوم4 دجنبر1779، عندما كان السلطان متوجها إلى مدينة مراكش. فخلال رحلته إليها،"(...) **ترك كل شيء في نظام جيد، وعمل على استخلاص الضرائب التي فرضها على الأعراب من أجل التعويض عن الفوضى التي أحدثوها بإقليم تامسنا**"[11]. ومن جديد وفي سنة 1781، وعندما كان الملك متوجها من جديد إلى مراكش قادما من سلا، وجد نفسه في مواجهة ثورة بزعامة ابن عبد المالك. وتمكن الحراس المرافقون له من القضاء على معظم المعارضين[12].

واندلعت شرارة ثورة أخرى، في منتصف1782، "(...) **في الجبال الواقعة جنوب الامبراطورية المغربية**" وقد تعرضت الفرق التي أرسلها السلطان للهزيمة من الثوار، وقتل قائدها العام.[13]

ومما كان يزيد من احتدام بعض هذه الثورات، أن بعض الزوايا كانت تساهم في اضطرامها، وهذا ما وقع بالتحديد في بداية مارس1786، عندما كان السلطان متوجها مرة أخرى إلى مراكش، في ناحية سلا " **أرسل حملة ضد جماعة من اللصوص الذين تعودوا على الاحتماء بحمى إحدى القلاع التي كانت توجد قريبا من سلا، وحيث يقيم شخص يدعي الصلاح. وكان هؤلاء المجرمون، يلوذون بالحرم اعتمادا على أن السلطان لا يمكنه استباحة حرمة أرض ذلك الرجل العادل. وقد كانوا في هذا الحمى، مطمئنين غير مرتقبين لأي خطر عندما داهمتهم جيوش سيدي محمد**"[14] ليلا، وهاجمت الحصن المذكور.

ولم تفتر ثورات القبائل المتمردة إلا في نهاية سنة 1788.

3.1 ثورات أبناء السلطان:

بدأت المنافسة تظهر بوضوح بين مولاي اليزيد، وهو ابن أمة انجليزية - إيرلاندية، وبين مولاي عبد الرحمان، ابن أمة سوداء، ابتداء من سنة1776، ووصلت إلى حد المواجهة العسكرية، في عدة مناسبات.

---

10 - Suplemento à Gazeta de Lisboa , n° 2, de 15 de Janeiro de 1779,p.1.
11 - Gazeta de Lisboa , n° 11, de 14 de Março de 1780,p.2.
12 - Gazeta de Lisboa , n° 24, de 12 de junho de 1781,p.1.
13 - Gazeta de Lisboa , n° 52, de 24 de Dezembro de 1782,p.1.
14 - Gazeta de Lisboa , n° 23, de 6 de junho de 1786,p.1.

وفي بداية سنة 1778 وقعت فصول جديدة من المواجهات، وهي التي تكررت في يوليوز وغشت من سنة 1778. في تلك الفترة، كانت القبائل البربرية القاطنة بجهات فاس ومكناس قد ثارت. وتوجه مولاي اليزيد ابن السلطان المعروف بكفاءته العسكرية إلى تلك الجهة للقضاء عليها. لكن إقامته الطويلة بهذه الجهة، بدون إعطاء أخبار عنه، أثارت التخوف الذي كان يحس به السلطان نفسه تجاه هؤلاء الناس[15]. ومن أجل الاستخبار عما كان يجري فعلا، أرسل أخاه مولاي المأمون، أوعبد الرحمان، والذي كان مكلفا بمهمة الرجوع به إليه[16]. لن تكون هناك صعوبة في التأكيد على أن هذا اللقاء تحول إلى مواجهة إضافية بين ابني السلطان هذين[17]، وفي نفس الوقت خرج ابن آخر للسلطان متأهبا من مكناس باتجاه الجبال، نتيجة لقيام ثورة أخرى[18]. ازدادت الوضعية الداخلية تأزما لدرجة أنه تمت معاينة أن الأمير الأكبر المغربي ترأس مجموعة قوية وبدأ يستعد لخلع والده عن العرش[19].

تدهورت الوضعية الداخلية في7 شتنبر 1783 عندما مات مولاي علي، أكبر أبناء السلطان، الذي - حسب مراسل كازيطا لشبونة في طنجة- كان أكبر مدافع عن تحسين العلاقات مع الأوربيين، بينما كان مولاي عبد الرحمان الذي خلفه في كرسي ولاية العهد، معروفا " **بمزاجه الدموي العنيف**"[20]

استمرت وضعية عدم الاستقرار في الإعلان عن نفسها، وبدأت تظهر بوضوح، وهكذا اضطر السلطان في سنة1787، إلى تأجيل اجتماع كان يعد لإجرائه في فاس مع سفير السويد. ونسجل هنا تبريرين ممكنين لهذا الحادث، وسنعطي الكلمة لكازيطا لشبونة، التي قدمت لنا وجهة النظر التالية للوضعية :

" البعض يقدم كسبب رئيسي، بأنه انتشرت بمملكة تافيلالت إشاعة بأن الملك قد مات (الشيء الذي أدى إلى قيام الشرفاء الذين يغص بهم ذلك البلد)، وكان لزاما حضور السلطان بشخصه لتهدئة الثائرين وطمأنتهم. والبعض الآخر يؤكد أن الخبر التالي هو السبب الرئيسي لسفر السلطان. وهو أن مولاي"حسن" ابن صاحب الجلالة المغربي، أراد الاستيلاء على خزائن والده، وأن مولاي عمر أخاه تصدى له، ودخل هذان الأميران في شجار، وسقط الأول ميتا من طلقة مسدس"[21]

15 - Ramon Lourido Diaz , Marruecos en la segunda mitad del siglo XVIII, Madrid,1978,p.305.
16 - Suplemento à Gazeta de Lisboa , n° 12, de 23 de Outubro de 1778,p.2.
17 - Suplemento à Gazeta de Lisboa , n° 16, de 20 de Outubro de 1778,p.1.
18 - Suplemento à Gazeta de Lisboa , n° 6, de 20 de Novembro de 1778,p.2.
19 - Gazeta de Lisboa , n° 19, de 8 de Dezembro de 1778,p.2.
20 - Gazeta de Lisboa , n° 51, de 23 de Dezembro de 1783,p.1.
21 - Gazeta de Lisboa , n° 27, de 3 de julho de 1787,p.1.

واجه السلطان أيضا تحالفا مشكلا من اثنين من أبنائه، يتزعمه مولاي اليزيد الذي كان على رأس جيش، من الأهمية بحيث اضطر السلطان إلى تجييش جيش قوامه حوالي60 ألف جندي[22]، والتقى الجيشان للقتال بالقرب من مكناس، وجاء هذا الحادث في كازيطا لشبونة، في العبارات التالية :

"خرج الامبراطور منذ أيام من العاصمة، وهو الآن يتنقل من إقليم لآخر، في مقدمة فرقه العسكرية، لمعاقبة أنصار ابنيه اللذين ثارا عليه(...). لكن على الرغم من الرعب الذي أحدثته جيوشه في كل الجهات، لقي بالقرب من مكناس عددا هاما من هؤلاء الأنصار الذين تصدوا له"[23]

1ـ 4. المشاكل المتعلقة بالإنتاج ومخلفات الكوارث والجوائح :

زيادة على المشاكل السياسية، وجد المغرب نفسه في منتصف سنة 1778، في صراع مع مشاكل المرض، وكانت موجة وبائية قد انتشرت في المناطق الأقرب إلى الشمال، مثل طنجة والعرائش والقصر الكبير وفاس وسلا[24]. لكن، لوحظ في18 شتنبر أن "**الأمراض المعدية**" قد انقطعت، مما أدى إلى انفراج مؤكد في ثمن الحبوب.

في السنة الثانية (1779)، جاء دور جائحة الجراد الذي اكتسح جهة مكناس، مدمرا قسما هاما من محاصيل الحبوب، وانعكس ذلك سلبا على ثمن الحبوب[25]. وعانت الأقوات من ارتفاع ملحوظ في الثمن داخل المجال المغربي. وعلى الرغم من كل شيء فإن هذه العراقيل تم التخفيف من وطأتها بعد سقوط الأمطار في نهاية شهر ماي، مما أنعش الأمل في محاصيل أحسن، وأدى ذلك بشكل فوري إلى انخفاض أسعار الحبوب[26].

ومن أجل التخفيف من وطأة هذه المصاعب، فإن السلطان أعفى من "**حقوق الجمرك كل السفن التي تجلب إلى الموانئ المغربية القمح والشعير والزبدة وأي منتوج غذائي آخر**"[27]. وتكملة لذلك التمس السلطان من كل القناصل الأجانب العمل على التخفيف من هذه الوضعية[28].

---

22 - Gazeta de Lisboa , n° 35, de 26 de Agosto de 1788,pp.1-2.

23- Gazeta de Lisboa , n° 37, de 9 de Setembro de 1788,p.1.

24 - Suplemento à Gazeta de Lisboa , n° 12, de 23 de Outubro de 1788,p. 2.

25 - Gazeta de Lisboa , n° 21, de 25 de Maio de 1779,p.1.

26 - Gazeta de Lisboa , n° 23, de 8 de Junho de 1779,p.1.

27 - Gazeta de Lisboa , n° 47, de 23 de Novembro de 1779,p.2.

28 - Gazeta de Lisboa , n° 11, de 14 de Março de 1780,p. 2.

وكان جفاف (1776-1782) واحدا من المشاكل الأخرى التي مست قسما كبيرا من حكم هذا الملك. وهكذا نجد البلاد تعاني من الجفاف في 13 مارس1781، مما دفع بالمسلمين واليهود إلى القيام بصلوات استسقاء متتالية طلبا للغيث[29].

2. العلاقات الخارجية:

مع البرتغال:

خلق التخلي عن مازاغان من لدن البرتغاليين سنة 1769 مناخا من التوتر بين البلدين، ولم تتبدد سحبه إلا فيما بعد ذلك بكثير. وتمت الخطوات الأولى سنة 1773 بالتنظيم القنصلي للبرتغال في المغرب. وفي هذه الفترة، وبارتباط مع روح الانفتاح الدبلوماسي على أوربا، وقع المغرب مع البرتغال سنة 1774 اتفاقية التجارة والملاحة.

ولكي يقدم السلطان سيدي محمد دلائل على رغبته في قيام علاقة دبلوماسية ودية مع البرتغال، وفي إطار مجاملة رقيقة منه للملكة البرتغالية الجديدة(الدونا مارية الأولى) التي ارتقت إلى العرش في 29 فبراير سنة1777، أرسل إليها هدية من"**ستة خيول جيدة**"[30]. وتكلف قائد طنجة عبد المجيد الأزرق بمهمة حمل هذه الهدية إلى البلاط اللشبوني، وكان مرفوقا بالبرتغالي مانويل بونتش[31]. وفي شهر يوليوز1781، أرسلت الملكة البرتغالية، ردا على هذه المجاملة " **ساعة حائطية جميلة موشاة بجواهر ثمينة، هدية إلى السلطان المغربي**"[32].

تمتعت المراكب البرتغالية في ظل الاتفاقية الموقعة سنة1774، ببعض الحرية في الملاحة في المجال المتوسطي. لكن في بداية سنة 1779، قام قراصنة إمارة الجزائر بإهانة وإساءة طاقم بحارة يخت برتغالي، ودفع هذا العمل نائب القنصل البرتغالي إلى تقديم شكاية إلى السلطان المغربي الذي وعد بالدفاع عن حرية مرور السفن البرتغالية[33].

وفي 9 نونبر سنة1779، أمر العاهل المغربي خديمه بوهلال بالإبحار إلى لشبونة لكي يقوم هناك بشراء الذهب لسك النقود بالمغرب[34]. ولا يعرف هل تم فعلا وصول هذا المبعوث المغربي إلى لشبونة، لكن المؤكد أنه في30 دجنبر 1779 كان لا يزال في سلا[35].

29 - Gazeta de Lisboa , n° 22, de 29 de Maio de 1781,p. 1.
30 - Suplemento à Gazeta de Lisboa , n° 2, de 15 de Outubro de 1779,p. 1.
31 - Gazeta de Lisboa , n° 15, de 13 de Abril de 1779,p. 1.
32 - Gazeta de Lisboa , n° 46, de 13 de Novembro de 1781,p. 1.
33 - Gazeta de Lisboa , n° 28, de 13 de Julho de 1779,p. 2.
34 - Gazeta de Lisboa , n° 6, de 8 de Fevereiro de 1780,p. 1.
35 - Gazeta de Lisboa , n° 41, de 12 de Outubro de 1779,p. 2.

استمرت الصداقة بين المغرب والبرتغال في الإعلان عن نفسها فيما بعد، وفي منتصف سنة 1789، عندما قام قرصان جزائري بأسر مركب برتغالي ولجأ إلى ميناء طنجة، أمر السلطان بمصادرة المركب منه في الحال، وأن يظل بنفس الميناء24 ساعة بعد خروج المركب البرتغالي حتى لا يعود لأسره من جديد"[36].

2.2. مع فرنسا:

بمجرد أن تولى سيدي محمد الملك سنة1757، بحث عن التقارب مع الدول الأوربية الرئيسية، ومن أجل ذلك، وجه سياسته الدبلوماسية نحو توقيع اتفاقيات ملاحية وتجارية مع مختلف الدول. وفي الفترات الأولى من حكمه، أقام علاقة تفضيلية مع إسبانيا وفرنسا، على حساب انجلترا.

ومع ذلك، يلاحظ أنه في بدايات القرن18، كانت انجلترا هي التي تتمتع عمليا باحتكار التجارة مع المغرب. ساعد على ذلك كثيرا قرب جبل طارق، التي أصبحت منذ 1704 بيد السلطة البريطانية. وفي سنة1721، وقع المغرب وانجلترا اتفاقية تسمح بحرية المرور للسفن الانجليزية عبر البحر ولتجارها عبر البر. لكن هذا التفضيل سينتهي بسبب الدعم الانجليزي لمنافس سيدي محمد على العرش المغربي خلال الحرب الأهلية (1727-1757).

ولذلك تحول المغرب إلى فرنسا، وجدد اتفاقية سبق أن وقعت سنة 1682 بين لويس الرابع عشر والسلطان مولاي إسماعيل. وفي سنة1762، تم التوقيع على اتفاقية جديدة خول فيها المغرب لفرنسا وضعية "الدولة الأكثر تفضيلا".

وفي سنة 1779، أرسلت فرنسا السيد دوديبير كايي (Daudibert Caille) قنصلا بطنجة. وطالب هذا الدبلوماسي بمعاملة تفضيلية، تعطى لممثلي مختلف الملوك الأوربيين في المفاوضات المستقبلية مع الملك المغربي. وأضاف " بأن عددا من أمراء أوربا راغبون في إقامة السلم مع السلطان، إذا عرض هو التفاوض في هذا الشأن، ورفع راية بيضاء وفي وسطها حمامة مرسومة، تمسك بمنقارها غصن زيتون، رمزا للسلم "[37]

هذا النص يفصح عن التعالي الذي كانت فرنسا تنظر به إلى المغرب. وهو راجع إلى تفوقها الملاحي والجيوبوليتيكي في البحر المتوسط، حيث تتوفر على قاعدة هامة (مارسيليا)،

تجدر الإشارة هنا إلى أن المؤلف أغفل الحديث عن سفارات أخرى على قدر كبير من الأهمية نذكر من بينها على الخصوص سفارة السفير العناية التي تكلفت بنقل جزء من مال الخزينة المغربية لإيداعه في البرتغال خشية من ضياعه في خضم الاضطرابات التي عرفها المغرب والمتعلقة بالجفاف والمجاعة ، (المترجم)

36 - Gazeta de Lisboa , n° 32, de 7 de Agosto de 1787,p. 2.

37 - Gazeta de Lisboa , n° 3, de 21 de Janeiro de 1783,p. 1.

وعلى أسطول عسكري بقدرات عسكرية، لا تهاب ضغوط قراصنة إمارتي الجزائر وتونس. ولهذا فإن فرنسا، على عكس الدول الأخرى التي كانت تسعى للحصول على رضا السلطان، كانت تسعى لفرض شروطها. ولذلك نجدها في يناير 1783، عندما كانت تفاوض اتفاقية جديدة للملاحة والتجارة مع المغرب، تضع العراقيل، وترفض الكثير من المطالب المغربية[38]. ازدادت الاختلافات بين هاتين الدولتين حدة بعد ذلك[39]، وكان من الضروري الضغط على فرنسا لقبول مقترحات الملك المغربي. وفي هذا الإطار، أعد المغرب في نهاية 1784، أربع فرقاطات وسلح عدة سفن قرصانية[40]، تحسبا واستعدادا لأي تدخل محتمل .

3.2. مع إسبانيا :

في نهاية سنة 1778، كانت الخلافات الناتجة عن الهجوم المغربي على مليلية،(1774-1775) قد تجووزت، وفي السنة التالية، (1779)، أرسل سيدي محمد سفارة إلى بلاط كارلوس الثالث بهدف إحياء العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين. كان المغرب بحاجة إلى الدعم الإسباني، ولذلك أنعم عليها [إسبانيا] أيضا بوضعية الشريك المفضل. وبسبب رغبة السلطان في أن يظهر أن العلاقات الدبلوماسية بين هاتين الدولتين قد عادت إلى وضعها الطبيعي، فقد أمر حاكم الصويرة، في الشهور الأخيرة لسنة 1779 ، بأن "يقدم ما يحتاج إليه من المؤونة الطرية (الفريشك) للمراكب القرصانية والسفن العسكرية، لكل الدول التي تقدم إلى هناك، بدون استثناء، بما فيها إسبانيا نفسها؛ وبما أن البلاط أرسل إلى قادس واحدة من سفنه القرصانية مع قائد مغربي، وصدرت من البلاطين معا إشارات عديدة معبرة عن الصداقة، فقد كان من المنتظر أن يتم الإعلان في وقت قريب عن السلم بين إسبانيا وبلاد الامبراطور"[41].

كان جو الصداقة متبادلا. عومل السفير المغربي في مدريد بعناية كبيرة، واستقبل المغاربة الذين أرسلوا إلى قادس، للتفاوض في مسائل مختلفة، وإبرام صفقات تجارية، بكبير العناية. وفي30 غشت 1780، أعطى الملك المغربي إشارات جديدة على بداية مسلسل من التقارب مع إسبانيا، مصدرا أوامره إلى المسؤولين عن مدينة طنجة بما يلي:

"... بأن جلالته لا يساند أي طرف في الحرب بين الإسبانيين والانجليز، وأمر رعاياه بأن لا يضايقوا الإسبانيين ولا يؤذوهم، ما دام الإسبان يقبضون على الانجليز في موانئهم وأراضيهم؛ وأن كل السفن الانجليزية يمكنها أن ترسو بالأرض، لكن بدون أي ضمان.

38 - Gazeta de Lisboa , n° 17, de 27 de Abril de 1784,p. 3.
39 - Gazeta de Lisboa , n° 47, de 23 de Novembro de 1784,p. 1.
40 - Gazeta de Lisboa , n° 11, de 14 de Março de 1780,p. 2.
41 -Gazeta de Lisboa , n° 39, de 26 de Setembro de 1780,p. 1.

أمر أيضا المغاربة، القاطنين بسواحله، بأن لا يطلقوا النار على المراكب الإسبانية، تحت طائلة سخطه الملكي، وأن يتركوها تتحرك بحرية"[42].

في بداية العقد الثامن، سعى المغرب إلى مراجعة الاتفاق الموقع سابقا مع إسبانيا. لذلك أبان عن بعض المواقف المظهرة للتباعد عن إسبانيا، وحاول إعطاء الانطباع بأنه على تقارب مع انجلترا. وعلى الفور، سعت إسبانيا إلى إرضاء السلطان، وحملت إليه "عددا مهما من الأسرى المسلمين، الذين كانوا بممالكها". وفي المقابل، "لقي الوفد الإسباني أفضل قبول وعناية في المغرب، بنفس المستوى الذي خص به عاهل إسبانيا المبعوثين المغاربة من قبل. وأيضا فإن نفس المبعوث أخبر بأن صاحب الجلالة المغربي أرسل أوامر مماثلة إلى تطوان حول طريقة التعامل مع سفن الحرب الإسبانية"[43]، لأنه في هذا الميناء عبر بعض القادة المحليين، عن تعاطفهم مع الإنجليز، الذين تواطأوا معهم في الضغوط الممارسة منهم على السفن الإسبانية التي ترسو هناك.

وأرسلت إسبانيا هدية إلى الملك المغربي، ولذلك أخبر حاكم سبتة قائد طنجة بأنه يريد نقل صندوق يتضمن هدية، طالبا منه أن يفتحه وأن يعطيه إيصالا بمحتوياته. وبعد فتح الصندوق، لاحظ أنه يتضمن جواهر مقدرة ب100 ألف بسيطة[44].

نتيجة لهذه المبادرات المتبادلة الدالة على الصداقة، تم توقيع اتفاق سلم جديد بين إسبانيا والمغرب. وحافظت العلاقات الدبلوماسية على "تفاهم جيد" مع كل دول أوربا "باستثناء فرنسا وانجلترا"[45].

لكن لم يتم التوقيع على أية اتفاقية تجارية وتصاعد التوتر في منطقة المتوسط بين إسبانيا وانجلترا يوما عن يوم، ووصل الأوج في نهاية سنة1782، بالهجوم الفاشل الذي قامت به إسبانيا على جبل طارق[46].

عرف المغرب، مرة أخرى، كيف يستغل الظرفية التي كانت إسبانيا تمر بها[47]، وأعلن في دورية من مدينة الصويرة بواسطة رسالة بأن " الامبراطور أنهى العمل عموما بالاتفاق المبرم

---

42 - Gazeta de Lisboa , n° 43, de 24 de Outubro de 1780,p. 2.

43 - Gazeta de Lisboa , n° 47, de 20 de Novembro de 1781,p. 1.

44 - Gazeta de Lisboa , n° 3, de 15 de Janeiro de 1782,p. 1.

45 - Suplemento à Gazeta de Lisboa , n° 2, de 17 de Janeiro de 1783,p. 4.
تخبرنا "أن نيران العدو [الانجليز] ظلت تطلق ذخيرتها لعدة أيام وليال بمنتهى قوتها، ووصلت أحيانا إلى 800 طلقة من مختلف الذخائر، زيادة على الأحجار، وطلقات البنادق".

46 - Gazeta de Lisboa , n° 14, de 2 de Abril de 1782,p. 1.

47 - Gazeta de Lisboa , n° 17, de 23 de Abril de 1782,p. 1.

مع ملك إسبانيا والمتعلق بموانئ طنجة والعرائش وتطوان، والذي انتهى العمل به سنة1781؛ وأنه من الآن فصاعدا ستكون هذه الموانئ حرة لكل الدول، وأن الانجليز يمكنهم الذهاب إلى هناك، والحصول على الفريشك، ويكونون محميين في كل موانئ الامبراطورية المغربية كما كان الأمر عليه في السابق".

ظهر أن العلاقات الدبلوماسية مع إسبانيا بدأت تتدهور، الشيء الذي أدى إلى خروج ممثل بلاط مدريد في طنجة من المدينة[48]. وسعت إسبانيا من جهتها إلى استعادة جو الصداقة، الذي كان سائدا بين هذين البلدين. ولهذا السبب، أرسلت إلى ميناء الصويرة، المدينة التي كان السلطان مقيما بها خلال شهري أبريل وماي من سنة 1782، هدية من "أربعة صناديق محملة بهدايا هامة. ومكافأة لها على ذلك تمكن الإسبان من الحصول على تراخيص جديدة بحمل كل المواد الغذائية التي يحتاجونها من هناك، بدون أداء الحقوق الجمركية"[49].

وفي 23 يوليوز 1785، تم إبرام اتفاقية جديدة للسلم والصداقة بين إسبانيا والمغرب[50]. وتوجب هذه الاتفاقية على المغرب الضغط على الباب "العالي " العثماني، لكي يتدخل ويجعل إمارة الجزائر "تتراجع عن حركاتها القرصنية ضد أصدقاء جلالته المغربية"[51]، وهو الشيء الذي كان يلحق أضرارا كبيرة بالتجارة المتوسطية. وقد بلغ الحد بالمغرب إلى تبني جانب الإسبان في الخلاف الذي كان لهذا البلد مع الجزائر[52].

في سنة 1778، عندما دخلت تركيا في حرب مع روسيا، تحالفت إسبانيا مع الباب العالي العثماني، ولتعزيز هذا التحالف، عرضت إسبانيا نقل السفير التركي، الذي كان في سلا والذي كان يرغب في الرجوع إلى القسطنطينية. ومن أجل ذلك، أعدت سفينة حرب وحملته إلى غاية تلك المدينة التركية[53]، كما أن بعض أسفار السفير المغربي إلى الباب العالي كانت تتم أيضا على حساب قنصل إسبانيا[54].

كانت العلاقات الدبلوماسية بين المغرب وإسبانيا كثيفة وودية لدرجة أن بعثة من الكونگريس الأمريكي، وصلت إلى المغرب في نهايات يونيو 1786، بفضل المساعي الحميدة التي قامت بها إسبانيا، وذلك بغرض إبرام اتفاق صداقة بين الولايات المتحدة الأمريكية والمغرب[55].

48 - Gazeta de Lisboa , n° 28, de 9 de Julho de 1782,p. 1.
49 - Gazeta de Lisboa , n° 38, de 17 de Setembro de 1782,p. 1.
50 - Gazeta de Lisboa , n° 39, de 27 de Setembro de 1785,p. 1.
51 - Gazeta de Lisboa , n° 45, de 8 de Novembro de 1785,p. 1.
52 - Gazeta de Lisboa , n° 51, de 20 de Dezembro de 1785,p. 1.
53 - Gazeta de Lisboa , n° 6, de 7 de Fevereiro de 1786,p. 1.
54 - Gazeta de Lisboa , n° 7, de 14 de Fevereiro de 1786,p. 1.
55 - Gazeta de Lisboa , n° 42, de 17 de Outubro de 1786,p. 1.

4.2. مع انجلترا:

كما سبق أن أشرنا إليه أعلاه، في شتنبر1778، كانت العلاقات الدبلوماسية مع الانجليز غاية في التوتر، وكدليل على ذلك، إرسال القائد الحاج "الجباص"إلى حاكم جبل طارق، مقدما له "رسائل غير مستحسنة [شديدة اللهجة] من ملك المغرب، لأن هذا الملك أعلن فيها بكثير من السخط أنه غير مستعد لإجراء مقابلة القنصل البريطاني ولا قبوله بحضرته، ولا حتى تلقي هداياه من بلاطه"[56].

ومع ذلك، يلاحظ أن القنصل العام البريطاني تمكن، وبالرغم من كل شيء، من الحصول على إذن بالإقامة بطنجة، بل وتمكن أيضا من الحصول على 500 رأس من قطيع الأبقار من أجل تغذية حامية جبل طارق[57].

إن الفارق في المعارف التقنية على مستوى صناعات السفن، مضافا إلى رغبات الاقتداء بمزايا وجمالية المنتوج الأوربي، دفع السلطان إلى إرسال سفير، مقترحا، بل ومصدرا ما يشبه الأمر، بأن يتم دهن **"واجهات سفنه وغرفها في جبل طارق، وخاصة تلك التي سيسافر على متنها الأمير (Giazgud) (...) مع حاشية من 14 من الأعيان المغاربة، للذهاب إلى الإسكندرية، ومنها إلى مكة"**[58].

وقد سعى السيد إليوت حاكم جبل طارق إلى تبديد الغيوم المخيمة على العلاقات الدبلوماسية، ووافق على أن لا يؤدي المغرب ثمنا لصباغة فرقاطاته الأربعة، وزودها علاوة على ذلك بالمؤونة والأشرعة والحبال. ولقي المبعوث الرسمي المغربي فنيش عناية خاصة دفعته إلى اصطحاب السيد لوجي، القنصل العام البريطاني معه، لكي يحظى هو شخصيا باستقبال من السلطان، ويأذن له بالتالي بشغل مهمته بالمغرب[59].

عبر الملك المغربي عن رغبته في استقبال القنصل البريطاني، ومن أجل ذلك، غادرت الفرقاطات الأربعة المغربية المصبوغة والمصلحة في جبل طارق هذا الميناء في اتجاه العرائش، ومن هناك توجه الوفد مشيا إلى فاس. وخصص لهم الملك حامية شرفية من200 فارس؛ وبمجرد ما رسوا بالعرائش، تمت استضافتهم في قصر باشا المدينة، وتولى هذا المسؤول المغربي على عاتقه كل نفقات الوفد[60]. هذه الالتفاتة البريطانية أثمرت نتائجها المطلوبة، فقد تقرر

56 - Suplemento à Gazeta de Lisboa , n° 16, de 20 de Outubro de 1778,p. 1.

57 - Gazeta de Lisboa , n° 19, de 8 de Dezembro de 1778,p. 2.

58 - Gazeta de Lisboa , n° 22, de 29 de Dezembro de 1778,p. 1.

59 - Gazeta de Lisboa , n° 22, de 29 de Dezembro de 1778,pp. 1.2.

60 - Gazeta de Lisboa , n° 15, de 13 de Abril de 1779,p. 1.

بأن تدفع السفن الانجليزية عند الدخول إلى الموانئ المغربية الرسوم الأكثر انخفاضا، وتعفى في نفس الوقت من أداء كل الحقوق لوسق القمح والزيت والمؤونة الطرية (الفريشك)"[61]

اعتادت انجلترا أن تلجأ إلى المغرب لتلبية حاجياتها من الحبوب، وكذلك التبن والخشب اللازمين لحصن جبل طارق. جرب الانجليز تكتيكات مختلفة بهدف احتلال مكانة تفضيلية في العلاقات الدبلوماسية مع هذه الدولة من شمال إفريقيا، ولهذا الهدف فإن القنصل الانجليزي:

" (...) باسم الحكومة الانجليزية، عرض عليه[المغرب أو السلطان] كل الجنود، والذخائر، والمدفعية، والمهندسين الذين يحتاجهم، في حالة ما إذا رغب في استرجاع الثغور، التي يتوفر عليها الملك الكاثوليكي [الإسباني] في إفريقيا، مظهرا له أن هذه المناسبة ستكون الأكثر ملاءمة للوصول إلى نهاية هذا الفتح؛ لكن جلالة الملك رفض بكرم كامل هذه العروض، محتجا بوضوح وبالعلن بأنه لن يكدر صفو العلاقات الموجودة بينه وبين جلالة الملك الكاثوليكي، ولن يسمح بأدنى تصرف عدائي ضده، وخاصة في الوقت الذي يخوض فيه حربا ضد قوة أخرى"[62].

سعت انجلترا لاكتساب التعاطف المغربي، وأهدى القنصل الانجليزي للسلطان المغربي 150 برميلا من البارود و101 قنطارا من الرصاص كانت قد أتت من بليموث، ورست في ميناء طنجة[63].

لكن هذا التفاهم لم يستمر سوى لمدة قصيرة، فقد استدعى ملك المغرب القناصل من مختلف الدول الأوربية (هولاندا والسويد والدنمارك والبرتغال) لاجتماع في سلا، وفيه عبر عن رغبته بأن تبعث إليه هذه الدول عددا مهما من أثواب الكتان، إضافة إلى منتوجات أخرى. وفي نفس الوقت، يبعث قناصل تلك الدول، المقيمين بقادس،" **بعض المقادير من القمح إلى موانئنا المغربية**"[64]. تعطينا هذه المناسبة فكرة واضحة عن الاعتبار الذي توليه مختلف الدول الأوربية للمغرب. وهكذا تجاهلت انجلترا الطلب بذريعة أنها لم تستدع إلى الاجتماع، بينما رفضت فرنسا أداء هذا العطاء. وقد استدعي القناصل الأجانب المقيمون بطنجة من جديد، من لدن العاهل المغربي في 23 دجنبر 1780 حيث أعلمهم "**بأسباب الشكاية التي قدمها ضد الانجليز؛ وعن الشكر، الذي يدين به لملك إسبانيا، موضحا الدوافع التي جعلته يقوم على الإنجليز، بالشكل الذي تم فعلا، ويعامل الإسبانيين بعناية، ويخصهم بالأفضلية كما هو معهود**"[65].

61 - Gazeta de Lisboa , n° 17, de 27 de Abril de 1779,p. 2.

62 - Suplemento à Gazeta de Lisboa , n° 33, de 20 de Agosto de 1779,p. 1.

63 - Suplemento à Gazeta de Lisboa , n° 33, de 20 de Agosto de 1779,p. 2.

64 - Gazeta de Lisboa , n° 1, de 2 de Janeiro de 1781,p. 1.

65 - Gazeta de Lisboa , n° 4, de 23 de Janeiro de 1781,p. 2.

أجاب الانجليز باستعمال القوة، وجمعوا بجبل طارق أكثر من 250 سفينة شراعية، ووضع هذا الأسطول تحت قيادة الكومودورو جون ستون. رد الفرنسيون والإسبان "**بإعداد أسطول مشترك يضم عدة سفن عسكرية في مضيق جبل طارق**"[66]. وبلغ الأمر بالإنجليز إلى حد التهديد بالهجوم على طنجة خلال 24 ساعة، وبأن كل [السفن] التي لا تنتمي إلى الدولتين المستثناتين[فرنسا وإسبانيا]، والتي ترسو في طنجة، سيتم الإستيلاء عليها ومصادرة ممتلكاتها[67]. فأمر جلالة الملك المغربي "**رعاياه القاطنين بالموانئ والسواحل والخلجان المتاخمة، بتقديم النجدة في كل المناسبات والظروف للإسبانيين ضد أعدائهم، وبالخصوص ضد الانجليز، وحتى ضد الجزائريين**"[68] ، محاولا حرمان جبل طارق من كل نجدة ممكنة.

وقد تفجرت هذه الخلافات في المواجهة العسكرية التي تمت في بداية 27 غشت1781 ضد الحصن الانجليزي[69]. وأدى الفشل العسكري الإسباني ضد حصن جبل طارق، والمصاعب الاقتصادية والسياسية التي عرفها المغرب، إلى توجه المغرب نحو التقارب من انجلترا. وفي 19 دجنبر 1784، أرسل المغرب إلى الباب العالي فرقاطة تحت راية إنجليزية وبها ستة آلاف قنطار من البارود، و1300 قنطار من ملح البارود (نترات الصوديوم)[70]. وقد تميزت العلاقات بين المغرب وانجلترا بمجموعة من الإجراءات المتناقضة. فانجلترا، كانت تستغل المناسبات التي يعاني فيها الوضع الداخلي من المصاعب والضعف، لتقوم في نفس الوقت بمنع المراكب المغربية من الدخول إلى جبل طارق. وبما أن هذه الدولة المغاربية كانت تعاني من نقص كبير في المواد الغذائية الرئيسية، وحاجة شديدة إليها، فإن السلطان اشتكى من هذا الإجراء[71].

ومن أجل تحصين قلعة موغادور، تم الحصول من جبل طارق على 10 مدافع برونزية من مقاس 36، وقامت انجلترا بمهاداة المغرب ب24 عربة مدفع من سعة26، دعما لهذا التوجه المغربي لشراء الأسلحة.

ولم ترغب عدد من القوى الأوربية في السماح للانجليز بتجاوزها بحركتهم هذه، لذلك بادرت بدورها إلى إرسال هداياها. وهكذا بعثت السويد فرقاطة محملة بالذخائر، أما فرنسا والدنمارك فقد اختارتا إرسال 75 ألف باطاكاش لكل منهما[72].

66 - Suplemento à Gazeta de Lisboa , n° 9, de 2 de Março de 1781,p. 3.

67 - Gazeta de Lisboa , n° 10, de 6 de Março de 1781,p. 1.

68 - Gazeta de Lisboa , n° 36, de 4 de Setembro de 1781,p. 1.

69 -Gazeta de Lisboa , n° 39, de 25 de Setembro de 1781,p. 4.

70 - Gazeta de Lisboa , n° 16, de 19 de Abril de 1785,p. 1.

71 - Gazeta de Lisboa , n° 26, de 28 de Junho de 1785,p. 1.

72 - Gazeta de Lisboa , n° 27, de 5 de Julho de 1785,p. 1.

عرفت انجلترا كيف تستغل التبعية الخارجية المغربية، واستعملت بذكاء دعمها لتركيا في الحرب التي خاضتها هذه ضد روسيا. وبهذا الدعم، فإن بريطانيا العظمى، سعت إلى تثبيت حضورها في المتوسط، وفي نفس الوقت إضعاف القوة الروسية في البلطيق.

كان هناك مركب انجليزي، راسيا منذ عشرة أشهر، من أجل خدمة السلطان المغربي. بعد ذلك التاريخ، وفي 14 فبراير1786، غادر المركب المرسى إلى القسطنطينية بحمولة جديدة من ملح البارود، هدية من السلطان المغربي إلى الباب العالي العثماني. وبموازاة مع ذلك، كان هناك مركب إسباني راسيا بطنجة لحمل بعض المغاربة إلى الإسكندرية[73].

قاد الرايس المغربي مستغانمي، في أكتوبر1787، ثلاث فرقاطات مغربية لكي تقضي فصل الشتاء في جبل طارق. لأن هذه الفترة هي الملائمة لإصلاحها. وبما أن القائد البريطاني في جبل طارق رفض ذلك الحضور، فإن السلطان ظل مستاء جدا.

سعى العاهل المغربي للحصول على المساعدة الانجليزية، ولذلك عقد مع القنصل البريطاني في طنجة اتفاقا في بداية يناير 1788، من أجل تحرير الأسرى الانجليز الموجودين بالمغرب[74]. ووصل الحد بالملك المغربي، الذي كان مستاء من التصرف البريطاني الآنف الذكر، إلى الانتقام بإلغاء الامتيازات التي سبق له أن أعطاها للإنجليز، ولم يأذن بتصدير المزيد من القطيع والمواد الغذائية إلى جبل طارق. وأعلن أنه لن يتراجع عن هذا القرار، إلا إذا "**تعهد الملك البريطاني بأن يحمل إلى القسطنطينية الهدية الثالثة التي كان الملك المغربي يرغب في إرسالها إلى الباب العالي على متن فرقاطتين، ويقوم بخفرهما**"[75].

بلغ عدم رضى المغرب إزاء انجلترا حد إعلان السلطان المغربي الحرب على الإنجليز، وذلك على الرغم من أن هذا البلد كان حليفا للأتراك في الحرب الثانية الروسية التركية، (1787-1792). وتم الإعلان عن هذا التوجه المغربي لمختلف القناصل الأوربيين الموجودين في طنجة. ويبين المقتطف التالي ذلك بوضوح :

"... **أعلن أنه يعتبر نفسه في حرب مع كل القوى التي مالت إلى صف الروسيين في الحرب الواقعة بين الروس والأتراك. وينتج عن هذا الإعلان أن المراكب النمساوية المبحرة في البحر المتوسط، لن تستثن من هجمات الراية المغربية. إن الخلافات القائمة بين انجلترا وبلاطنا وصلت في الأخير إلى أسوإ نتيجة يمكن توقعها، لذلك فإن جلالتنا قرر إعلان الحرب على هذه الدولة**"[76].

73 - Gazeta de Lisboa , n° 18, de 2 de Maio de 1786,p. 1.
74 - Gazeta de Lisboa , n° 13, de 25 de Março de 1788,p. 1.
75 - Gazeta de Lisboa , n° 20, de 13 de Maio de 1788,p. 1. Et n°18 de 29 de Abril de 1788,p.1.
76 - Gazeta de Lisboa , n° 23, de 3 de Junho de 1788,p. 1-2.

وتوقف كل اتصال بين المغرب وانجلترا، نتيجة لإعلان الحرب بين هاتين الدولتين[77].

"اضطرت كل السفن البريطانية التي كانت راسية في موانئ هذه الامبراطورية إلى مغادرتها، بدون أن يسمح لها بالتموين بأي شيء مهما كان نوعه؛ وكل اتصال بين مركز جبل طارق وتطوان وهذا الميناء [طنجة] أصبح مقطوعا "[78]

وبتاريخ 23 يوليوز1788، تم إرساء السلم والتفاهم بين امبراطورية المغرب وانجلترا[79]، لذلك عادت العلاقات مع انجلترا إلى وضعها العادي "لدرجة أن سفنهم (الانجليز) تأتي إلى هناك كما كان الشأن من قبل لوسق القمح ومنتوجات أخرى من البلد"[80]. لكن، بالنسبة للملك المغربي، فإن الإبقاء على العلاقات الدبلوماسية بين هاتين الدولتين، كان مرتبطا بأداء مقابل مالي من قبل الإنجليز. وهذا المقتطف التالي يوضح ذلك:

"إذا كنتم ترغبون في أن تكون الموانئ المغربية مفتوحة لتحصلوا على الأقوات بنفس الحقوق التي يدفعها الإسبان، عليكم إذا شئتم خفر المركبين إلى القسطنطينية، كما أردنا ذلك في السنة الماضية، وسفينتين أخريين تقلان هدايا أخينا عبد الحميد "[81]

5.2. مع الجمهوريات الإيطالية:

في 15 أكتوبر1782، بدأ ملك المغرب غزوا دبلوماسيا جديدا نحو عدة دول أوربية، وهكذا أرسل إلى ليفورنو وفدا من 37 شخصا، ومنها إلى عدة بلاطات أخرى، وتم حملهم على مركب بندقي، وحملوا هدية من" **20 فرسا فارهة وحيوانات أخرى**"[82].

وأدت جمهورية البندقية إتاواتها أيضا إلى المغرب لكي تبحر ببعض الحرية في المتوسط[83]. كما حل بطنجة ممثلوا فيينا وفلورنسا، من أجل تبادل التصديق على اتفاقيات التجارة الموقعة[84].

---

77 - Suplemento à Gazeta de Lisboa , n° 24, de 13 de Junho de 1788,p. 3.

78 - Gazeta de Lisboa , n° 31, de 29 de Julho de 1788,p. 1.

79 - Gazeta de Lisboa , n° 33, de 12 de Agosto de 1788,p. 3.

80 - Gazeta de Lisboa , n° 37, de 9 de Setembro de 1788,p. 1. Et Gazeta de Lisboa , n° 43, de 21 de Outubro de 1788,p. 3.

81 - Gazeta de Lisboa , n° 2", de 9 de Junho de 1789,p. 1.

82 - Gazeta de Lisboa , n° 49, de 3 de Dezembro de 1782,p. 1.

83 - Gazeta de Lisboa , n° 52, de 24 de Dezembro de 1782,p. 1.

نشير إلى أنه في نهاية أكتوبر 1782 " رسا بطنجة مركب بندقي كان يحمل عشرة آلاف سكين (sequins) [وهي عملة ذهبية قديمة]، من أجل الإتاوة السنوية التي تدفعها هذه الدولة " للمغرب.

84 - Gazeta de Lisboa , n° 49, de 9 de Dezembro de 1783,p. 1.



كما أرسل المغرب أيضا مبعوثا إلى غاية القسطنطينية. وكان هذا المبعوث مرفوقا بممثل لراكَوزة. وكان هذا اللقاء ثمرة مساعي حميدة لقنصل البندقية المقيم في الباب العالي[85].

في السنوات الأولى من العقد الثامن، وقع تكثيف الروابط الدبلوماسية مع بعض الجمهوريات في شبه الجزيرة الإيطالية. ووصل إلى موغادور مبعوث من جمهورية جنوة. وتم الترخيص له على الفور بالإعفاء من حقوق الخروج لكل المواد التي يحملها من المغرب[86].

في 5 يناير 1784، وصل إلى مراكش ماركيز دي فياتي ممثل جمهورية جنوة. وخلال رحلته من سلا إلى العاصمة، كان مرفوقا بحامية من 150 فارسا و 50 جملا و18 شخصا. وتم استقباله بكل مظاهر العناية من السلطان، من أجل التعبير عن تقديره له. وتمت استضافته في قصر المرحوم أخيه، وأرغم متاجر المدينة على إغلاق أبوابها[87].

طلب امبراطور المغرب من جمهورية البندقية سفينة لنقل ابنه من طنجة إلى الإسكندرية، ومن هناك كان الأمير يرغب في الذهاب إلى مكة[88]. وكانت البندقية في هذه الفترة تعاني من عداء شديد مع باي تونس[89]، ولذلك وافقت حالا على الطلب المغربي.

حاول الملك المغربي ربط علاقات دبلوماسية مع دول أخرى، وتعزيز العلاقات الموجودة، وكان ذلك شكلا من أشكال الحصول على مداخيل لتعزيز مداخيله الضعيفة. وهكذا في 17 ماي 1779، وصل إلى تطوان ممثلون للدنمارك وجمهورية البندقية، مع مبالغ مالية كبيرة مؤداة "بالدولار المكسيكي"[90].

85 - Gazeta de Lisboa , n° 26, de 1 de Julho de 1783,p. 2.
86- Gazeta de Lisboa , n° 41, de 14 de Outubro de 1783,p. 1-2.
87 - Gazeta de Lisboa , n° 8, de 24 de Fevereiro de 1784,p. 1.
88 - Gazeta de Lisboa , n° 11, de 14 de Março de 1786,p. 3.
89 - Gazeta de Lisboa , n° 12, de 7 de Março de 1786,p. 1.
90 - Gazeta de Lisboa , n° 30, de 27 de Julho de 1779,p. 1.

خلاصات ختامية :

قبل إنهاء هذا المقال، نود أن نقدم بطريقة تركيبية، أهم الخطوط العريضة لسياسة وحكم سيدي محمد بن عبد الله. ولعل المظهر الأكثر وضوحا هو تأثير الأوضاع الداخلية التي تعتبر عاملا مكيفا لتحركاته على المستوى الدولي، وخاصة خلال الصراع والتنافس بين أبناء السلطان، وتفرقهم بشكل واضح، كما يمكن تأكيده من المقتطف التالي: **"لا يمكن لامبراطور المغرب، حسب ما يظهر، الوصول إلى أهدافه العدائية ضد بعض القوى الأوربية بسبب العائق الذي يشكله عصيان ابنه مولاي اليزيد"** [91].

وهناك خاصية أخرى، واضحة جدا على طول هذه الفترة، وهي عدم فعالية ونقص المعارف الملاحية الموجودة بالمغرب، وخاصة في مجال الملاحة عبر المحيط الأطلسي. ولتوثيق هذه الفكرة جيدا، نذكر أنه في 14 دجنبر 1785، دخلت إلى ميناء موغادور أربع فرقاطات مغربية للتسلح بالمدفعية. وكان الهدف من ذلك التعاطي للقرصنة في المحيط الأطلسي، في المنطقة الواقعة بين رأس اسبارتيل والجزيرة الثالثة "ترسيرا"[92]. لكن اثنتين منها سرعان ما غرقتا بجانب ساحل البرتغال، بسبب سيرهما في مسار سيء[93].

إن عدم القدرة على الملاحة في الأطلسي تظهر واضحة من الرسالة التي كتبها امبراطور المغرب، في 29 أكتوبر 1786، إلى باشا طنجة، ولكي نوضح ذلك نقدم نصا مختصرا منها:

" (...) نأمر خديمنا(...) بأن يستدعي كل القناصل، المقيمين بطنجة، ويقول لهم بأن رجال بحريتنا يفقدون كل سنة بعض سفننا: وهكذا فالجنس، الذي سيكون أكثر حظوة لدينا، يعطينا ربابنة "بلوطات" لقيادة سفننا وبحارة. أحتاج في كل واحدة منها إلى عشرة أشخاص، سيتم توزيعهم على الملاحة في البحر الكبير والصغير[الأطلسي والمتوسط]، وستسلم لهم قيادة مراكبي، ويتبع لهم رجال بحريتي. وكل المعلمين والبحارة الذين سيعملون على متن مراكبي، سيتسلمون نصف أجرة زائد على ما يتقاضونه في بلادهم.

عليك أن تعلمني، من من القناصل هو مستعد لخدمتي في هذا الشأن، وأعلمهم بالخصوص، بأن مراكبي يجب أن تبحر إلى الهند الشرقية والغربية"[94].

---

91 - Gazeta de Lisboa , n° 34, de 19 de Agosto de 1788,p. 1.

92 - Gazeta de Lisboa , n° 13, de 7 de Março de 1786,p. 1.

93 - Gazeta de Lisboa , n° 18, de 2 de Maio de 1786,p. 1.

94 - Gazeta de Lisboa , n° 48, de 28 de Novembro de 1786,p. 1.

كان إصلاح الإدارة والجيش أيضا من أهداف السلطان الأخرى، كما كان يرغب أيضا في تمديد سلطة المخزن على كل التراب المغربي. إلا أن تحقيق هذه الرغبة كان يكلف الخزينة مصاريف مالية مرتفعة.

في اتفاقيات السلم، الموقعة مع مختلف الدول الأوربية، كان من الضروري وجود شروط عن حرية الملاحة والتجارة. وكانت هذه الاتفاقيات الطريقة التي توصل إليها السلطان من أجل إيجاد مداخيل مالية، كانت جد ضرورية لخزينة مالية منهكة. عرف السلطان بذكاء كيف ينتفع من

" الحرب بين القوى البحرية تستمر في جلب النفع لصالح تجارتنا. إن الضرورة التي جعلتهم يرغبون في استمالة ملك المغرب لصالحهم. أدت بهم إلى دفع ثمن مرتفع له، ربما لم يكن ليحصل عليه في ظرفية أخرى"[95].

كانت البرتغال ومعها إسبانيا والسويد والدنمارك، ضمن مجموعة من الدول التي كانت لها علاقات دبلوماسية جيدة مع المغرب[96].

في 6 أبريل 1790، تم الإعلان عن وفاة ملك المغرب. وأمام هذا الحادث، أمر الرئيس الأكبر لمالطة، الأسطول الديني بالخروج إلى البحر لحماية سواحل إسبانيا وفرنسا والبرتغال من هجومات القراصنة، وتأمين حرية الملاحة والتجارة البحرية[97].

95 -Gazeta de Lisboa , n° 31, de 1 de Agosto de *1780,p. 1.*

96 - Gazeta de Lisboa , n° 46, de 13 de Novembro de 1781,p. 1.

يرتب هذه العلاقة في العبارات التالية : " على الرغم من كل شيء ، شهد هذا الملك [ملك المغرب] في الاستقبال الذي خص به السيد كوليمبرغ، بأن دول إسبانيا والبرتغال والسويد والدنمارك هي التي يتشرف بصداقتها بين كل شعوب أوربا "

97 - Gazeta de Lisboa , n° 24, de 15 de Junho de 1790,p. 1.

فهرس المحتويات

هذا الكتاب:

لقد فكرت في أن أجمع الأعمال التي سبق لي نشرها، والمشتتة في مراجع مختلفة، في إطار مجموعات متجانسة، لتيسير الاطلاع عليها من قبل الباحثين المهتمين، علما بأنني فوجئت أكثر من مرة بأن بعض الزملاء المختصين في الفترة الحديثة، لا يعرفون شيئا عن بعض هذه الأعمال، أو يجدون صعوبة في الوصول إليها.

إن الباحث يقضي وقتا طويلا في إعداد بعض الأبحاث، ويشارك بها في ملتقيات علمية أو ينشرها في مجلات أو كتب جماعية، ولكنها لا تصل إلى نطاق واسع من القراء، لأسباب عديدة، أهمها عدم تمكن القراء من تتبع كل هذه الأعمال المشتتة، لذلك ارتأيت أن أقتدي ببعض زملائي الباحثين الذين خاضوا هذه التجربة فقربونا من أعمالهم، ومكنونا من الاطلاع عليها بيسر وسهولة.

ذ. عثمان المنصوري

CTP & Impression : Imprimerie Rabat Net Maroc